obeikan.com

عشق

الكتاب : عشق
المؤلف : أحمد عبد المجيد
تصميم الغلاف : محمد عبد القوي مصيلحي
تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع : 2014/19214
الترقيم الدولي : 978-977-6436-85-5
الطبعة الأولى : 2015

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت- 02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

عشق

رواية لـ

أحمد عبد المجيد

ن للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إلى أمّي، التي منحتني الحياة

ومروة سمير، التي أوقدت في صدري نارًا للعشق لم تنطفئ

obeikan.com

زِدني بفرطِ الحبِّ فيكَ تحيُّرًا.. وارحمْ حشىً بلظى هواكَ تسعَّرا

وإذا سألتُكَ أن أراكَ حقيقةً.. فاسمَحْ، ولا تجعلْ جوابي لن تَرَى

سلطان العاشقين؛ عمر بن الفارض

(576 هـ - 632 هـ)

obeikan.com

أتدري يا (عزيز)؟

سأقف يومًا فوق أعلى قمّة في العالم، أعلى قمّة في الكون، وحينها سأُفكّر: ما معنى كلّ هذا؟ من أجل ماذا كان كلّ ما كان؟

أحيانًا أعتقد أنّ الوهم أصل كلّ شيء، أنا وأنتَ و(إيناس) و(رِهام) وأماندا وأفاتار، وكلّ أصدقائي، وكلّ ما امتلكتُه يومًا أو ظننتُه عن نفسي والآخرين، كلّ شيء ليس سوى وهم..

لكنّ ذلك سيكون قاسيًا جدًا، بالتأكيد لسنا كذلك، على الأقل أنا وأنتَ.. لسنا مجرّد فكرة في عقل شخص آخر ربما يلعب الآن بالنرد وهو يُفكّر فيّ وأنا أقول هذه الكلمات..

سأخبركَ كيف بدأ الأمر، أنتَ تعرف أنّه من الصعوبة بمكان الإمساك ببداية أيّ شيء أو تحديدها، كلّ شيء يؤدّي إلى آخر بالضرورة حتّى تُصبح كرة الثلج واضحة المعالم وتبدأ في الحركة فلا يمكننا إيقافها..

لكنّني هذه المرّة أذكر جيّدًا اليوم الذي بدأ فيه كلّ شيء..

أذكر أنّني كنتُ أسير في شارع طويل، طويل، لا يمكنكَ أن ترى نهايته من موقفكَ، تحفّه الأشجار من كلّ جانب، تُظلّله وتحنو عليه، طريق ممهّد قد تجد فيه نتوءات من آنٍ لآخر، لكنّها نتوءات تزيد إحساسكَ بالراحة،

تُشعركَ أنّ يد الإنسان لم تمتدّ بعد إلى هذا المكان، مكان بكر كما خلقه الله. على البعد كان هناك كشك صغير غريب الشكل يبيع المثلجات للأطفال الذين تجمهروا حوله في سعادة، هناك بعض الأشخاص الذين يسيرون حولكَ، كلّهم سعداء، كلّهم تعكس ملامحهم تلك البهجة التي كنتَ تراها في كلّ شيء في طفولتكَ، فتى وفتاة يمسكان يديّ بعضهما بحبّ، يتحدّثان في عينيّ بعضهما ولا يشعران بالعالم حولهما، طفل صغير يسير بين والديه ممسكًا ببالونته بيد، وبالأخرى يُمسك كفّ والده التي تُشعره بالأمان.. أليس هذا جميلاً يا (عزيز)؟

تملّكني شعور عارم بالبهجة، هذا مكان رائع، مزيج بين دفء الريف ونس المدينة، مكان تتمنّى لو تتوقّف به لتبني كوخًا، هنا حيث تقف، وتقضي فيه بقيّة عمركَ.. هذا المكان رأيتُه من قبل أو مررتُ به.. ربّما مع أبي حين كنتُ صغيرًا..

رفعتُ قدمي لأتمشّى كما يفعل كلّ من حولي، لكنّني قبل أن أضعها على الأرض فوجئتُ بظلالٍ تمتدّ من حيث لا أدري، سحب غائمة غطّت وجه السماء لتحجب عنّا نظرة الشمس إلينا، فجأة صار الطريق موحشًا مخيفًا، وأصبحت الأشجار التي تُحيطه مُهدِّدة..

فوجئتُ بكلّ من في الشارع يلتفتون إليّ فجأة، لوهلة ظننتُ أنّني فعلتُ شيئًا ما لفت انتباههم، لكنّهم لم يتيحوا لي فرصة التفكير، انقلبت ملامحهم وتجهّمت، حتّى الأطفال صاروا يرمقونني بكراهية، أشار إليّ طفل صغير بقمع الآيس كريم في يده وهتف:

نحن لا نحبّكَ!

ورأيتُ رجلاً يقف بعيدًا، تغمره الظلال فلا يظهر وجهه، أشار بيده نحوي وهتف بصرامة:

أحضروه!

وكأنّهم يأتمرون بأمره، انطلقوا جميعًا يركضون في اتّجاهي.. حاولتُ الهرب لكنّ قدميّ كانتا ثقيلتين، هنا أدركتُ أنّني أحلم، كلّ هذا كابوس، كابوس أراه كثيرًا يا (عزيز) لكنّني في كلّ مرّة لا أتذكّر أنّني مررتُ به حتّى أستيقظ..

أخذتُ أركض ببطء بقدميّ الثقيلتين، ومطارديّ يقتربون منّي وملامحهم تعكس الغضب والغلّ.. سنفعل بكَ الأفاعيل ما إن تقع بين أيدينا.

ملأني الفزع، ثمّ فجأة وجدتُني جالسًا في فراشي أتحسّس ما حولي برعب، بأنفاسٍ متلاحقة والدموع تبلّل وجنتيّ..

أخذ الأمر منّي بضع ثوانٍ قبل أن أتذكّر من أنا وماذا أفعل هنا.

تمالكتُ نفسي وغادرتُ غرفتي لأجد الصالة معتمة مع الدفعة الأخيرة من أشعة الشمس الغاربة، فأدركتُ أنّني لم أنم كثيرًا.. المكان خالٍ موحش، ظننتُ لوهلة أنّني لو تحدّثتُ فستُعيد إليّ الجدران صدى صوتي.. رمقتُ شاشة "موبايلي" فوجدتُ أربعة "ميسد كول".. تأمّلتُ بشجن صورة

صغيرة لي موضوعة فوق التلفزيون وأنا أحمل (أدهم) حينما كان عمره سنة، أرمق الكاميرا مبتسمًا في سعادة..

تمشّيتُ قليلاً حتّى "اللاب توب". فتحتُ صفحتي على "الفيس بوك" وكتبت:

الآن أُدرك أنّ الليلة ستكون أسوأ ليلة في حياتي.

obeikan.com

استندتُ بيدي على الجدار الملاصق للبانيو وتركتُ شلال الماء ينهمر على رأسي، تأمّلتُ ذراعيّ ذات العضلات البارزة، الماء ينساب بسرعة على جسدي الذي أنفقتُ الكثير من الوقت ليصل إلى هذا الشكل المتناسق.. بطل رياضي لا ينقصه سوى الاشتراك في الأولمبياد..

أخذتُ أتسلّى بالقيام ببعض الحركات القتاليّة بذراعيّ أسفل الماء وأنا أتحرّك في عدّة اتجاهات وأُواجه رجالاً وهميّين، البطل الجبّار يقاتل أعداءه الأوغاد تحت المطر.. لا أحد سيشعر بالخوف وأنا معه..

أشعر بالخواء، لم يكن عليّ الخروج الليلة، لكنّني وعدتُ الرفاق.

عليّ أن أختار البذلة التي سأرتديها.. فتحتُ دولابي وتأمّلتُ مجموعتي من البذل، منذ ثلاث سنوات قرّرتُ أن أشتري كلّ شهر بذلة جديدة، بغضّ النظر عن التكاليف.. الجميع يعرفون أنّني لا أرتدي سوى البذلات الرسميّة، من النادر أن يراني أحد أرتدي ملابس عاديّة.. البذلة تمنح مرتديها كاريزما خاصة، أنتَ حينما تُقابل رجلاً يرتدي ملابس عاديّة قد تحترمه أو لا تحترمه، يعتمد هذا على عوامل عديدة قد لا يتحكّم هو فيها.. لكنّكَ حينما تُقابل رجلاً يرتدي بذلة ففي الغالب ستتعامل معه بحذر، ستفتتح تعاملاتكَ معه بتبجيل.. لذلك أصبحتُ دائمًا أقول لأصدقائي ناصحًا: البذلة نصف الاحترام.

والآن لديّ ما يزيد عن الثلاثين بذلة من مختلف الأنواع، وكلّها ماركات عالميّة، قد أرتدي اثنتين منها في يوم واحد، على حسب عدد المرّات التي يجب أن أغادر فيها البيت..

تأمّلتُ نفسي في المرآة بفخر..

شعري الناعم المصفّف إلى الخلف، مع الخصلات التي قد تنكفئ على جبيني من حين لآخر فتزيدني وسامة، عيناي العسليتان الواسعتان، أخذتُ أختبر نظرتهما الناعسة التي أعرف تأثيرها على المعجبات.. الساعة الـ Casio التي تُزيّن معصمي، وبذلتي الـ Calvin Klein الفضيّة تلمع عليّ..

أخذتُ أختبر تعبيرات وجهي في المرآة، تعبير الليلة سيحوي إرخاء الشفتين في ابتسامة بسيطة، مع ترك نظرة ساهمة في العينين، تقول ببساطة: أشعر أنّني واحد منكم.. لا بأس بإحناء الوجه قليلاً لليمين أو اليسار مع إمالة قليلة للأمام.. تعبير التواضع الذي أُحبّ منحه لمن حولي..

قد أضطر للاستماع للكثير من الحوارات، لذلك عليّ ضبط تعبير المتابعة.. رفع الحاجبين مع نظرة مُرهَقة في العينين تقول: كنتُ سأبذل جهدًا أكبر في الاستماع إليكَ لولا أنّني مُتعب..

تأمّلتُ قائمة عطوري المتراصة على التسريحة، ثمّ مددتُ يدي واخترتُ عطر Fahrenheit Dior، رائحته مزيج من روائح نبات الخزامى، البرتقال، البابونج، الليمون، القرنفل، خشب الصندل، وأوراق البنفسج والياسمين، سيكون مناسبًا لهذا المساء.. غمرتُ وجهي وكتفيّ وتحت إبطيّ برشّات متتابعة، ولم أتوقّف إلا حينما شعرتُ أنّ الرائحة تُفعم كلّ

ما حولي.. ثمّ تناولتُ حقيبتي الجلديّة السوداء، وتأكّدتُ من أنّ "اللاب توب" الـ Apple والـ Samsung Note 10.1 والـ Kindle كلّها مستقرّة بداخلها، وانطلقتُ مغادرًا الشقّة وأنا أرمق حذائي الـ Cole Haan الأسود اللامع. مررتُ بـ(مختار) البوّاب فلمحتُ أنفه يهتزّ قليلاً وهو يُحاول ألا يبدو على وجهه أنّ رائحة عطري اقتحمته.. صعدتُ إلى سيّارتي الـ Chevrolet Optra حمراء اللون، ووضعتُ حقيبتي على المقعد المجاور.. لابدّ أنّ هناك أكثر من عين تُتابعني الآن، لا يمكنهم ألا يفعلوا، من يرى إلهًا يمشي على قدمين ولا يرمقه بالنظرات الفضوليّة؟ أحيانًا حينما أخرج أشعر أنّ الشوارع تبتهج لسيري فوقها، لابدّ أنّ الكثير من العاديين يسيرون فوقها طوال الوقت، أشخاص مُحبَطون فشلة لا أهداف لهم، لا يُشكّلون وزنًا في الحياة، لكنّهم يؤذون الأرصفة بأحذيتهم البالية، ويزيدون العالم ازدحامًا.. ثمّ آتي أنا فيتنفّس إسفلت الطريق الصعداء، أخيرًا جاء (نادر منصور) ليشفي جراح نفوسنا وإحباطاتنا، أخيرًا هناك شخص سيُغيّر وجه العالم يمشي فوقنا، يا للفخر، يا للشرف!

تأكّدتُ من وجود أسطوانة مصطفى قمر في مُشغّل الأسطوانات، ثمّ أدرتُ المحرّك وخفضتُ فرامل اليد، وانطلقتُ.

كان ياما كان

العم نوح.. رغم الجروح

بيخطي عتبة حيّنا

نفس المكان.. آخر النهار

واحنا صغار.. ع البيانولا يلمّنا

وياخدنا يلف بينا.. بين طرقات المدينة

أنا وانتي وف عينينا.. الأماني تضمّنا

مصطفى قمر أيام كان يُشكّل دويتّو رائعًا مع سامح العجمي، هو يُلحّن وسامح يكتب وأنا أذوب حلمًا..

تنهّدتُ بحرقة، التسعينات العظيمة.. أتدري يا (عزيز) أنّ أغنيّة كهذه قد تجعلني أبكي إذا سمعتها وحدي.. كما أنا الآن؟

اقتربتُ من أوّل عبّاس، ورأيتُ (صلاح) ينتظرني من بعيد، فأسرعتُ أنزع الأسطوانة من مشغّل الأسطوانات ووضعتُها بحرص في التابلوه، ثمّ وضعتُ مكانها أسطوانة "انت عمري"..

رجّعوني عينيك لأيامي اللي راحوا

علّموني أندم على الماضي وجراحه

اللي شفته قبل ما تشوفك عينيا

عمر ضاع، يحسبوه ازاي عليا؟

صعد (صلاح) بسرعة إلى جواري، وقبل أن يُغلق الباب وراءه هتف بي وقد فاجأته الرائحة التي تغمر السيّارة:

ألن تكفّ عن إسرافكَ في استخدام العطور؟!

ope-ikan.com

لاحظتُ أنّه ترك السكسوكة الصغيرة التي تُحيط بفمه بلا تشذيب كعادته، وهتفتُ به ضاحكًا:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا صديقي الطيّب، أنا أيضًا سعيد بلقائكَ واشتقتُ لكَ كثيرًا!

- أنا اشتقتُ لكَ يا (نادر) لكنّني لم أشتق لعطوركَ النفّاذة تلك! سيقول النّاس يومًا إنّكَ تُعوّض بها عقدة نقصٍ ما!

- أُحبّ أن أرتبط عند الناس في كلّ مناسبة بعطر ما، أُحبّ أن أترك بصمتي الخاصة على الهواء كما أفعل في نفوس الجميع!

هزّ رأسه بيأس:

لم يكن التواضع يومًا من فضائلكَ!

ثمّ استمع قليلاً إلى صوت أمّ كلثوم وغمغم منتشيًا:

لكنّ أكثر ما يُعجبني فيكَ أنّكَ سمّيعٌ قدير، لا ينقصكَ سوى الاستماع إلى فريد الأطرش لتحصل على خِتم الجودة.

قلتُ له مبتسمًا وأنا أُركّز على الطريق أمامي:

أمّ كلثوم عشقي الأوّل والأخير، لا يمكنني الاستماع لغيرها!

أخرج من حقيبته مجلّة ولوّح بها قائلاً:

بالمناسبة، الحوار تمّ نشره!

مططّتُ شفتيّ وأنا أغمغم:

جميل.

- لا أراكَ متحمّسًا!

هززتُ رأسي:

بالعكس، قيمة هذا الحوار في أنّ صديقنا (مصطفى سعيد) هو من أجراه معي، وهكذا أكون قد قمتُ بواجبي تجاهه ومنحتُه حوارًا سيُساعده بالتأكيد في مشواره الصحفي!

رأيتُ في المرآة الجانبيّة وجهه الذي ارتسمت عليه ابتسامة مندهشة:

أنتَ شنيع! بدلاً من أن تشكره تعتقد أنّكَ خدمته!

- يا صديقي الطيّب العزيز، من قال لكَ إنّني لن أشكره؟ سأشكره بالتأكيد، لكنّني أنا وأنتَ ندرك جيّدًا أنّني لم أكن في حاجة لحواره، هناك ثلاثة أو أربعة حوارات تُجرى معي كلّ شهر، ناهيك عن اللقاءات التلفزيونيّة من آن لآخر.. أنا فعلاً قبلتُ إجراء هذا الحوار لأدعم مكانة (مصطفى) في المجلّة، ليس أكثر!

وصلنا إلى مكتبة خيال في مصر الجديدة، فصففتُ السيّارة في أوّل مكان شاغر صادفني، وترجّلتُ متأبّطًا ذراع (صلاح).

استوقفني أمام باب المكتبة وسألني:

هل تُمانع أن أشرب سيجارة قبل أن ندخل؟

رمقتُه متردّدًا، ثمّ هززتُ كتفيّ بمعنى أنّه لا مشكلة.. لابدّ أنّ الرفاق قد وصلوا بالداخل، ودخولي متأخّرًا سيعطيهم إحساسًا بأهمّيتي!

أخذتُ أتأمّل واجهة المكتبة حيث تراصت الكتب الأكثر شهرة، "سادة وعبيد" في مكان مميّز كالعادة. رمقتُ (صلاح) بطرف عيني، "أحلام الأنقياء" بالطبع غير موجودة، لا في الواجهة ولا داخل المكتبة.

- أريد أن آخذ رأيكَ في فكرة جديدة تُراودني..

هتفتُ غير مُصدّق:

رواية جديدة؟ غير معقول يا (صلاح)، إنّه خبر رائع!

نشر (صلاح) روايته الأولى منذ ست سنوات، كنّا وقتها أنا وهو و(مصطفى) و(كريم) أعضاءً في صالون ثقافي يقيمه الأستاذ معتز عبد الجوّاد الأديب المعروف مرّة أسبوعيًا، ويُسمح فيه للشباب بقراءة أعمالهم ويتناقش الحضور حولها.. هكذا تعرّفتُ على كلّ أصدقائي المقرّبين. التقى (صلاح) حينها بهشام كامل الناشر الشاب واتّفق معه على أن ينشر له روايته مقابل أن يدفع تكاليفها بنظام المناصفة.

تحمّسنا لفكرة نشر الرواية، لم يكن سوق النشر منتعشًا كما هو الآن، وكانت تنقصنا الخبرة، فاعتبرناها فرصة لا تُعوّض أن يجد أحدنا ناشرًا يقبل أن ينشر عمله حتّى لو بمقابل.

لكنّنا فوجئنا حينما استلم (صلاح) نسخه من الرواية.. الطباعة رديئة، الغلاف باهت والورق خفيف والكتابة غير واضحة.. ثمّ لم نجد الرواية في

أيّ مكان، لم يقم هشام بتوزيعها على المكتبات، وكلّما هاتفه (صلاح) يُخبره أنّ الأمر يحتاج وقتًا ولا يمكن أن يتمّ بين ليلة وضحاها.. مرّت الأسابيع ثمّ وجدنا الرواية تُباع على بعض فرشات الجرائد في وسط البلد ولدى بعض المكتبات الصغيرة.. ثمّ بعد أسابيع أخرى اختفت تمامًا ولم نجد لها أثرًا.. وبدأ هشام يتهرّب من (صلاح) ولا يردّ على اتّصالاته، وفي النهاية صارحه بأنّ الرواية لم تُعجب القرّاء ولم تبع سوى ثلاثين نسخة، في الغالب اشتريناها نحن وأصدقاؤنا.

منذ ذلك الحين و(صلاح) مُحبَط ولا يريد إعادة التجربة مرّة أخرى، لا بالنشر ولا بالكتابة.. كنّا نسخر منه لنستفزّه، نقول له: هل اعتزلتَ الكتابة نهائيًا؟ أتخشى أن تكتب؟

فكان يرمقنا بابتسامته الوديعة ولا يردّ.. كان يُطبّق نفس ما كتبه في "أحلام الأنقياء". يعيش نفس العالم الوردي المثالي الذي كتب عنه ولم يهتمّ أحدٌ بقراءته.

- أُفكّر في كتابة جزء ثانٍ لأحلام الأنقياء.

رمقتُه بدهشة:

وهل قرأ أحد الجزء الأوّل؟ لماذا لا تخرج من عباءة عالمكَ المثالي وتكتب عن الواقع كما هو فعلاً؟

ظهر الضيق على وجهه وصارحني وهو يُلقي بسيجارته جانبًا:

obeikan.com

هذا هو الواقع كما أراه، وهذه هي الرسالة التي أودّ إيصالها للقارئ.. نحن نعيش في عالم ودود يا (نادر)، نحن فقط من لا نعرف كيف نتعامل معه جيّدًا!

رددتُ عليه ساخرًا:

آه صحيح، وأنتَ يا قائدنا من صادقتَه وتعاملتَ معه بطريقة جيّدة فمنحكَ كلّ ما تريد!

- (نادر)! انتبه لكلماتكَ من فضلكَ!

عادةً أنا دبلوماسي للغاية يا (عزيز)، أُجيد انتقاء كلماتي وأعرف جيّدًا كيف أُجامل من أمامي، لكنّني مع (صلاح) و(مصطفى) و(كريم) أُطلق العنان للسواد بداخلي، لستُ في حاجة لمجاملتهم بعد كلّ هذا العمر، لذلك أقول لهم ما بداخلي بلا تزويق.

- النقطة هنا يا (نادر).. وهو ما أردتُ مصارحتكَ به منذ فترة طويلة.. أنّني كنتُ أطمح أن تقوم دار أماندا بنشر الرواية الجديدة لي.. إحم.. والرواية الأولى إن أمكن!

دائمًا ما أخشى مثل هذه المحادثات، أن يُحاول أحد الأصدقاء استغلال منصبي في أماندا لأنشر له.. في حالة أخرى كنتُ سأرحّب كثيرًا بالنشر لكاتب جيّد مثل (صلاح جميل)، لكنّ المشكلة أنّني قرأتُ "أحلام الأنقياء" منذ ست سنوات.. وأدرك كم هي رائعة! لو نشرتُها في هذا التوقيت فقد يؤثّر هذا على مبيعات "سادة وعبيد"!

وقبل أن أقول شيئًا بلا معنى يُبرر لـ(صلاح) أنّني لن أنشر له، أنقذتني يدٌ صغيرة أمسكت بطرف جاكيتة البذلة وصاحبتها تقول لي:

- رائحتكَ حلوة جدًا يا عمّو!

- شكرًا يا حبيبتي.

كانت فتاة شوارع، تُمسك في يدها بكيسي مناديل، لم تعرض علينا أحدهما.

رمقتني باستجداء:

- أريد جنيهًا يا عمّو!

عبثتُ في جيبي قليلاً وأخرجتُ عدّة ورقات نقديّة تأمّلتُها، ثمّ انتقيتُ واحدة بخمسة جنيهات ودفعتُها إليها وأنا أرمقها بابتسامة دافئة:

خذي يا حبيبتي، اشتري لنفسكِ حلوى!

تناولت منّي النقود بسعادة وهمّت بالرحيل.. عدتُ أنظر إلى واجهة المكتبة وفكّرتُ أنّ الأفضل أن ندخل الآن إلى الرفاق لأهرب من انفراد (صلاح) بي، لكنّ الفتاة عادت مرّة أخرى لتقول بلهجة حاولت أن تجعلها رقيقة متوسّلة:

والنّبي يا عمّو، ممكن تشتري لي كشكولاً لأكتب فيه؟

رمقتُها بدهشة، ثمّ قلتُ لها:

obeikan.com

لا توجد كشاكيل هنا يا صغيرتي، هنا يبيعون الكتب فقط!

رمقتني في حيرة ثمّ قالت بإصرار:

وماله، هاتلي كتاب!

فكّرتُ قليلاً ثمّ قلتُ لها بحماس مفاجئ:

تعالي!

أخذتُها من يدها بينما (صلاح) يرمقنا بدهشة.. دفعتُ باب المكتبة وأدخلتُها معي، واتجهتُ بها إلى قسم الأطفال الذي أعرفه جيّدًا.

رآنا أحد العاملين في المكتبة فرمقنا بدهشة، ثمّ تقدّم نحوها:

لا يمكنكِ أن تدخلي هنا يا شاطرة!

وتشمّم الهواء بدهشة بعد أن وصلته رائحتي.. هذا الفتى جديد ولا يعرفني بالتأكيد!

قلتُ له بعصبيّة:

إنّها معي!

رمقني بحيرة وغمغم:

معذرة يا أستاذ، لكن لا يمكنني السماح لها بالدخول بهذا المنظر!

obeikan.com

رمقتُه باحتقار.. لأنّها صغيرة لا حول لها ولا قوّة سيتجبّر عليها، لو كانت فتاة مدلّلة تتدلى المصّاصة من فمها لرحّب بها وسأل والدتها إن كانت تبحث لها عن كتب معيّنة!

تظاهرتُ بأنّه غير موجود، وتجاوزتُه ممسكًا بيدها، فإذا به يمدّ يده في طريقي، رمقتُه بنظرة لابدّ أنّها كانت ناريّة، وكنتُ سأمدّ يدي نحوه، لولا أن أسرع عامل آخر نحونا وهو يهتف بزميله:

توقّف يا حسن، ألا تعرف الأستاذ (نادر منصور)؟

رمقه الفتى في دهشة، فأكمل:

إنّه مدير النشر بدار أماندا! وهو أيضًا مؤلّف رواية "سادة وعبيد".

وأشار إلى صفّ كتب متراصة بنظام بديع فوق بعضها، وفوقها لوحة مكتوب عليها Best Sellers، وعلى غلاف الطبعة الثامنة الذي أبدعه لي (كريم) عبارة جانبيّة تقول: جائزة البوكر – القائمة الطويلة.

كان ينطق كلامه بسرعة ونظرة ذعر مرتسمة على عينه وهو يرمق يدي التي توقّفت قبل أن تصل إلى وجه الفتى أمامي.. لابدّ أنّه شاهد الفيديو على "اليوتيوب"، لا يوجد من لم يشاهده.

Obeikan.com

بدأت أسطورتي يا (عزيز) منذ خمس سنوات..

يومها كنتُ أجلس في ستوديو التصوير منتظرًا إشارة البدء من المخرجة التي كانت تبدو لي متوتّرة وكأنّها تنتظر شيئًا ما.. لم أكن حينها معتادًا على الجلوس أمام الكاميرات، كنتُ أشعر بالتوتّر وألم معدتي يُقلقني من أن أضطر فجأة للذهاب للحمّام أثناء التصوير..

لم أكن مشهورًا كما أنا الآن، لم أكن حتّى معروفًا خارج نطاق شلّتي.. كنتُ قد كتبتُ سيناريو فيلم ووافقت عليه شركة إنتاج بعد وساطات لا تنتهي، وبدأوا الإعداد لحملة تسويق له.. ظهرتُ في برنامج جماهيري مع فريق عمل الفيلم، كنّا حوالي سبعة أشخاص بالإضافة لممثلتين، إحداهما الراقصة المشهورة سوزي كامل، التي كانت ستلعب دور البطولة في الفيلم.. كنتُ أنوي أن أتحدّث بصراحة وأُخبر المذيعة الحسناء أنّني لم أكتب الفيلم لتقوم سوزي ببطولته، وأنّ الكثير من خيوط الحبكة والأحداث قد تمّ تغييرها رغمًا عنّي واضطررتُ للموافقة لأنّه لم تكن أمامي خيارات أخرى.. لكنّني لم أتحدّث تقريبًا، ظلّ التركيز طوال البرنامج على سوزي والمخرج وبعض الممثّلين، وتجاهلني الجميع كأنّني لم أكن معهم..

ثمّ جرت الأمور بسرعة بعدها، بدأت الأخبار تتسرّب عن المشاهد الخارجة التي يمتلئ بها الفيلم، وظهرت عدّة صور لسوزي أثناء التصوير وهي

ترتدي ملابس فاضحة، ثمّ حينما نزل التريلر الدعائي قامت الدنيا ولم تقعد.. ظهرت سوزي طوال التريلر وهي لا ترتدي سوى غلالة حمراء شفّافة، وحينما سألوها لماذا لم تُغيّرها أجابت بكبرياء: ألعب في الفيلم دور فتاة فقيرة، فمن أين لها أن ترتدي أكثر من ثوب؟!

كانت وجهة نظر وجيهة، لكن بالنسبة لي كنتُ أُفكّر في كمّ الشهرة الذي سيجلبه عليّ هذا الفيلم، حتّى ولو كانت صورته التي سيظهر عليها غير ما كتبتُه على الورق.. المهم أنّ اسمي سيوضع عليه، والنجاح الذي سيحصل عليه سيُحسب لي، هكذا توقّعتُ وهكذا توقّع أصدقائي.

لكنّ ما حدث فعلاً أنّ أحدًا لم يلتفت إليّ.. لم يعد هناك من حديث سوى عن سوزي التي تُريد أن تُدمّر أخلاق شبابنا.. ثمّ وصلت الأمور إلى ذروتها حينما قررت الرقابة منع الفيلم.

كلّ الناس، كلّ البرامج، كلّ الشاشات؛ لم تعد تتحدّث سوى عن منع الفيلم، وما ستفعله سوزي ومنتجها. المنتج قال إنّ الرقابة سبق ووافقت على السيناريو، والرقابة قالت إنّ السيناريو لم يُظهر أنّ سوزي سترتدي تلك الملابس الفاضحة التي ظهرت بها.

في وسط كلّ هذا، وقبيل شهر رمضان، اتّصل بي المنتج المنفّذ وطلب منّي أن أظهر في برنامج فضائي لأتحدّث عن الفيلم بصفتي المؤلف، شعرتُ أنّ الدنيا قد تذكّرتني أخيرًا، ورغم ذلك حاولتُ التملّص في البداية لأنّني خشيتُ أن أتعرض للهجوم من مقدّمي البرنامج، أنا المسؤول الأوّل عن الفيلم المثير للجدل، أنا من جلبتُ تلك البلوة السوداء التي تمّ منعها كي

ooeikan.com

لا تُفسد أخلاق الشباب.. لكن في النهاية كان عليّ مواجهة الأمر: الطريق الذي أسير فيه لن يصلح معه الخجل من الكاميرات، إن كنتُ أريد أن أكون مشهورًا فعليّ أن أخوض التجربة، حتّى لو قتلني التوتّر في البداية.. لا شيء يُعلِّم العوم مثل أن تقفز في الماء..

وهكذا جلستُ في الستوديو منتظرًا بدء التصوير.. جاءني شعورٌ بأنّ هناك شيئًا ما يحدث حولي، فقررتُ أن أُلقي نظرة على هالات العاملين.. ركّزتُ نظري ففوجئتُ بأنّ أغلبهم هالاتهم لبنيّة اللون تحوي لطخة طفيفة من اللون الأحمر.. هؤلاء القوم متوتّرون وكأنّهم ينتظرون شيئًا ما، تمامًا كالمخرجة..

جلس المذيع الوسيم أمامي، وبدأ الاستعداد للتصوير..

- أعزائي المشاهدين، مرحبًا بكم في حلقة جديدة من برنامجكم "وراء الستار".. ضيفنا في هذه الحلقة هو الجندي المجهول وراء عمل أثار الكثير من علامات الاستفهام في الفترة الأخيرة.. ضيفنا اليوم هو الأستاذ (نادر منصور) مؤلف سيناريو فيلم "الخطيئة الأولى".. أهلاً بكَ معنا يا أستاذ (نادر).

هززتُ رأسي بعدم تركيز وأنا أُدقّق نظري في هالته.. كانت مُلطّخة باللونين الأحمر والبرتقالي، هذا الرجل يقول كلامًا لا يعنيه ولا يُصدّقه.. إما إنّه جديد في المهنة أو أنّه يكذب ويُخفي شيئًا.

لم يعد تركيزي مع ما يقال لي، ولم أعد قلقًا من الأسئلة.. تركيزي كلّه أصبح متّجهًا إلى ما سيحدث خلال لحظات..

ولم يكذب حدسي، فجأة سمعتُ ضجّة تأتي من خارج الستوديو.

المفروض أنّنا في غرفة مُغلقة عازلة للصوت، لا يوجد سوى باب واحد صغير يؤدّي إلى ممر ضيّق به باب يقود إلى غرفة الإخراج، حيث يجلس المخرج ومساعده مع المعدّين أمام شاشات تنقل لهم ما يحدث داخل ستوديو التصوير.

انفتح الباب الصغير بعنف وبدا بعض العاملين يُحاولون منع بعض الأشخاص من الدخول، ثمّ لم يلبثوا أن انطلقوا في هلع بعيدًا عنهم.. رأيتُ ثلاثة شباب ملتحين يرتدون الجلاليب البيضاء يقتحمون الستوديو وهم يُشهرون أسلحتهم في وجه الجميع.. الذعر يرتسم بوضوح فجّ على كلّ من حولي، المخرجة ومساعديها والمذيع الوسيم والعاملين.. ومع ذلك فهالاتهم لم تختلف، لونها اللبني مُلطّخ باللون الأحمر، لم يكونوا خائفين بل متوتّرين.. حتّى الملتحين كانت هالاتهم لا تختلف كثيرًا..

هتف أحد الشباب الملتحين بنا وهو يُلوّح بمسدسه في وجوهنا:

إيّاكم أن تتحرّكوا!

لمحتُ أحد المصوّرين مازال واقفًا خلف كاميرته.. لم يعد لديّ شك، هذه هي الكاميرا الخفيّة بالتأكيد!

ركّزتُ قليلاً على تنفّسي لأهدأ.. ما سأقوم به الآن سيكون صعبًا جدًا عليّ في هذه الظروف، قد أبدو أحمق، لكنّني سأقوم به، سأستغلّ ما اكتشفتُه لصالحي، ولو صدق ما أشعر به فستكون الليلة مفتاحي إلى النجوميّة.

توجّهتُ نحو أحد الملتحين وقلتُ له بصوت حاولتُ أن أجعله هادئًا مع توتّري:

لا داعٍ لهذه الأفعال يا أخي، يمكننا أن نتفاهم.

فوجئ بي فلوّح بمسدسه في وجهي بعصبيّة وهو يهتف:

عد إلى مكانكَ، إيّاكَ أن...

لمحتُ هالته يغزوها اللون الأحمر الداكن، الآن أنتَ خائف فعلاً يا صاحبي.. انقضضتُ عليه فجأة فجذبتُ ذراعه ثمّ درتُ حول نفسي وأنا أرفعه فوق كتفي وأُلقي به أرضًا منتزعًا مسدسه من يده.. بالطبع المسدس بلا فائدة، لذلك ألقيتُه جانبًا وأنا أنقض على الثاني وسط ذهول الحاضرين.. ركلة في وجهه ألقته في أحد الأركان، بينما أخذ الثالث يهتف بجزع:

نحن نمزح معكَ يا أستاذ، لا داعٍ لـ...

لكنّ قبضتي غاصت في وجهه بكلّ عنف، وقبل أن أُوجّه له لكمة أخرى وجدتُ بعض العاملين يُحيطون بي ويُكبّلون ذراعيّ في محاولة لإنقاذ زميلهم.. تظاهرتُ بالدهشة وأنا أرمقهم وأتساءل في عدم فهم:

ماذا هناك؟ لماذا تُدافعون عن هذا الإرهابي؟

نزع الشاب المسكين اللحية عن وجهه وهو يهتف:

أُقسم لكَ إنّنا نمزح معكَ!

أسرعت المخرجة نحوي وهي تُؤكّد بدورها:

هذا برنامج "حلم ولّا علم" يا أستاذ (نادر)، لقد كنتَ ضيفنا، وكنّا ننوي أن نُعرّضكَ لموقف خفيف الظلّ، لكنّكَ...

وسمعتُ المذيع يقول بعدم تصديق:

لم يمرَ عليّ ضيفٌ مثلكَ من قبل، أنتَ الوحيد الذي اتخذتَ موقفًا إيجابيًا وهاجمتَ الإرهابيين.. ألم تخشَ أن يؤذوكَ؟

بعد شهر عُرضت الحلقة في رمضان، وانتشر على "اليوتيوب" المقطع الذي يُظهرني وأنا أُهاجم الملتحين الثلاثة بلا تردّد.. وتجاوزت طلبات الصداقة التي وصلتني على "الفيس بوك" العدد المسموح به، وانتشرت عدّة صفحات تحمل اسمي صنعها المعجبون، أما روايتي الوحيدة التي نُشرت منذ سنة ولم تبِع أكثر من نصف طبعة، إذا بها تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في كلّ المكتبات، وانتهت منها طبعتان خلال شهر واحد.. بضعة شهور أخرى وتعاقدت معي دار أماندا على نشر روايتي الجديدة، ثمّ بضعة شهور أخرى ووصلت الرواية إلى القائمة الطويلة للبوكر.. كان كلّ شيء أشبه بحلم، حلم لطيف بدأ بأشخاص أرادوا استخدامي في تسلية الجمهور في رمضان فاستخدمتُهم لأصنع سلالم مجدي الشخصي.. عرفتُ لاحقًا أنّ برنامج "حلم ولّا علم" كان برنامجًا قليل التكاليف، وكانوا يحاولون استضافة أشخاص شبه مشهورين شبه مغمورين، فرشّحني لهم المنتج المنفّذ لفيلم "الخطيئة الأولى"، لكنّ

obeikan.com

حلقتي رفعت أسهم البرنامج، وفي موسمه التالي أصبح يستضيف نجومًا حقيقيين.

والآن أنا مدير النشر بدار أماندا، وروايتي الثالثة وصلت هي الأخرى للقائمة الطويلة للبوكر، صفحتي على "الفيس بوك" وصل عدد المعجبين بها لأكثر من ربع مليون، رواياتي الثلاث تتصدّر قوائم الأكثر مبيعًا بشكل ثابت ومعتاد، كتبتُ سيناريو فيلمين آخرين غير "الخطيئة الأولى". حقّق أحدهما أرباحًا طائلة وسقط الآخر لأسباب لا علاقة لها بما كتبتُ.

أنا الصديق الشخصي لأغلب نجوم السينما، الجندي المجهول وراء أغلب الروايات الناجحة التي يُمكنكَ أن تجدها في المكتبات..

كانت هذه بداية أسطورتي يا (عزيز)..

وفي تلك الليلة بدأت نهايتي.

Obeikan.com

أخذت الصغيرة تدور بحماس بين كتب الأطفال الملوّنة، لا تدري ماذا تأخذ وماذا تترك.. قلتُ لها بحنو:

خذي ما تشاءين.

وكأنّها كانت تنتظر قولي، انطلقت تسحب كلّ ما يقابلها، كوّمت بين يديها كومة هائلة من الكتب ذات الأغلفة اللامعة حتّى ماعادت تستطيع حملها، لاحظتُ أنّها انتقت أيضًا كتبًا بالإنجليزيّة. فتدخّلتُ قائلاً:

انتظري، سأختار أنا لكِ.

أعدتُ الكثير من كتبها، وبدأتُ أختار لها كتبًا أُدرك أنّها مناسبة لعمرها.. ذهبنا سويًّا إلى الكاشير، الذي حاول التظاهر بعدم الاهتمام بغرابة الموقف، حسب تكلفة الكتب ثمّ أخبرني بابتسامة هادئة:

170 جنيهًا يا أستاذي..

أخرجتُ من محفظتي الجلديّة ماركة **Club Rivera** ورقة من فئة الـ 200 وناولتُها له.

همس لي (صلاح) بحيرة من خلفي:

إن أردتَ رأيي، أنتَ من كان يجب أن يكتب "أحلام الأنقياء" وليس أنا!

obeikan.com

التفتُّ إليه دون أن أردّ، وأخذتُ الباقي من الكاشير.. سينتهز الفرصة ليفتح معي أيّ شيء بخصوص "أحلام الأنقياء"!

منحتُ الكيس البلاستيكي الأنيق بما يحويه من كتب للصغيرة، فأخذته منّي وعيناها تُشعّان امتنانًا، ثمّ ابتعدت وهي تُلوّح لي..

- أنتَ غريب يا (نادر)، كتلة من التناقضات!

غمغمتُ بصوت ربما لم يصله:

إن كان بإمكانكَ أن تمنح الأمان لأحد، بعض الأمان، فلا تتردّد.. مهما كان الثمن الذي ستدفعه!

في الفناء الخلفي للمكتبة هناك جلسة متاحة لمن يريد الجلوس للقراءة وتناول شيء ما من الكافيتريا الصغيرة الملحقة بالمكان.. يستغلّون هذه المساحة في إقامة حفلات التوقيع والندوات من آن لآخر.

دفعتُ الباب الذي يفصل بين المكتبة وتلك المنطقة، وخطوتُ يتبعني (صلاح)..

سبقتني رائحتي الفوّاحة فانتبه الجميع ورمقوني بدهشة وأنا أتقدّم نحوهم، النجم الذي يدخل فتلتفّ الأعناق تجاهه، الإله الذي يتجلّى لأتباعه..

كان (كريم) هناك وبجواره (مصطفى) وفتاتان لم أرهما من قبل، إحداهما ملامحها مألوفة، ما إن رأتني حتّى هبّت واقفة وأسرعت إليّ مصافحة:

(ولاء مجدي) يا أستاذ (نادر)، كنتُ قد أرسلتُ لكَ أحد أعمالي منذ عدّة أيام لكنّكَ لم تردّ عليّ.

وبالتأكيد يا صغيرتي عرفتِ أنّني سأكون هنا الليلة فلم تستطيعي تضييع فرصة محاصرتي! مَن مِن هؤلاء الأوغاد كتب على "الفيس بوك" أنّه سيلتقيني هنا الليلة؟!

رسمتُ على وجهي تعبير الودّ الذي تدرّبتُ عليه كثيرًا وأنا أُرحبّ بها، ثمّ عانقتُ (مصطفى) و(كريم)، والأخير يقول بمرح:

كنتُ قد توضّأتُ لأُصلي صلاة الكسوف، لكن حمدًا لله؛ ها قد ظهرت الشمس من جديد!

ضحكتُ وأنا أردّ عليه:

بل قلّ إنّ الآلهة لا تتجلّى إلا لمن ترضى عنها!

ربّت (مصطفى) على ظهري قائلاً بمرح:

لا مكان للعامّة أمثالي وسط سجالات الأدباء ومصمّمي الأغلفة هذه.. سأقولها لكَ بالبلدي: سعدتُ بلقائكَ يا سيد بارني ستينسون، أعجبتني شخصيتكَ في مسلسل How I Mer Your Mother، أنتَ حتى حينما تنام ترتدي منامة على شكل بذلة، أليس كذلك؟

رمقتُ (مصطفى) بدهشة مصطنعة وأنا أسألهم:

هل يعرف أحدكم الأستاذ؟ مع من جئتَ يا بني؟

ثمّ انفجرنا ضاحكين، وتابع (مصطفى):

الحوار تمّ نشره بالمناسبة، أعرف أنّكَ تُريد أن تشكرني، لا داعٍ لذلك، نحن كلّنا خدمكَ وحشمكَ يا أستاذ (نادر)، بالله عليكَ لا داعٍ لأن تشكرني!

صافحتُ الفتاة التي كانت تجلس بجوار (كريم) بشكل عابر، ثمّ عدتُ إلى (مصطفى) لأقول له:

من يسمعكَ لن يعرف أنّني نقدتُكَ عشرين جنيهًا لتُلمّعني في الحوار!

- هل قرأتَه؟

- قرأتُه؟! خمّن ماذا يا (مصطفى)؟ أغلب كلماته خرجت من بين شفتيّ، هل تُريدني أن أُسمّعه لكَ غيبًا؟

جلستُ أنا و(صلاح)، فأسرعت (ولاء) بتغيير مقعدها لتكون بجواري، وهي تسألني بحماس:

هل قرأتَ قصّتي التي أرسلتُها لحضرتكَ؟

لا بأس ببعض المرح واستعراض القوّة أمام الرفاق.. قلتُ لها بهدوء وأنا أرسم تعبير التواضع على وجهي:

ولِمَ لا أقرأها الآن؟

أخرجتُ "موبايلي" الـ Samsung من حقيبتي وعبثتُ بأزراره فأصبحتُ داخل حسابي على "الفيس بوك".. "الستيتوس" التي كتبتُها قبل نزولي

حصدت 340 "لايك" حتّى الآن، بالإضافة إلى 87 "كومنت"، أغلبها يقول: ألف سلامة عليكَ– بإذن الله ستكون الليلة من أروع لياليكَ..

دخلتُ على الرسائل وبحثتُ بسرعة عن رسالة (ولاء)، ومررتُ بعينيّ سريعًا على سطور قصّتها.. قصّة أخرى عاديّة خالية من الأسلوب ولا يوجد ما يُميّزها.. لا أدري لماذا يُرهقني هؤلاء بقراءة أعمالهم! لماذا لا يُرسلون أعمالهم لأشخاص أقلّ منّي لينصحوهم بالمزيد من القراءة والتدرّب على الكتابة؟! لو أنّكَ لازلتَ في مرحلة لعب كرة الشراب في الشارع فالأفضل أن تُقابل بركات أو أبو تريكة لتُريهما لعبكَ، لا أن تذهب مباشرة إلى ميسّي!

أخذتُ نفسًا عميقًا ثمّ قلتُ لها:

سردكِ مملّ يا (ولاء).. القارئ يمكنه بسهولة أن يتوقّع جملتكِ القادمة، ماذا ستقولين وكيف ستصفين.. أتدرين لماذا؟ لأنكِ مازلتِ أسيرة روايات الجيب التي كنّا نقرأها في صغرنا.. لا اعتراض لديّ طبعًا على روايات الجيب ولا على البوب آرت بشكل عام، بالعكس أستمتع كثيرًا بقراءته.. لكنّ المشكلة في الأسلوب نفسه، أنتِ تستخدمين نفس أسلوب روايات الجيب في التسعينات.. انظري إلى هذه الفقرة مثلاً:

"رمقه الكائن الفضائي بغضب الدنيا كلّه وهو يهتف بحنق: لا أحد يستطيع أن يهزم بطل كوكب جلورياس، أنا نامق وسأهزمكَ!

عقد أيهم حاجبيه حتّى كادا يمتزجان وقال بصرامة: أنا اسمي لا أحد!"

ستتكرّر هذه التعبيرات كثيرًا في قصّتكِ، كلّما غضب أحدهم ستكون العبارة الواصفة له "غضب الدنيا كلّه". كلّما تكلّم أحدهم بجديّة فيجب أن يزوي ما بين حاجبيه حتّى يكادا يمتزجان، وهذه بالمناسبة صورة كاريكاتوريّة غير مناسبة للاستخدام في هذا الموقف الجاد!

هذه المبالغة في الأوصاف والتشبيهات تعني أنكِ لا تشعرين فعلاً بما تكتبين، لذلك حينما تبحثين عن تعبير مناسب لوصف "الغضب" تلجئين إلى أقصى ما يصل إليه خيالكِ، وهو "غضب الدنيا كلّه". ليست لديكِ درجات للغضب، وحينما ستصلين مثلاً لموقف يجد فيه ذلك الكائن أنّه يجب أن يغضب فعلاً فلن تجدي وصفًا آخر لتصفيه به، فهو سيغضب بغضب الدنيا كلّه حينما سيشعر بالعطش ولن يجد الماء، وحينما ستموت ابنته، وحينما سيفقد كوكبه! اقرأي أكثر يا (ولاء)، لا تقصري قراءاتكِ على كتيّبات الجيب، الإبداع البشري أكثر تنوّعًا بكثير من هذه المنطقة الصغيرة.

امتقع وجهها، وسألتني مبتسمة بمرح دون أن تستطيع إخفاء الارتعاشة في صوتها:

إذن.. لا يوجد لديّ أمل لأكون كاتبة؟!

هززتُ رأسي وأنا أقول:

في الحقيقة لا أراكِ الآن ككاتبة.. أنتِ فقط تُحاولين تقليد الكتابات التي أعجبتكِ.. الكاتب الحقيقي يُمكنه الاتّصال ببُعد آخر يحوي عصارة الإبداع، يأخذ منه ما فيه من روعة ويجلبها لعالمنا.. يخلق خلقًا جديدًا..

ob e i k a n . c o m

أما أنتِ فتُحاولين تقليد ما هو موجود بالفعل في عالمنا.. أنتِ مثل رسّام يُحاول تقليد اللوحات العالميّة ولا يستطيع صنع مثلها.. لكن مع ذلك بإمكانكِ المحاولة، علّكِ تستطيعين الاتّصال بذلك البُعد مستقبلاً!

هزّت رأسها ببطء وغمغمت بأنّها استفادت كثيرًا من كلامي وستُحاول أن تبذل المزيد من الجهد مستقبلاً، ثمّ نهضت مستأذنة لتجلب شيئًا تشربه من الكافيتريا.

قلتُ لهم بمرح:

أراهنكم أنّها لن تعود!

تابعها (كريم) بعينيه ثمّ سألني بضيق:

ألا ترى أنكَ كنتَ قاسيًا معها؟

- بالعكس يا صديقي الطيّب، لقد منحتُها أملاً في أنّها قد تصل مستقبلاً.. وبيني وبينك: أنا أُحبّ تحطيم غرور الآخرين!

- لكنّها لم تكن مغرورة على الإطلاق! أنتَ من كنتَ عدوانيًا بلا داعٍ!

- ربما.. لكنّها كانت تعتقد أنّني سأنبهر بكلماتها، رأيتُ هذا في عينيها.. في الغالب كلّ من حولها من أصدقاء وأقارب يمدحونها ويُطرون عبقريّتها، وهي الآن –أو قبل خمس دقائق من الآن– كانت تتوهّم أنّها توازيني عبقريّة وموهبة، وأنّني ما إن أقرأ سطورها الأولى حتّى أنبهر بها وأتوسّل إليها أن تسمح لي بنشر أعمالها في أماندا.. فأحببتُ أن أضعها في حجمها الطبيعي!

هزّ (كريم) رأسه بأسف وهو يغمغم:

أنتَ تبني ركامًا هائلاً بناءً على أوهام في رأسكَ!

قام (مصطفى) من مكانه وجلس بجواري وهو يُربّت على ركبتي مرتين قائلاً:

ابننا ما شاء الله مُعقّد نفسيًا!

هممتُ أن أردّ عليه ردًّا لاذعًا لكنّ (كريم) سأله:

لِمَ لا تقرأ علينا الحوار؟ أنا لم أقرأه، وبالتأكيد (ريهام) لم تفعل.

قال جملته الأخيرة وهو يرمق الفتاة بجواره، فهزّت رأسها بعدم تركيز وهي تعبث بأزرار "موبايلها". غالبًا سمعتْ اسمها فأتت بأيّ حركة تُشير للمتابعة.. مدمنة إنترنت..

قال (كريم) وهو يرمقني:

نسيتُ أن أُعرّفكما على بعضكما. (ريهام فايد) يا (نادر) مدوِّنة معروفة، صاحبة مُدوَّنة "نهارك سعيد". لو سمعتَ عنها.. كما أنّها...

قاطعتُه:

لا أُتابع المُدوَّنات ولا أعرف حقًّا ما فائدتها.. أيّ شخص يمكنه أن يكتب أيّ شيء كيفما اتّفق له. الإبداع الحقيقي حينما تكتب في قالب فنّي محدّد وله قواعده الصارمة. رواية. قصّة قصيرة. شعر. مسرحيّة.. أما

تلك الكتابات التي لا تنتمي إلى أيّ شيء فهي تلعب نفس الدور الذي تلعبه الأغنيّة الشعبيّة الآن في الموسيقى العربيّة!

رفعتْ عينيها عن "موبايلها" ورمقتني بانتباه.. كانت تضع "مكياجًا" ثقيلاً بحيث يصعب على المرء النفاذ إلى ملامحها الحقيقيّة خلف كلّ تلك الألوان، لكنّني لاحظتُ شعرها المصبوغ بالأحمر المعقوص في ذيل حصان خلف رأسها وبشرتها الخمريّة وعينيها العسليتين، كانت ممتلئة قليلاً ودقيقة الملامح.. لا أُحبّ من يُسرفن في وضع المساحيق على وجوههنّ.

- أنتَ إذن لا تعترف بالتدوين؟

قلتُ رافعًا كفيّ في تواضع، والسرور يملأني لأنّني نجحتُ في لفت انتباه الجميع كالعادة:

بالتأكيد التدوين لا ينتظرني لأعترف به أو أرفضه، هو شيء موجود ومفروض علينا بسيف الواقع.. لكنّني بالتأكيد لن أستمتع بقراءة ألف كلمة عن فتاة تُعبّر عن شعورها اليوم في العمل أو موقفها من أبيها الذي منعها من الجلوس على الإنترنت إلا في وجود محرم!

- آه.

قالتها بهدوء ثمّ عادت تعبث بأزرار "موبايلها" وكأنّ الموضوع قد انتهى.. استفزّني ذلك، ويبدو أنّ هذا بدا جليًّا في عينيّ، إذ أسرع (كريم) يقول:

أنتِ تعرفين (نادر) بالتأكيد يا (ريهام)، (نادر منصور) الروائي الذي...

- سمعتُ عنه.

قالتها ببساطة وتركيزها منصب على شاشة هاتفها، فشعرتُ بالدماء تغلي في عروقي.. مادمتِ سمعتِ عنّي يا آنسة فلِمَ لا تُظهرين شيئًا من الاحترام؟ من يجلس أمامكِ الآن على صغر سنّه نجح فيما لم ينجح فيه أحد من قبله، وفي الغالب لن يأتي بعده من يحقّق نفس إنجازاته.. هل مرّ بكِ أيّتها المتحذلقة شاب في الخامسة والثلاثين لديه ثلاث روايات ناجحة، ترشّحت اثنتان منهما في القائمة الطويلة للبوكر؟

هممتُ أن أقول لها ساخرًا إنّه من الجيّد أنّها تسمع على الأقل، لكنّ (مصطفى) أسرع يقول بحماس:

سأتلو على مسامعكم الحوار الذي أجريتُه مع أخينا هذا، وقولوا لي رأيكم بصراحة..

ثمّ أخرج المجلّة من حقيبته التي كان يُعلّقها على مسند كرسيه، وفرّ صفحاتها بسرعة ليستقرّ على صفحتين متقابلتين، إحداهما يحوي نصفها صورة طوليّة لي مرتديًا بذلة زيتيّة من نوع **Hugo Boss**، واضعًا كفّي في جيب البنطلون رامقًا الكاميرا بتحدٍّ، وأخذ يقرأ:

هو الطفل المدلّل للوسط الأدبي في مصر، لا يوجد بين الأدباء والناشرين من ليس على علاقة شخصيّة به، أغلب الكتب الناجحة في المكتبات خرجت من بين يديه، شخصيّة ذات كاريزما كاسحة، حقّق في سنين قليلة الكثير من الإنجازات التي لا تُصدّق، إنّه (نادر منصور) الروائي المعروف وكاتب السيناريو ومدير النشر بدار أماندا، ملامحه ملامح نجم سينمائي، مواصفاته الجسديّة مواصفات بطل أوليمبي، لا أحد...

قاطعتُه ضاحكًا:

أكتبتَ فعلاً "مواصفاته الجسديّة"؟!

- أرجوكَ لا تُقاطعني يا أخ (نادر).. لا أحد في الوسط الأدبي لا يدين له بخدمة، الشخص الذي اجتمعت عليه قلوب كلّ من عرفه، الرجل الذي...

بالمناسبة يا (نادر)، أغلب هذا الكلام غير مكتوب فعلاً. ما كتبتُه فعلاً في الحوار أنّنا نلتقي اليوم مع فلان الفلاني الروائي المعروف وكان لنا معه الحوار التالي.. فقط حاولتُ أن أُرضي غروركَ كي لا تنقم عليّ!

هذا الفتى يفهمني جيّدًا.. ضربتُه بكفّي على رأسه ضاحكًا، فانفجر هو وبقيّة الرفاق في الضحك، ولاحظتُ بطرف عيني أنّ (ريهام) غير مهتمّة بالأمر وهي مازالت تُتابع شاشة هاتفها.. وأكمل (مصطفى):

سؤالي الأوّل له كان كالتالي: روايتكَ الأخيرة "سادة وعبيد"، التي صدرت منذ عدّة شهور، وصلت الآن للطبعة الثامنة، وترشّحت للقائمة الطويلة في البوكر، ما فكرتها؟

وجاءت إجابته: أوّلاً دعني أشكركَ وأشكر مجلة "نجوم القاهرة" على هذه الاستضافة الكريمة.. "سادة وعبيد" أعتبرها قمّة نضجي الفني الذي وصلتُ إليه مؤخّرًا، بالطبع روايتاي السابقتان "ذلك الصفير في أذني" و"مترو" فيهما نضج كبير، لأنّني أعتبر نفسي من الأدباء الذين لم يتّخذوا قرار النشر إلا بعد أن تأكّدوا من رسوخ أقدامهم في الكتابة، لكنّ "سادة وعبيد" بالذات أعتبرها درّة الدرر لديّ.. تدور فكرتها حول أنّ الناس في

Obeikan.com

هذه الدنيا ينقسمون إلى سادة وعبيد، العبيد خانعون لسادتهم راضون بحالهم، والسيّد بالمناسبة ليس بالضرورة أن يكون شخصًا، قد يكون مالاً أو منصبًا أو مكانة أو سمعة.. هناك فئة قليلة من العبيد يُحاولون التحرّر من هذا الرتق، والسؤال هو: هل سينجحون؟ ولو نجحوا فماذا سيصيرون؟ هل سيُصبحون سادة بدورهم يستعبدون غيرهم؟

- ترشّحت روايتاكَ الأخيرتان للقائمة الطويلة لجائزة البوكر، ما كان شعوركَ بذلك، وهل تعتقد أنكَ ستفوز بالجائزة ذات يوم؟

أيّ روائي عربي يتمنّى بالتأكيد أن يترشّح للبوكر، فهي بمثابة الأوسكار بالنسبة للرواية، لكن من الصعب الإجابة على سؤالكَ، لأنّ لجنة تحكيم الجائزة تتغيّر من سنة لأخرى، وكلّ لجنة تكون لها مقاييسها ومعاييرها الخاصة، لذلك من الصعب تخمين إن كانت رواية ستفوز بالجائزة أم لا، قد وقد!

- ما مشروعكَ القادم بعد "سادة وعبيد"؟

روايتي الجديدة تدور فكرتها حول اغتراب الإنسان، كيف أنّه وُجد وحيدًا في هذه الدنيا، لا أحد يفهمه أو يُقدّره، وفي النهاية سيموت وحيدًا.. هذه هي الفكرة الأساسيّة، ولن أستطيع أن أُخبركَ كيف سأُعبّر عنها كي لا أحرق الرواية وهي مازالت في مراحلها الأولى.

- ما سرّ علاقاتكَ الواسعة في الوسط الأدبي وخارجه؟

أنا شخصيّة محبوبة، أتعامل مع الناس بودّ وأحترم الجميع وأُساعدهم قدر استطاعتي، وما أُقدّمه من حبّ للجميع يعود لي، بالإضافة لذلك

Obeikan.com

فمنصبي كمدير للنشر في دار أماندا يُتيح لي التعامل مع أغلب الكتّاب والعاملين في الوسط.

لمحتُ بطرف عيني (ريهام) تتثاءب وهي مازالت تعبث في "موبايلها"، فقاطعتُ (مصطفى) لأقول مسلّطًا عينيّ عليها:

يبدو أنّ طريقتكَ في تلاوة الحوار أصابت المستمعين بالنعاس!

لاحظ (كريم) نظرتي فتململ في مجلسه حرجًا، ومال على أذن (ريهام) فهمس لها بشيء ما، فهزّت رأسها دون أن ترفع عينيها عن "موبايلها".

قال (مصطفى) ضاحكًا:

أو ربما إجاباتكَ على الأسئلة تُشعر المستمع بالسكينة فيرغب في النوم!

وتابع:

- نعود للحوار، السؤال التالي كان: ربما هناك من قرّائنا من لا يعرفون معنى أن يكون المرء مديرًا للنشر، فهلّا شرحتَ الأمر لنا؟

فأجاب: عملية النشر بشكل عام تمرّ بعدّة مراحل، المرحلة الأولى تقرير الأعمال التي سيتمّ نشرها، تأتي بعدها مرحلة الطباعة، ثمّ توزيع وتسويق الأعمال المطبوعة.. كلّ مرحلة من هذه المراحل يجب أن يكون هناك مسؤول خاص بها في دار النشر، ستجد في دور النشر الكبيرة فريقًا كاملاً مسؤولاً عن كلّ مرحلة، لكنّ دور النشر المتوسطة والصغيرة تقليلاً للتكاليف تضع أكثر من مهمّة على كاهل شخص أو اثنين من موظّفيها.. في

الحقيقة لن تجد في دور النشر هذه أكثر من موظف أو اثنين، قد يكون أحدهما صاحب الدار نفسه..

أما مدير النشر فهو الشخص المسؤول عن عملية تقرير الأعمال التي سيتمّ نشرها؛ تلقّي الأعمال من الكتّاب وفرزها وتقييمها وتحديد ما يصلح للنشر منها وما لا يصلح، ويُحاول تطبيق خطّة النشر الموسميّة التي تضعها الدار، والتي يتمّ وضع خطوطها العريضة بناءً على متطلبات السوق، مثلاً قد تكون خطّة النشر تشمل نشر عشر روايات وثلاثة كتب ساخرة وديواني شعر خلال هذه السنة.. فعليه هنا أن يختار أفضل عشر روايات من ضمن كلّ الروايات المعروضة على الدار.. قد تقع حادثة في المجتمع تجعل الرأي العام يتّجه اتجاهًا معيّنًا، كوقوع جريمة قتل زوجة لزوجها بسبب خيانته، يجد مدير النشر أنّ هذا الأمر يحتاج لتسليط الضوء عليه أكثر، فيسعى للتعاقد مع أحد الكتّاب ليكتب كتابًا عن هذه الظاهرة.. أشياء من هذا القبيل التي تشمل طرح أفكار جديدة ومحاولة تنفيذها.

- وهل يشمل هذا محاولة التعاقد مع الكتّاب الناجحين في دور النشر الأخرى؟

هذا الأمر حسّاس ويخضع لعدّة محاذير أخلاقيّة.. فإذا كان الكاتب مستقرًّا وراضيًا في دار النشر التي يتعامل معها ولا توجد بينه وبينها أيّ مشاكل، فلماذا أسعى لأخذه منها؟ بالعكس، في مثل هذه الحالات لو وافق الكاتب على عرض مغرٍ قدّمتُه له ليتركَ داره القديمة ويلتحق بي سأشكّ في أنّه قد يتركني في أيّ لحظة في حالة تلقيه لعرض أقوى من دار

نشر أخرى.. أنا كمدير للنشر لا أسعى لسرقة أيّ كاتب إلا إذا جاءني هو بنفسه بعد إنهائه تعاملاته مع داره القديمة، وأبدى لي أنّه حريص على التعاون معنا.

وبيني وبينك؛ هناك دور نشر لا تُحبّ أن تبذل مجهودًا مع الكتّاب، تبحث عن الكتّاب الذين نجحوا مع غيرها، فتأتي وتأخذهم بعد أن أصبح لهم اسم معروف بين الجمهور..

- هل تعرّضتْ دار أماندا لمثل هذا الأمر من قبل؟

كثيرًا جدًّا! عندكَ مثلاً دار المنار منافسنا التقليدي، لا تكفّ عن الاتّصال بكتّابنا ومحاولة إغرائهم للرحيل إليها.. بالتأكيد هذا الأمر قلّ كثيرًا الآن بسبب وجودي منذ فترة في منصب مدير النشر وعلاقتي الطيّبة مع الكتّاب، لكنّهم فيما مضى كانوا لا يكفّون عن محاولة أخذ كلّ كاتب ينجح معنا!

- من آن لآخر نجد لونًا معيّنًا من الكتابة أصبح يطغى على الإصدارات الأدبيّة، فنجد السوق امتلأ مثلاً بالروايات الرومانسيّة أو الرعب أو الأكشن وما شابه، فما تفسيركَ لهذه الظاهرة، وهل تُساهم دور النشر في خلقها؟

أنا ضد تصنيف الكتابة أو الكتّاب على حسب الألوان الأدبيّة التي يكتبونها، بالنسبة لي هناك أدب جيد أو لا أدب.. ومع ذلك أعتقد أنّ هناك مزاجًا عامًّا للقراء يتغيّر من وقت لآخر.. فمثلاً قبل ثورة يناير راجت الكتب الساخرة بدرجة كبيرة، ربما لأنّ طبيعة تلك المرحلة كانت تدعو

لفقدان الأمل في أيّ شيء، وهو ما يستدعي الحسّ الساخر اللامبالي.. بعد ذلك ومع حالة الضبابيّة التي سادت بعد الثورة، وإحساسنا أنّنا لا ندري إلى أين نحن متّجهون، أصبح أدب الرعب مطلوبًا أكثر، ربما لأنّ القرّاء أصبحوا يبحثون عن الأمان، وحينما يجلسون ليقرأوا رواية رعب يشعرون بأنّ تلك الأجواء الكابوسيّة بعيدة عنهم، وأعتقد أنّ هذا المزاج سيتغيّر في الفترة المقبلة إن تغيّرت الأحوال العامة للأفضل.

لكن بعيدًا عن التصنيفات؛ فالعمل الجيّد بغضّ النظر عن محتواه يفرض نفسه.

قاطعتُ (مصطفى) متململاً:

أتدري يا (مصطفى)؟ أنا نفسي بدأتُ أشعر بالملل.. قراءة الحوارات تختلف كثيرًا عن تلاوتها!

لم أشعر بالملل لحظة وأنا أستمع لإجاباتي، لكنّني أردتُ أن أوصل لهم أنّ المشكلة في تلاوة (مصطفى) للحوار!

أسرع (صلاح) يقول:

بالعكس، أنا مستمتع كثيرًا بالحوار.

رمقتُه راضيًا، بينما قال (مصطفى) برجاء:

سأختصر عدّة أسئلة وأقفز إلى السؤال الأخير.

ورمقنا وكأنّه يستطلع رأينا.. كنتُ أودّ أن أطلب منه أن يقرأ كلّ كلمة، ليروا كم كانت إجاباتي وافية منمّقة، وكم هي راسخة قدمي في سوق النشر، لكنّني وجدتُهم صامتين فصمتُّ بدوري.

- السؤال الأخير يقول: يشتكي معظم القرّاء من غلاء أسعار الكتب، الرواية التي كنّا نحصل عليها منذ عشر سنوات بخمسة أو عشرة جنيهات أصبح سعرها الآن يصل إلى أربعين وخمسين جنيهًا، فما سبب ذلك في رأيكَ؟

وجاءت إجابته كالتالي: هناك أسباب عديدة، لو سألتَ أيّ ناشر فسيُحدّثكَ عن ارتفاع تكاليف الطباعة وغلاء أسعار الورق باستمرار.. لكن هناك جانب آخر يُغفل كثيرون الانتباه إليه.. الناشر يضطر إلى زيادة سعر الكتاب ليستطيع رفع نسبة الخصم التي يمنحها للمكتبات التي تعرض كتابه، لأنّه كلّما رفع لهم النسبة كلّما اهتمّوا بكتبه أكثر وعرضوها في مكان ظاهر ومناسب، وسط الكمّ الكبير من الكتب التي تمتلئ بها المكتبات الآن..

دعني أشرح لكَ أكثر عن نسبة الخصم تلك.. عادةً ما يُعطي الناشر للمكتبات ومنافذ التوزيع الكتب بأقلّ من سعرها الذي ستُعرض به بنسبة تتراوح عادة ما بين 30-50% من سعر الكتاب، على حسب المكتبة وشهرتها، وإن كانت ستدفع ثمن ما ستأخذه من كتب مقدّمًا أم ستؤجّل ذلك حتّى تبيعها.. ويزداد ربح المكتبة طبعًا كلّما زاد سعر الكتاب، وهو ما قد يُفسّر لكَ سبب ارتفاع أسعار الكتب مؤخّرًا..

رواياتي "سادة وعبيد" مثلاً سعرها 35 جنيهًا، تُعطيها دار أماندا لمكتبة "س" بنسبة خصم 40%، أي إنّ المكتبة ستحصل في النسخة الواحدة على 14 جنيهًا عند بيعها، فلو أنّ المكتبة لديها كتاب آخر سعره 15 جنيهًا، ستحصل منه على ربح 6 جنيهات، فأيّهما في رأيكَ الذي ستهتمّ بعرضه في أفضل مكان وحثّ روّادها على شرائه؛ كتابي أم ذاك الكتاب؟

ثمّ رمقنا (مصطفى) بعينين جذلتين وقال:

وهنا يا سادتي يا كرام ينتهي حوارنا مع الأستاذ (نادر).. فضّلتُ أن ينتهي بالسؤال الأخير الذي طرحه (نادر) ليستمرّ في ذهن القرّاء بعد انتهائهم من قراءته.. ما رأيكم؟

قال (صلاح) بحماس:

حوار رائع، ألف مبروك يا (مصطفى)، ألف مبروك يا (نادر) يا حبيبي.

لكنّ (كريم) تنحنح ثمّ قال:

الحوار في مجمله جيّد، أسئلة (مصطفى) مميّزة وإجابات (نادر) وافية، لكن.. لم تكن موفّقًا في بعضها.

عقدتُ ذراعيّ مستعدًّا للمعركة وسألتُه بهدوء:

ولِمَ؟

مطّ شفتيه:

obeikan.com

ألا ترى أنكَ هاجمتَ دور النشر وانتقدتَ طريقة عملها؟ بل إنكَ ذكرتَ دار المنار واتّهمتهم بسرقة الكتّاب منكم، أليس...

أسرعتُ بوضع تعبير الثقة على وجهي، رفع الحاجبين بما يشير لعدم الاهتمام، ونظرة مرحة في العينين تُشير إلى أنّ الأمور تحت السيطرة، مع ابتسامة رقيقة، وقاطعتُه قبل أن يُكمل، رافعًا "موبايلي" في وجهه:

وغضبوا بالفعل، ومديرهم العام يتّصل بي منذ الصباح دون أن أردّ، حينما استيقظتُ من قيلولتي قبل أن آتيكم مباشرة وجدتُ ثلاثة "ميسدات" منه، ويبدو أنّه اتّصل بـ(كمال الألفي) مدير أماندا العام، لأنّني وجدتُ "ميسد" منه هو الآخر.. لكن ما المشكلة؟ الحياة لا تحلو إلا بأن تتحدّى أعداءكَ من آنٍ لآخر، ثمّ تُراقبهم مستمتعًا وهم يتخبّطون ويدورون حول أنفسهم محاولين الردّ عليكَ بلا جدوى!

رفعتُ عينيّ إلى (ريهام) لأرى انطباعها فوجدتُها ترمقني بنظرة ساخرة، أسرعتْ بإخفائها ما إن رأتني ألتفتُ إليها، وعادت تعبث "بموبايلها".. ركّزتُ نظري لأتفحّص هالتها، ففوجئتُ.. كانت هالتها لبنيّة كأيّ هالة طبيعيّة، لكنّ الغريب في الأمر أنّ نقطًا حمراء كثيرة تنتشر كالبثور على هالتها، لم تكن لطخات تُفسد لون الهالة كما يحدث عادة، بل بقعًا صغيرة شديدة الحمرة.. لم أرَ من قبل شيئًا كهذا!

انتبهتُ فجأة عليها وهي ترمقني بثبات وكأنّها تُدرك ما أفعله، فأجفلتُ وارتبكتُ.. منذ صغري لم يضبطني أحد وأنا أرمق هالته!

كانت طفولتي رائعة يا (عزيز)..

كانت لأمّي ثلاث أخوات، هي أكبرهنّ، لذلك تزوجت قبلهنّ، فكنتُ أوّل طفل يأتي في العائلة، الطفل الذي جاء ليجد الجميع في خدمته.. أبي مهندس بترول، فكان يضطر للسفر إلى أماكن بعيدة ويترك أمّي لشهور، فكانت تعود للإقامة في بيت جدّي وجدّتي.. لذلك نشأتُ لأجد أمّي وخالاتي الثلاث وجدّي وجدّتي لا شاغل لهم سوى تدليلي وتوزيع المهام بينهم في العناية بي، خالتي منى تشتري لي الحلوى وهي عائدة من عملها، خالتي منال تشتري لي مجلات ميكي وسمير وتقرأها لي، خالتي ميرفت تتولى مهمّة إطعامي، بدءًا من إعداد الوجبات الرئيسيّة لي وانتهاءً بالاستيقاظ فجرًا لتلبية رغبتي المفاجئة في أكل الرمّان.. أستيقظ من النوم فجأة فأهزّها وأقول لها: أريد رمّانًا يا ميرفت!

فتنهض نصف نائمة نصف مستيقظة، وبلا تذمّر تُحضر ثمرة الرمّان وتُفصّص حبّاتها في طبق صغير وتنثر بعض السكّر فوقها بناءً على رغبتي، ثمّ تُطعمني الرمّان بملعقتي الصغيرة التي أرفض أن آكل إلا بها.

كانت أيامًا عظيمة، الدنيا رائعة مبهجة أمام عينيّ الصغيرتين، ولا يوجد ما يُمكنني حمل همّه، كلّ شيء ملبّى مجاب.. لو شاهدتُ شيئًا في التلفزيون وتساءلتُ بصوتٍ عالٍ عنه، سأجده عندي في اليوم التالي إن لم يكن في نفس الليلة..

obeikan.com

ومن بين كلّ ذلك ظلّت حكايات خالتي منال تحتلّ ركنًا مجيدًا بين ذكرياتي.. هي من حبّبتني في القراءة حينما كنتُ أراها منذ صغري مستلقية على سريرها تقرأ ما عرفتُ لاحقًا أنّها روايات يوسف السباعي وإحسان عبد القدّوس.. كانت تُحضر لي مجلّة سمير وميكي بانتظام كلّ أسبوع، ونظلّ ساهرين طوال الليل تقرأ لي كلّ القصص المصوّرة، وتُقلّد حوار كلّ شخصيّة بطريقة مختلفة عن الأخرى.. وحينما كانت المجلّة تنتهي وأطالبها بالمزيد من القصص كانت ترتجل حكايات من رأسها.. حكت لي عن الولد الشقي الذي فتح صنبور الماء في الحمّام فسقط منه قرد صغير في حجم عقلة الإصبع وصارا صديقين وخاضا سويًّا الكثير من المغامرات.. الكلب عنتر الذي أحبّ طفلاً صغيرًا لطيفًا اسمه (نادر) وكان يُقلّه على ظهره يوميًا إلى المدرسة ذهابًا وإيابًا، وحينما حاولت عصابة من الأشرار خطف (نادر) تصدّى لهم عنتر وأنقذ صديقه.. لكنّ حكايات الجنّ والعفاريت كان لها وضع خاص بالنسبة لي، كنتُ أُحبّ تلك الرجفة التي تسري في جسدي حينما تقصّ عليّ حكاية الفلاح الذي قتله "قتّال القتلة" فعاد شبحه لينتقم له.. الغريب يا (عزيز) أنّ قصصها كان لها منطقها الداخلي وتسري عليها قواعد ثابتة تلتزم بها خالتي وكأنّها قاصّة محترفة.. فمثلاً العفريت هو شبح شخص تمّ قتله ظلمًا، ولا يمكنه الظهور إلا إذا تبقّت بعض الدماء في حذاء القتيل ولم يقم أهله بغسلها، حينها يستطيع العفريت العودة والانتقام من قاتله.. ومع الوقت ازدادت شخصيّات قصصها وعيًا بتلك القوانين، وصارت أرامل القتلى يحرصن على غسل أحذيتهم قبل أن يعود العفريت..

سألتُها ذات مرّة متّسع العينين:

Obeikan.com

لكن يا خالتو.. لو كانت العفاريت بتلك الكثرة فلماذا لا نراها بيننا؟

ردّت عليّ بثقة:

هذا الكلام وقع قديمًا في الستينات.. فلمّا وجد الرئيس جمال عبد الناصر أنّ الأمر استفحل وزاد عن حدّه، أمر الجيش بالنزول إلى الشوارع للقضاء على العفاريت بالبنادق!

فالعفريت في قصص خالتي يلقى مصرعه إذا أطلقنا عليه رصاصة من بندقيّة.

كثيرًا ما كانت أمّي تبحث عنّي فتجدني أسفل "السفرة" بين أرجل المقاعد ومعي خالتي تقصّ عليّ قصّة من قصصها المرعبة، فتنهرها عن حكاية تلك القصص لي. فأصبحت خالتي لا تقصّ عليّ أمامهم سوى القصص المبهجة، ثمّ حين نصير وحدنا تهمس لي بقصصها المرعبة.

تزوجت خالتي وأنا في العاشرة، كان رحيلها عن البيت الطامة الأولى في حياتي.. شعرتُ بحنين شديد إلى حكاياتها، ووجدتُ بعضًا من عزائي في قراءة الكتب التي تركتها وراءها، ثمّ بدأتُ أُحاول صنع حكاياتي الخاصة، ومن يومها صار الورق والخيال رفيقاي.

أغلب من أعرفهم تبدأ ذكرياتهم من سنّ أربع أو خمس سنوات، ما قبل ذلك لا يذكرون عنه شيئًا، لكنّني أؤكّد لكَ يا (عزيز) أنّني أذكر ما حدث منذ كان عمري سنتين! من حقكَ أن تعتقد أنّني أُبالغ أو أتوهّم، لكنّني بالفعل أذكر كلّ ما وقع لي منذ سنّ سنتين، أغلب النّاس لا يذكرون سنواتهم الأولى لأنّ تركيزهم وقتها يكون منصبًّا على استكشاف العالم،

واللحظة التي تمضي لا يهتمّون بها، يتحوّل تركيزهم للحظة القادمة، ومع الوقت تزول الذكرى من أذهانهم. أما أنا فكنتُ أُركّز مع كلّ لحظة تمرّ بي، وأظلّ أجترّها بسعادة. كنتُ دائمًا قبل النوم أسترجع في ذهني كلّ ما فات، أُفكّر فيه وأُعيد تنسّم مشاعره. فلم أفقد أيًّا من ذكرياتي على صغر سنّي.

أذكر حينما كان عمري ثلاث سنوات أنّني بدأتُ أرى باستمرار سحابة بيضاويّة تُحيط بأجسام كلّ من حولي، حتّى الحيوانات. فقّاعة كبيرة يتغيّر حجمها من شخص لآخر. في العادة يكون لونها لبنيًّا، لكنّه يتغيّر كثيرًا.. لاحظتُ أيضًا أنّها قد تكون مُجعّدة عند البعض، خصوصًا كبار السنّ، لأنّ جدّي وجدّتي كانت فقّاعتاهما تُشبه الشعر المجعّد، خصوصًا في الأوقات التي يأخذ فيها جدّي أدويته أو يتكلّم عن أنّه ليس على ما يرام.

في البداية كنتُ أعتقد أنّ الجميع يرون نفس ما أرى، اعتبرتُ الأمر بهجة جديدة من المباهج التي تمتلئ بها الدنيا.. لكنّني مع الوقت أدركتُ أنّ ما أراه لا يراه غيري، مرّات عديدة أسأل أمّي أو خالاتي لماذا تغيّر اللون المحيط بكِ؟ فكنّ يرمقنني غير فاهمات، أو يضحكن من خيالي الواسع.. فتعلّمتُ أن أكتم حقيقة ما أراه ولا أُصارح به أحدًا، واستقرّ في نفسي شيء واحد: أنا شخص مميّز ومختلف عن الآخرين.

قرّرت أمّي ذات يوم أن تُنظّف دبلة زواجها فخلعتها ووضعتها على الكومدينو بجوار السرير، فقفزت الفكرة إلى رأسي: ماذا ستفعل لو عادت فلم تجد الدبلة ثمّ عرفت أنّني بلعتُها؟

وضعتُ الدبلة في فمي، وأخذتُ أنتظر وأنا أكتم ضحكاتي كي لا تسقط الدبلة فعلاً في حلقي.. بحثت أمّي عنها بلا جدوى، حتّى وقع نظرها عليّ، رأت وجهي المحتقن بالضحك ونظراتي الخبيثة وأنا أرمق بحثها، فهتفت بي بجزع:

إيّاكَ أن تكون قد بلعتَها!

هنا حدث شيء أثار دهشتي، فهالة أمّي تغيّر لونها فجأة أمام عينيّ من اللون اللبني إلى الأحمر، وهي تهجم عليّ وتُحاول فتح فمي بالقوّة، وتهتف بهستيريّة:

استر يا رب، استر يا رب!

وجاءت خالاتي مسرعات وأحطن جميعًا بي، وأنا أرفض فتح فمي، فقامت إحداهنّ بتكبيلي، وأخرى بغلق أنفي كي لا أستطيع التنفّس وأضطر لفتح فمي، بينما أخذت أمّي تُحاول التسلّل من بين أسناني بلا كلل ولا ملل..

انتهى الأمر باستسلامي، واستخرجت أمّي الدبلة من تحت لساني، ثمّ انفجرت في البكاء وهي تحتضنني وتُنهنه:

كنتَ ستضيع منّي، لو بلعتَها كنتَ ستختنق بها!

أدركتُ يومها أنّ تلك السحابة يتغيّر لونها على حسب ما يشعر به صاحبها، وأسعدني ذلك كثيرًا لأنّني كنتُ أُحبّ رؤية الألوان وهي تتشكّل وتتغيّر أمامي، ودفعني هذا إلى محاولات لا تنتهي من استفزاز من حولي

obeikan.com

لاختبار مشاعرهم ومعرفة كيف ستُصبح الألوان المحيطة بهم في حالة فرحهم وحزنهم، وأكسبني ذلك سمعة كطفل شقي مستفزّ.

كنتُ كلّما كبرتُ أجد صعوبةً أكثر في رؤية تلك الفقّاعات، حتّى صرتُ لا أراها إلا إذا ركّزتُ نظري بطريقة معيّنة. فتأخذ الفقّاعة في التشكّل أمام عينيّ باللون الذي تتّخذه في تلك اللحظة.. فأصبحتُ كلّما أردتُ التعرّف على شعور من أمامي أُركّز على فقّاعته، محاذرًا أن ينتبه إلى أنّني أرمقه بشكل مثير للريبة.

عرفتُ فيما بعد أنّ هذه الفقّاعات اسمها الهالة، وأنّها موجات كهرومغناطيسيّة تصنع حقلاً من الطاقة حول الجسم، ويدّعي البعض أنّها أشبه ما تكون بالسجلّ الذي يُخزَّن فيه كلّ ما يمرّ بالمرء في حياته من أفكار ومشاعر..

ذهبتُ إلى المركز الثقافي الصيني والتقيتُ هناك بمُعلِّم صيني شرح لي أكثر عن الهالات، وفوجئ حينما عرف أنّني أستطيع رؤيتها، وقال لي بلهجته العربيّة الركيكة:

كثيرون يدّعون قدرتهم على رؤية الهالة، لكنّ من يستطيعون فعلاً ذلك قليلون جدًا.. أنتَ حالة غريبة لم تمرّ عليّ من قبل، لم تتدرب ولم تسعَ إلى الأمر، وُلدتَ بهذه الموهبة لسبب ما.

فتأكّد لديّ أكثر أنّني شخص مميّز.

حاولتُ مداراة ارتباكي بأن سألتُها:

وأنتِ يا (ريهام)، ما رأيكِ في الحوار؟

رمقتني بثبات وقالت:

رأيي من رأي (كريم)، وأزيد عليه أنّ الحوار ينضح بالتعالي والغرور!

ضحك (مصطفى):

التعالي والغرور؟! صفتان بعيدتان تمامًا عن صديقنا (نادر)!

غاظني أنّها وافقت على رأي (كريم) أكثر مما غاظني وصفها كلامي بالتعالي والغرور!

- لستُ مغرورًا، ولكنّني فقط أُدرك إمكانياتي وأعرف مكانتي جيّدًا!

قالت بابتسامة مستفزّة:

وهذا هو الغرور!

بذلتُ جهدًا للسيطرة على أعصابي، سأُحطّمها، هي من حكمت على نفسها بذلك!

obeikan.com

- ربما من حق من يكتب أعمالاً تُعجب القرّاء وتُحقق أعلى المبيعات وتترشّح مرتين في القائمة الطويلة للبوكر أن يُصاب بشيء من الغرور!

هزّت رأسها:

الغرور لا يُصيب سوى النفوس الضعيفة التي لا تجد لها مكانًا، فتُحاول طوال الوقت أن تُذكّر من حولها بمن هي وما هي مكانتها، الشخص العظيم فعلاً لن يحتاج إلى تذكير الآخرين بنفسه ومكانته.. أمّا عن البوكر، فأنتَ بالتأكيد تعرف أكثر منّي أنّها جائزة سياسيّة بالدرجة الأولى، ومن السهل جدًا أن تصل فيها إلى القائمة الطويلة، لكن من الصعب جدًّا أن تتجاوزها إلى القصيرة.. حينما تصل إحدى رواياتكَ إلى القائمة القصيرة حينها قد أعترف لكَ بأنكَ تستحق أن تكون مغرورًا!

لم يعد بإمكاني السيطرة على نفسي، فسألتُها بغيظ:

وماذا تكتبين أنتِ لتحكمي عليّ؟!

أسرع (كريم) يقول:

اهدأ يا (نادر)، (ريهام) لا تقصد أن...

- أكتب عن العِشق، عن ذلك الشعور الذي لن يستطيع أمثالكَ تذوّقه لأنّهم غارقون تمامًا في عِشق ذواتهم!

رددتُ عليها متحدّيًا:

المرء عادةً يكتب عمّا يفتقده!

ردّت بهدوء:

- لو أنّ الأمر كذلك فلستُ بحاجة لقراءة رواياتكَ، لأنّها بالتأكيد تدور حول الشعور بالأمان الذي تفتقده!

رمقتُها بغضب:

من أنتِ لتعرفي ماذا أشعر وماذا أفتقد؟!

- كلّ كلمة تتفوّه بها تُخبرني بوضوح أنّ حياتكَ يحكمها الخوف، تُحاول ألّا تجعل أحدًا ينتبه لذلك بالكثير من الأقنعة، قناع يتظاهر بالجبروت والسيطرة، قناع ساخر يتظاهر بعدم المبالاة بأيّ شيء، قناع ناجح يتظاهر بأنّكَ لستَ بحاجة لأحد.. إن أردتَ رأيي: أنتَ تُعاني من الفقد.. هل فقدتَ أحدًا تُحبّه من قبل؟

اهتزّت نفسي بالفعل من كلامها، لكنّني حرصتُ على ألا يعكس ظاهري أيّ شيء من ذلك، واجهتُها بوجه أعرف جيّدًا أنّه جامد لا يعكس أيّ شعور، وقلتُ بسخرية:

هع! أتمنى أن أجبر بخاطركِ وأمدح فراستكِ، لكن للأسف.. مازال ينقصكِ الكثير لتُصبحي طبيبة نفسيّة!

هل فقدتُ أحدًا أُحبّه من قبل؟!

يا للمتذاكية الحمقاء! ومن منّا لم يفعل؟!

كان عمري عشر سنوات حينما أجرى أبي فحصًا دوريًا على نفسه ليتأكّد من أنّه بخير.. أجراه من باب القيام بالواجب وهو يتوقّع ألّا يجد شيئًا مختلفًا عمّا يعتقده، لذلك صدمته النتيجة حينما صارحه الطبيب أنّه مصاب بفايرس سي.. تفاجأ أبي رغم أنّ الأمر كان محتومًا، أخبرني ذات مرّة أنّه أُصيب بالبلهارسيا في صغره لأنّه كان يُكثر من السباحة في الترعة في بلدتنا في الصعيد.. فايرس سي هو المحطة المنطقيّة التالية..

منذ ذلك اليوم وصحّة أبي آخذة في التدهور، وكأنّ إدراكه أنّ هناك عدوًّا بداخل جسده كان كفيلاً بسحب الصحّة منه رويدًا رويدًا كما يشفط طفل ما في كوب العصير.. فقد وزنه وخسر بريق عينيه، وهو يتنقّل بين الأطباء عبر السنين ويُحاول تجريب كلّ علاج بلا فائدة.

لاحظتُ بألم أنّ هالته لم تعد على ما يرام، لم تعد بيضاويّة كما ينبغي لها أن تكون، أصبحت مُجعّدة ذات حوافٍ حادّة مدبّبة، وبدأ لونها اللبني يتحول تدريجيًا إلى البُنّي..

ثمّ أصيب بالذعر حينما تقيّأ ذات مرّة فإذا باللون الأحمر يطغى على قيئه.. فحص آخر واكتشف أنّه مصاب بدوالي المرّيء، وكأنّ فايرس سي وحده لا يكفي.. لكنّ الأمر لم يطل هذه المرّة، عملية واحدة بنسبة نجاح منخفضة كانت هي خياره الوحيد.. فشلت العملية فوضعوه في غرفة العناية المُركّزة وطلبوا منّا أن نلقي نظرة عليه.. كانت أمّي لا تُصدّق ما

تراه أمامها، ظلّت حتّى اللحظة الأخيرة تعتقد أنّ كلّ شيء سيتحسّن، وكنتُ سأشاركها نفس الاعتقاد لولا أنّ هالته كانت تتحوّل أمامي تدريجيًا إلى البُنّي الداكن..

وذات صباح فوجئتُ بهالته تختفي أمام عينيّ، لم أرَ مثل هذا المشهد إلا حينما فقدّتُ سلحفاتي الصغيرة، كانت هالتها الصغيرة الخضراء متواجدة في لحظة ثمّ في اللحظة التالية أخذت تخبو حتّى اختفت.. أخذتُ أصرخ بمن حولي أن يفعلوا شيئًا.. ظلّت أمّي لسنين طويلة بعدها تُؤكّد أنّ صراخي سبق أزيز جهاز نبضات القلب.. أسرع الأطباء مُحاولين إنعاشه لكن لم تكن هناك فائدة.. هالته رحلت وأصبح جسده خاويًا.

الأيام التالية كانت كابوسًا، رحلنا مع الجثمان إلى بلدتنا في الصعيد لندفنه ونأخذ العزاء.. كان عمّي مسيطرًا على الوضع، في اليوم الأوّل من الجنازة صارح أمّي بأنّه اشترى من أبي كلّ ما يملكه من أراضٍ، وأنّ لديه أوراقًا رسميّة تُثبت ذلك.. شعرتُ أنّ الأرض مادت بأمّي، ولم يكن هناك في وجهها مساحة شاغرة من الحزن لتجزع فوق جزعها.

عدنا إلى القاهرة وظللتُ لعدّة أيام أستمع لاتّصالات أمّي بجدّي وأقاربها، وهي تنعي لهم حظّها الأسود، كيف ستنفق عليّ وقد وضع عمّي يده على كلّ الميراث؟

كان جدّي محاميًا بارعًا وتولّى قضيتنا، واستطاع بعد عدّة سنوات أن يستعيد ميراثنا من بطن عمّي، لكنّني طوال تلك السنوات كنتُ أشعر أنّني لا أقف على الأرض.. كنتُ أسير في الشارع وأنا أخشى أن أسقط..

أصبحتُ أخشى أن يضربني أحدهم أو يعتدي عليّ، كانت عبارة أمّي ترنّ في ذهني طوال الوقت: "لم يعد لنا ظهر يحمينا".. هذا بالفعل ما شعرتُ به أثناء زيارتنا لبلدتنا أمام نظرات عمّي الناريّة..

لذلك، وبعد أسبوع من عودتنا من بلدتنا بعد دفن والدي، قصدتُ مركز تدريب رياضي كان يقع في نفس شارعنا، وقابلتُ مدرّب فنون القتال هناك وطلبتُ الالتحاق بمجموعته.

- لماذا تريد تعلّم القتال؟

سؤال تقليدي كان عليه أن يسأله لكلّ من يتقدّم للالتحاق.

- أخشى أن أكون سائرًا في الشارع ثمّ يُقرّر كلّ الناس فجأة أن يُهاجموني، حينها قد أحتاج للدفاع عن نفسي.

ضحك وقال لي إنّني مهما أجدتُ من فنون القتال فلن يمكنني أن أهزم كلّ الناس دفعة واحدة، لكنّه وجم حينما رددتُ عليه بجدّية:

أحتاج فقط لطحن خمسة منهم، وسيخاف الباقون!

لكنّ دهشته تلك لم تكن لتُقارن بدهشته في الشهور التالية أمام سرعة استيعابي لكلّ ما يُعلّمني إياه، أخذتُ أتعلّم فنًّا دفاعيًا يليه آخر بلا كلل ولا ملل، كاراتيه، كونج فو، تايكوندو، جودو، آيكيدو، كيك بوكسينج إلخ.. لم أكن أتقدّم في أيّ فنّ إلى نهايته، ثلاثة شهور ثمّ أنتقل إلى آخر، كنتُ أتوقّف بعد أن أُجيد عددًا كافيًا من الحركات، حينها أشعر بالشبع من ذلك الفنّ وأخوض في فنٍّ آخر.

سألني المدرب ذات يوم:

لماذا لا تتخصّص في فنٍّ واحد؟ لماذا تُحاول أخذ قطرة من كلّ فنّ؟

وقبل أن يُحاضرني في أهمّية التركيز والتخصّص، أسرعتُ أُجيبه:

أخشى أن يُهاجمني أحدهم فأكتشف أنّه يُجيد نفس ما أُجيده، لكنّ أحدًا لن يُجيد حركات من كلّ شيء، حينها سأُفاجئه بالتأكيد بشيء لا يعرفه وأهزمه!

كان يقول لنا دائمًا: لا تستخدموا ما تتعلّمونه إلا للدفاع عن أنفسكم.

وكنتُ أقول له: بل أستخدمه لأُثبت للجميع أنّهم لا يمكنهم إيذائي، ولأدافع عن كلّ ضعيف ومظلوم!

obeikan.com

لاحظ (كريم) وجومي فتدخّل كالعادة:

(ريهام)! لا داعٍ لاستخدام فراستكِ النفسيّة الآن. نحن لم نجتمع لنُحلّل بعضنا البعض!

تململتُ في جلستي، لقد أفسدتْ تلك المعتوهة الأُمسيّة، عشر دقائق وأتعلّل بانشغالاتي وأرحل، حتّى لا يقولوا إنّني تأثّرتُ بما قالته. لكنّ هذا لم يمنعني من أن أسأل (كريم) ببرود:

ولماذا اجتمعنا الليلة يا (كريم)؟

أسرع (مصطفى) يقول ضاحكًا:

وهل يجب أن نجتمع لسبب يا أخ (نادر)؟ افتقدنا بعضنا فاجتمعنا! آه نسيت، أنتَ يجب أن نأخذ أوّلاً موعدًا من سكرتاريتكَ إن افتقدناكَ!

لم يضحك أحد وبدا التوتّر يُحيط بنا بذراعيه.. قال (كريم) مبتسمًا وهو يرمقني:

(مصطفى) و(ريهام) لديهما فكرة عن الموضوع لأنّني تحدّثتُ معهما قبل قدومكَ أنتَ و(صلاح).. الفكرة جاءتني من مكالمة مع (صلاح)، تحدّثنا خلالها عن تجربته السيّئة في النشر، ثمّ تكلّمتُ مطوّلاً مع (مصطفى) واتّفقنا على فكرة نودّ أن نعرضها عليكم.

oberkan.com

رفعتُ حاجبيّ منتظرًا أن يُكمل، بينما تركت (ريهام) هاتفها وأخذت تستمع بانتباه، فأكمل:

كما نعرف جميعًا، هناك طبقة جديدة من الناشرين انتبهوا إلى أنّ النشر قد يكون مشروعًا تُجاريًا مربحًا للغاية، يعرضون على الكاتب الشاب أن يتحمّل معهم نصف التكلفة ويكون شريكًا في أرباح كتابه بالنصف، فيشعر الكاتب أنّ هذا هو العدل، وأنّه سيصبح غنيًّا إذا حصل على نصف الأرباح الطائلة التي قد تعود عليه من كتابه.. كم سأدفع؟ تكلفة كتابكَ ستصل –مثلاً- إلى خمسة آلاف جنيه، ادفع منها ألفين وخمسمائة وسأدفع أنا ألفين وخمسمائة.. لكن بشرط.. ستكون الطبعة الأولى عبارة عن ألف نسخة، مقسّمة على دُفعتين، خمسمائة وخمسمائة، كي لا نخاطر بطبع الكمّية كلّها مرّة واحدة.. ستتكفّل أنتَ بمصاريف الخمسمائة الأولى بما ستدفعه، وحينما تنفد تلك النسخ سأقوم أنا بطباعة الخمسمائة الثانية بالجزء الخاص بي من التكاليف.. حتّى الآن كلّ هذا جميل، الناشر لا يثق في موهبة الكاتب الشاب ولا يريد أن يُخاطر معه، وهذا حقّه، وربما يكون مقتنعًا بموهبته لكنّه غير واثق من تقبّل القراء لما يكتبه.. لكنّ المشكلة تأتي حينما لا يهتمّ الناشر بتوزيع وتسويق الخمسمائة نسخة التي طبعها على حساب المؤلف، في الغالب يقوم بعملية توزيع صوريّة بدون اهتمام، يُلقي بمجموعة من النّسخ في عدّة مكتبات ولا يسأل عنها، أو لا يهتمّ بوضعها في المكان المناسب.. فلا تنفد الخمسمائة نسخة الأولى، وبالتالي لا يضطر الناشر لطباعة الخمسمائة الثانية على حسابه، فيصبح الأمر في صورته النهائيّة أنّ الكاتب طبع

خمسمائة نسخة على حسابه شاركه الناشر في أرباحها دون أن يدفع ملّيمًا.

وهكذا يصل للكاتب انطباع خاطئ أنّه فشل ولم يُحقق النجاح المنشود، فينكفئ على نفسه ويتوقّف عن الكتابة، أو يحاول إعادة التجربة فيخسر المزيد من الأموال.

كان تقريبًا يشرح تجربة صديقنا (صلاح)، لكنّني من خبرتي في السنين الأخيرة أصبحتُ أُدرك أنّ الأمر يشمل طرقًا أكثر تعقيدًا مما وقع مع (صلاح).

أكمل (كريم):

ما أودّ قوله أنّنا كلّنا نعرف المشاكل التي تُحيط بالكاتب في بلادنا، بدءًا من أنّه لا يمكنه التفرّغ بشكل كامل للكتابة لأنّها كما نقول دائمًا "لا تُؤكّل عيشًا". وبالتالي يضطرّ للتعامل معها كهواية إضافيّة بجوار عمله الأساسي الذي يرتزق منه، ومرورًا بالمشاكل التي قد يُقابلها مع دار النشر، من استغلال وفرض شروط ليست في صالحه وعدم إعطائه حقوقه كاملة، وانتهاءً بما بعد النشر، حينما لا يجد كتابه في المكتبات ولا يحصل على الدعاية العادلة.. كثيرٌ من دور النشر للأسف لا تقوم بدورها الحقيقي، وتكتفي بلعب دور الوسيط بين الكاتب والمطبعة، تأخذ النقود من الكاتب فتُعطي للمطبعة تكاليف الطباعة، وقد تحصل على جزء من النقود لها، ثمّ تأخذ الكتاب بعد خروجه من المطبعة وتعطيه للكاتب، وإمّا أن تتركه يتحمّل وحده مسؤوليّة توزيعه وتسويقه، أو تقوم بعملية

توزيع صوريّة لذرّ الرماد في العيون، وفي كلّ الأحوال فالخاسر الوحيد هنا هو الكاتب.

توقّف ليرمقني مستطلعًا رأيي في كلامه، لكنّني ظللتُ محتفظًا بالوجه البارد، وسألتُه:

كلّ ما قلتَه نعرفه جميعًا وناقشناه مرارًا وتكرارًا في جلساتنا على مدى السنين الماضية، فما الذي تودّ الوصول إليه؟

- الموضوع ببساطة يا (نادر) أنّنا يجب أن نفعل شيئًا، منظومة النشر في مصر بها العديد من الأخطاء، والخيار أمامنا إمّا أن ننتظر حتّى تعتدل المنظومة من نفسها؛ أن تنجح دور النشر التي تأخذ المهنة كرسالة أكثر منها كمشروع تجاري في أن تفرض فلسفتها على غيرها من دور النشر المستغلّة.. وهذا أمر قد يحدث فعلاً يومًا ما.. أو –ببساطة– نتدخّل نحن!

بدأتُ أشعر بالملل من كلامه.. ما أدراكم أنتم أيّها الأقزام بما يحدث في كواليس النشر لتتدخّلوا فيه؟

- نحن بحاجة إلى كيان يجمع كلّ الكتّاب سويًّا، شيء أشبه بالنقابة أو الجماعة، بعيدًا عن اتحاد الكتّاب الذي لم يعد يقوم بدوره كما ينبغي.. كيان واعٍ يعرف جيّدًا كيف يُدافع عن الكتّاب ضد استغلال دور النشر وجشعها، ونحن سنكون نواة هذا الكيان!

رسمتُ على وجهي تعبير الصبر وأنا أسأله:

أنتَ طبعًا تُدرك أنّني ناشر، وأنّني أنتمي لذلك العالم الذي تُحاول الآن محاربته؟

أسرع يقول بحماس:

أنتَ كاتبٌ قبل أن تكون ناشرًا يا (نادر)، بل بالعكس، أنتَ على رأس كتّاب جيلنا إن لم تكن الأوّل فيهم، أنتَ مصدر فخر لنا جميعًا ووجودكَ معنا سيُقدّم دفعة معنويّة هائلة للكيان الجديد. ناهيك عن أنّ دار أماندا التي تُمثّلها من أرقى وأفضل دور النشر الموجودة على الساحة.

أرضاني كلامه عنّي فقررتُ أن أصبر قليلاً قبل أن أُصارحه بسخف ما يقول:

وهذا الكيان الجديد.. ما المفروض أن يفعله بالضبط؟

أخذ يُعدّد على أصابعه:

كما قلتُ لكَ فهدفنا الرئيس المُعلن هو حماية الكاتب من استغلال دار النشر، نحن ندرك كلّ الألاعيب التي قد تلجأ إليها الدار وبإمكاننا تحذير الكاتب منها.. نقرأ العقد الذي قدّمته الدار له قبل أن يُوقّعه، ونلفت نظره لكلّ البنود التي قد يتمّ استغلالها ضدّه، نُوجّهه للفعل السليم في حالة تلاعبت به دار النشر، وهكذا..

- تقصد دورًا توعويًّا.. إذن لسنا بحاجة لكلّ هذا الكلام، بإمكاننا ببساطة أن يكتب أحدنا "نوت" على "الفيس بوك" يُوضّح من خلالها كلّ سلبيات

Obeikan.com

النشر وما قد تفعله دار النشر المستغلّة مع الكاتب، ثمّ ننشرها على أوسع نطاق، وينتهي الأمر.. دون الحاجة لجمعيّات وكيانات ووجع دماغ!

ابتسم قائلاً:

إقامة دورات توعية لشباب الكتّاب ستكون من ضمن أهدافنا بالتأكيد.. أنا لم أُوضّح لكَ كلّ الفكرة بعدُ يا صديقي.. كنتُ أقصد تمامًا كلمة "المُعلن" حينما قلتُ إنّ هدفنا الرئيس المُعلن هو حماية الكاتب.. لكنّني – لو تذكر- بدأتُ كلامي معكَ بالحديث عن ضرورة تدخّلنا لإصلاح منظومة النشر.. هذا هو هدفنا الحقيقي.. نحن سنُصلح منظومة النشر!

قرّرتُ التخلّي عن قناع الصبر لأنّ الحماقة زادت عن حدّها، فقلتُ له راسمًا على وجهي قناع الغيظ:

الحكومة نفسها تُحاول طوال الوقت إصلاح المنظومة الاقتصاديّة ولا تستطيع، فكيف ستنجح أنتَ يا صاحبي الطيّب في إصلاح منظومة النشر؟

أخذ يقول بحماس مُلوّحًا بيده:

ليس أنا، بل نحن.. انظر إلينا، أنتَ من أعمدة النشر في دار أماندا، التي تُعتبر من كبرى دور النشر في مصر، بل لا أبالغ لو قلتُ إنكَ العمود الأساسي فيها والمتحكّم في الكثير من الأمور.. أنا بلا غرور من أكبر مصمّمي أغلفة الكتب، أغلب الكتب التي تراها حولكَ في المكتبة من تصميمي.. كلّ دور النشر تقريبًا تعرف أنّني أجمع في أغلفتي بين النظرة الفنّية والتجاريّة، حينما يرمق القارئ أحد أغلفتي يشعر برغبة في اقتناء الكتاب

لأنّ الغلاف جذبه.. الغلاف هو الصفحة الأولى في أيّ كتاب، وبناءً عليه يتحدّد نصف نجاحه، الغلاف هو...

هتف به (مصطفى) ضاحكًا:

الموضوع يا (كريم).. عد إلى الموضوع!

قهقه (كريم):

معذرة، أخذتني الجلالة.. أنا بلا غرور أكبر مصمّم أغلفة تتعامل معه دور النشر، و(مصطفى) صحفي يُبشّر بالخير.. (ريهام) من أكبر المدوِّنين، و(صلاح) كاتب شاب عانى من منظومة النشر الفاسدة.. نحن نُشكّل كلّ العناصر المطلوبة لبدء كياننا السرّي!

هتفتُ بدهشة:

السرّي؟!

- نعم يا صديقي.. هل قرأتَ رواية ملائكة وشياطين لدان براون؟ في تلك الرواية عرفنا أنّ جماعة الإلوميناتي استطاعت السيطرة على الكثير من الأماكن الحيويّة بأن دسّت أفرادها فيها، بل إنّهم سيطروا على جماعة سرّية كالماسونيّة بأن انضموا لها بكثافة ثمّ استخدموها لصالحهم.. نفس الفكرة أطرحها هنا.. نحن سنكون نواة كيان أو جماعة أو جمعيّة، سمّها ما شئتَ.. ستتغلغل في سوق النشر، كلّ منّا سيحتلّ موقعًا مميّزًا، سيكون منّا مدراء نشر كبرى دور النشر، مدراء توزيع وأصحاب مطابع

obeikan.com

ومصمّمو أغلفة وصحفيّون ومدوِّنون، سنتوزّع في كلّ الأماكن الهامة.. وفي وقت ما سنجد أنّنا نُسيطر فعليًّا على سوق النشر!

السيطرة على سوق النشر.. ضربت الجملة عقلي، وبدأتُ من هذه اللحظة أنتبه جيّدًا لما يقوله (كريم):

سنكون نحن الخمسة النواة فقط، ثمّ سنبدأ في ضمّ المزيد والمزيد.. سنظلّ كيانًا سريًّا لا يعرفه أحد، لكنّ أثره سيكون واضحًا على الأرض في تعديل سياسات دور النشر.. سينضمّ الكتّاب إلينا لأنّنا على السطح سنخبرهم أنّنا نسعى لحماية حقوقهم، ومن نثق فيه منهم نضمّه للكيان الحقيقي الذي يسعى للتغلغل والسيطرة.

السيطرة.. هذه الكلمة كفيلة بإقناعي.. قد لا تكون الفكرة سيّئة كما ظننتُ.. أطلقتُ رغمًا عنّي ضحكة ساخرة، فسألني (كريم):

أنتَ غير مقتنع بالفكرة؟

- لا أبدًا، الفكرة تبدو لي مُبشّرة.

أنا فقط مندهش من سخرية القدر.. من أنّني أصبحتُ مغناطيسًا يجذب تلك الأمور.. فهذه يا (عزيز) –كما تعلم- لم تكن الجماعة السرّية الأولى التي تعرض عليّ الانضمام إليها!

انضممتُ إلى جماعة "أفاتار" Avatar قبل شهور قليلة من صدور روايتي الثانية "مترو"، ولا يمكنني إنكار أنّ ذلك ساهم كثيرًا في سطوع نجمي.

كانت شهرتي قد بدأت منذ إذاعة حلقة برنامج "حلم ولّا علم"، وبدأت مبيعات روايتي الأولى "ذلك الصفير في أذني" تزيد بجنون، وكنتُ جالسًا في إحدى الليالي في الصالون الأسبوعي للأستاذ معتز عبد الجوّاد، مستمتعًا بالحفاوة التي التقاني بها بعض الحضور بصفتي النجم المرتقب.. كنتُ منتشيًا بالشهرة المحدودة التي حقّقتُها؛ حينما جلس بجانبي شاب أسمر نحيف وعرض عليّ سيجارة:

آسف، لا أُدخّن.

مدح حفاظي على صحّتي، ثمّ عرّفني بنفسه:

(إبراهيم طه)، مدير التوزيع في دار أماندا.

رمقتُه بانبهار، كانت دار أماندا من دور النشر التي يتمنّى أغلبنا ككتّاب شباب النشر معها.. اسم الدار في حدّ ذاته Brand، يكفي وضع اللوجو الخاص بها على كتاب ليبيع طبعة أو اثنتين اعتمادًا على ثقة القرّاء في الدار.

Opdeikan.com

- ما رأيكَ أن نذهب لتناول كوبي شاي في أحد المقاهي؟ الجلسة هنا بدأت تُصيبني بالدوار.

خرجتُ معه من الشقّة التي تُقام بها الندوة غير مُصدّق، متوقّعًا أن أتلقى عرضًا للنشر من أماندا.. صوت بداخلي أخذ يهتف بي: وافق، وافق، بغض النّظر عن الشروط، وافق فقط بالله عليكَ!

كان يتكلّم ويتحرّك بثقة لامتناهية، وكأنّه ملك الكون.. أخذ نفسًا من سيجارته الجديدة ونفثه أمامه وهو يقول لي:

لستُ هنا اليوم بصفتي مدير التوزيع في أماندا، ولكن بصفتي عضوًا في أفاتار، هل سمعتَ عنها؟

شعرتُ أنّني أهوي من حالق، لا يوجد عرض بالنشر في أماندا، ولوهلة ظننتُ أنّ أفاتار هذه دار نشر جديدة تستخدم مدير توزيع أماندا في استقطاب الكتّاب لها.

هززتُ رأسي أن لا، ويبدو أنّه كان يتوقّع إجابتي، لأنّه هزّ رأسه في فهم:

أفاتار هي جماعة تنويريّة لا يعرفها كثيرون.. لا ينضمّ لها سوى الصفوة.. وقد وقع اختيارنا عليكَ.

ظللتُ أرمقه متوجّسًا وأنا أتساءل بحذر:

تقصد جمعيّة ماسونيّة؟

ضحك بمرح:

ما رأيكَ أن تُقابل رئيسنا الأستاذ (فهمي ناظم) وهو سيشرح لكَ كلّ شيء؟

وأعطاني موعدًا للقاء الأستاذ في مكتبه غدًا في العاشرة صباحًا.

(فهمي ناظم) محامٍ مشهور، تخصّص في الترافع ضد قضايا الفساد وحقوق العمّال.. وضعتُ في ذهني أنّ الموضوع قد لا يعدو كونه تنظيمًا يساريًا يسعى لضمّ المثقّفين إليه، وقرّرتُ أن أختبر الأمر للنهاية.

كان (فهمي) في العقد السادس، ممتلئ قليلاً وتبدو الطيبة على وجهه ذي الشعر الأشيب.. وجدتُ (إبراهيم) ينتظرني معه، وقدّمنا لبعضنا.

- وهل أحتاج لتُعرّفني بـ(نادر)؟ كلّنا رأينا كيف تصرّف بشجاعة في ذلك البرنامج.. وهذا ما نحتاج إليه يا (نادر) معنا، الشجعان الذين لا يخشون تغيير ما حولهم.

ظللتُ صامتًا وتركتُ له قيادة الحديث ليشرح لي:

لعلّ (إبراهيم) حدّثكَ عن جماعتنا.. من الطبيعي أن تقلق، لكنّني أؤكد لكَ أنّنا لا نملك أيّ أهداف ضد مصلحة البلاد والمجتمع، نحن ببساطة نسعى للتغيير من خلال نشر المفاهيم التنويريّة.. نسعى للارتقاء بمستوى وعي المجتمع.. مجتمعنا يتكوّن من مؤسسات، فلو كان أعضاؤنا والمنتسبون إلينا متواجدون في تلك المؤسسات ونشروا مفاهيمنا التنويريّة في أفرادها فسيرتقي المجتمع مع الوقت.. أو –وهو الحلم الأعظم–يصبح المجتمع كلّه من المُنتسبين إلينا!

لم أشعر بالطمأنينة، وسألتُه متوجّسًا:

لا تؤاخذني يا سيّدي، كلامكَ يبدو لي وكأنّكَ ترغب في زرع جواسيس أو عيونًا في مختلف مرافق الدولة، الأمر كما يبدو لي...

قاطعني بمرح:

لم أتحدّث لحظة عن الدولة، بل عن المجتمع.. نحن لا نسعى يا بني للحصول على أيّ معلومات من أيّ جهة، نحن نسعى فقط لتصدير المعلومات، لنشر المفاهيم.. مفاهيم الحبّ والسلام وتقبّل الآخر.. نودّ أن يكون رجالنا المتشرّبون بتلك المعاني في كلّ مكان ليُصيبوا من حولهم بالعدوى، عدوى المفاهيم الحميدة التي يحملونها، ينشرونها لدى أكبر قدر ممكن من الناس.. تخيّل ماذا سيحدث بعد سنوات حينما يُصبح أغلب الناس واعين بمفاهيم الحبّ والسلام وتقبّل الآخر.. ألن نكون هكذا قد قمنا بدورنا تجاه مجتمعنا وبلادنا؟

بدا لي الكلام عامًّا جدًا، كلّ جهة ثقافيّة أو فنّية تسعى لنفس الأهداف، فلماذا يقيمون جماعة سرّية لهذا الغرض؟

- اعذرني يا سيّدي.. لو كان الأمر كذلك فلماذا السرّية؟ ألا ترى أنّ نشر تلك المفاهيم لا يتمّ سوى بالجهر بها؟

- السرّية تأتي لأنّ العامّة لن يمكنهم فهم ما نسعى إليه، سيظنّون بنا الظنون، وسيذهب بعضهم إلى أنّنا نحارب الدين، وسيذهب البعض الآخر إلى أنّنا عملاء للخارج!

لم يبدُ لي الكلام مقنعًا، وظهر ذلك على وجهي، لأنّ الرجل أسرع يقول:

ما رأيكَ أن تحضر دورتنا التعريفيّة بأهداف الجماعة أوّلاً ثمّ تُقرّر بعدها ماذا سيكون موقفكَ منا؟

وجدتُ أنّي لن أخسر شيئًا فوافقتُ، وغادرتُ مع (إبراهيم) الذي أخبرني ونحن ننتظر المصعد:

غدًا من العاشرة صباحًا إلى الخامسة عصرًا في مركز كمبيو إيج للدورات التدريبيّة.

وأملاني العنوان ثمّ هبط السلالم مسرعًا دون أن يُلقي التحيّة أو ينتظر المصعد معي.. بدا لي مستاءً من عدم موافقتي الفوريّة على الانضمام إليهم.

الغريب أنّي حينما غادرتُ المصعد بدأتُ أشعر بالاطمئنان تجاه الأمر بمجمله، لا تبدو لي تلك الجماعة سرّية بالشكل الكافي، فهم لا يعرفونني جيّدًا، ولا يضمنون إن كنتُ سأنضمّ إليهم أم لا، ومع ذلك شرحوا لي أهدافهم العامّة وسيتركونني أحضر دورتهم التعريفيّة، دون أن يأخذوا عليّ عهودًا بعدم كشف شيءٍ من ذلك، ولا تهديدي بالتنكيل إن سرّبتُ شيئًا عنهم.. في الغالب هم مجموعة من الحمقى يشعرون بالذنب تجاه المجتمع ويسعون لتغطية ذلك بما يفعلونه، حتّى ولو لم يكن ذا جدوى.

وهكذا ذهبتُ إلى العنوان في الوقت المحدّد، لأجد نفسي في قاعة مع ثلاثة آخرين.. حاولتُ فتح الحديث معهم لكنّهم كانوا متحفّظين.

obeikan.com

ثمّ جاء مُحاضِرنا مع مساعده.. وبينما يقوم الأخير بإعداد "اللاب توب" وتوصيله "بالبروجكتور"، توجّه إلينا المُحاضِر قائلاً:

أُرحّب بكم في الدورة التعريفيّة بجماعة أفاتار.. أنا دكتور (فريد) وسأصحبكم طوال هذه الرحلة.. أعرف أنّ عددكم قليل، لكنّنا لا نسعى للكثرة.. قليلٌ مُؤثّرون خيرٌ من كثير كالقطعان.

انتهى المساعد من عمله، وأطفأ الأنوار ثمّ ضغط زرًا فظهرت على الشاشة أمامنا كلمة "وعي" كبيرة.

- أعتقد أنّ الأستاذ (فهمي) قد أعطاكم فكرة مبدئيّة عن أفاتار.. نحن ببساطة نسعى لرفع مستوى الوعي لدى المجتمع.. لكن ما هو الوعي؟ ولماذا نشغل أنفسنا بهذا الأمر؟ وما معنى أفاتار أصلاً؟ خلال الدقائق القادمة سنعرف سويًّا إجابة هذه الأسئلة.

شرح لنا أنّ الوعي الذي يقصده هو الوعي النفسي والروحاني، ضرب لنا مثالاً بما تفعله وسائل الإعلام.. مع وجود مشاكل اقتصاديّة أو سياسيّة في البلاد تسعى الأنظمة الحاكمة لشغل الناس عمّا يحدث بمشاكل جانبيّة تستنفد تركيزهم.. جريمة قتل، فضيحة جنسيّة، برامج مسابقات تافهة، إلخ.. أكثر الناس ينجذبون لهذه الأمور وينسون أصل الموضوع، قلّة قليلة من ستُدرك ما يفعله الإعلام.

- إذا كنتَ تمشي في الشارع فقام أحدهم بشتمكَ، قال لكَ إنكَ حمار، مثلاً، فماذا ستكون ردّة فعلكَ؟ قد تتجاهل الأمر ولا تُلقي له بالاً، تقول في نفسكَ هذا شخص مجنون أو سيّء الخُلق، وأنا لستُ كما يقول.. وقد

تغضب وتنفعل وتعتبر أنكَ تعرّضتَ لإهانة ويجب أن تنتقم وتُلقّن ذلك الوغد درسًا.. الفرق بين ردّي الفعل هو الوعي.. في المرّة الأولى كان وعيكَ مرتفعًا، لذلك أدركتَ أنّ ما قيل لكَ لا يعدو كلمات لن تضرّكَ ولا تُعبّر سوى عن صاحبها.. في المرّة الثانية كان وعيكَ منخفضًا، فأخذتَ الأمر بجدّية واعتبرتَ أنّ الكلمة التي أطلقها الرجل التصقت بكَ وعليكَ الردّ.. هذا هو الوعي يا حضرات، أن تدرك ما وراء الأمور.. باطن الظاهر.. حقيقة الحياة..

ثمّ أشار لمساعده ليضغط زرًا فظهر على الشاشة عنوان: مستويات الوعي.

- هناك الكثير من الدراسات التي وُضعت لدراسة الوعي وتقنينه.. نحن في جماعة أفاتار نعتمد تقسيمًا وضعه عالم النفس ديفيد هاوكينز في كتابه "القوّة مقابل القدرة" Power VS Force.. دكتور هاوكينز بذل جهدًا كبيرًا وقام بدراسات عديدة ليخرج علينا في النهاية بما أسماه "مقياس الوعي".. بدأ الأمر في السبعينات حينما قاموا بمجموعة من التجارب باستخدام أجهزة خاصة قاسوا خلالها الذبذبات الكهرومغناطيسيّة المحيطة بأجساد مليون شخص.

وجدتُ نفسي أُقاطعه رغمًا عنّي:

تقصد الهالة؟

رمقني وأكمل:

بالضبط، الهالة.. تلك الذبذبات يختلف تردّدها على حسب الحالة النفسيّة لصاحبها، فبالتجربة لاحظوا أنّ من يحمل مشاعر جيّدة تكون ذبذباته مرتفعة، والعكس صحيح.. وكانت النتيجة أن وضعوا مقياسًا لهذه الذبذبات وأسموه مقياس الوعي، يبدأ من صفر وينتهي بألف، وكلّ شيء في العالم حتّى الجمادات لها درجة معيّنة على هذا المقياس تُمثّل وعيها.. الجمادات والنباتات والحيوانات وحتّى الكائنات وحيدة الخليّة ينحصر وعيها حسب دراسات هاوكينز بين صفر وعشرين.. أما الإنسان فيبدأ وعيه من درجة عشرين.. الأمر يُشبه أوزاننا على ميزان الكيلوجرامات.. المعلومات التي سأذكرها الآن قد تبدو لكم مملّة وجامدة، لكن يجب أن أذكرها لأُوضّح لكم أبعاد هذا المقياس، ثمّ بعدها سأشرح لكم كيف سنستفيد منه وما هدفنا من كلّ هذا..

وجدتُ من حولي قد بدأوا في تدوين ما يقوله الدكتور، ففكّرتُ أن أحذو حذوهم، ثمّ لم ألبث أن تراجعتُ عن الفكرة.. أنا لم أقبل الانضمام إلى الجماعة بعد لأُسجّل الأفكار التي يعتمدون عليها.

أكمل دكتور (فريد):

وجد هاوكينز أنّ من وعيهم أقل من 200 يميلون إلى المشاعر المُدمِّرة، ويكونون أقرب للموت والمرض.. أما من فوق 200 فيميلون للمشاعر الطيّبة ويُقبلون على الحياة..

وبناءً على ذلك قسّم هاوكينز وعي البشريّة إلى هذين القسمين الكبيرين: ما تحت 200 وما فوقها.. يمكننا أن نقول إنّ من تحت الـ 200 هم ببساطة

Obeikan.com

سلبيّون، ومن فوقها إيجابيّون.. وبالمناسبة، الإيجابي هنا ليس ذلك المصطلح الشهير الذي يردّده مدربو التنمية البشريّة ليل نهار حتّى فقد معناه، وصار يرمز في الغالب إلى شخص مُبرمج يُجبِر نفسه على التفاؤل وترديد مقولات النجاح كالبغبغاء، هؤلاء في الغالب منخفضو الوعي، يخدعون أنفسهم والآخرين بهذا القناع الزائف.. لا يا حضرات، المقصود بالإيجابي هنا هو الشخص الحكيم الذي يؤمن بجدوى الحياة دون أن يخدع نفسه أو يعيش الوهم.

ثمّ قام هاوكينز بتقسيم هذين القسمين الكبيرين إلى عدّة مراحل.

أشار لمساعده فتغيّرت الشاشة لتُظهر جدولاً يحوي الكثير من التفاصيل.. عددتُ بسرعة صفوفه فوجدتُها سبعة عشر صفًّا، تبدأ من عشرين وتنتهي بألف..

- السلبيّون الذين قلنا إنّهم من 20 وحتّى 200، ينقسمون بدورهم إلى ثمانية أقسام؛ كلّ قسم يُمثّل الشعور الغالب على أصحابه وطريقة نظرتهم للحياة وتعاملهم مع الأمور.. الأمر يُشبه أنماط الشخصيات في علم النفس.. حدّد هاوكينز أنّ القسم الأوّل هو العار، ويبدأ من درجة 20، أما الذنب فيبدأ من 30، واللامبالاة من 50، الحزن من 75، الخوف من 100، الشهوة من 125، الغضب من 150، وأخيرًا التكبّر من 175.

أما مرحلة الإيجابيين، فتنقسم إلى تسعة أقسام: الشجاعة من 200، الحياد من 250، الاستعداد من 310، التسليم من 350، الحكمة من 400، الحبّ من 500، البهجة من 540، السلام من 700، وأخيرًا مرحلة

التنوير وهي من 700 إلى 1000.. لم يستطع هاوكينز أن يُقسّم هذه المرحلة إلى أقسام أقلّ لأنّه لم يلتقِ كثيرين من هذا القسم ليجري عليهم تجاربه، فهؤلاء نادرون للغاية، كما سأُوضّح لاحقًا..

وصف هاويكنز من يصل إلى المرحلة الأخيرة، مرحلة التنوير، بأنّه أفاتار.. أفاتار هي كلمة سنسكريتيّة، تعني في الفلسفة الهندوسيّة تجسّد الإله، أو أيّ تجسّد ماديّ للمعلِّمين الروحيين الذين غادروا الحياة، فمن وصل لتلك المرحلة يصبح –من وجهة نظر هاوكينز- كأنّه إله مُتجسّد على الأرض.. الآن تُدركون سرّ تسمية جماعتنا، الأفاتار هو الشخص الذي وصل إلى قمّة الوعي الإنساني، وهؤلاء يندرج تحتهم الأنبياء والأولياء والقدّيسون والمصلحون.. واستطاع هاوكينز ببعض الطرق التي قد أُوضّحها لاحقًا أن يُحدّد درجة وعي حتّى أولئك الذين لم يلتقِ بهم أو غادروا عالمنا.. فمثلاً غاندي كانت درجته 700، أما أينشتاين فهي 400.

ثمّ بدأ يشرح لنا هذه المراحل بالتفصيل، فمن يقعون في مرحلة العار مثلاً ينظرون إلى الحياة باعتبار أنّها مأساة كبيرة، لا يوجد بها سوى الكوارث والمصائب والمعاناة، ويشعرون أغلب الوقت باحتقار أنفسهم، ويميلون للانطوائيّة والانعزال.. إلى هذه المرحلة ينتمي المصابون بالذِهان والتصرّفات الشاذّة، كالقتلة المتسلسلين.

أما من في مرحلة الذنب فيرون الحياة كشرّ خالص، ويشعرون أغلب الوقت باللوم والتأنيب، ويحملون ميولاً انتحاريّة، وطريقة معالجتهم للأمور في الغالب تكون بالتدمير..

واستمرّ يشرح لنا تلك المراحل السلبيّة مع ذكر الكثير من التفاصيل التي لم أستطع أن أتذكّرها مع تلاحق معلوماتها وعدم تسجيلي لها.. ثمّ وصل إلى المرحلة الأخيرة: التكبّر، التي تقع في درجة 175.

- أصحاب هذه المرحلة واثقون من أنفسهم يُبالغون في تقدير ذاتهم، وينظرون إلى الآخرين نظرة ازدراء.. يُعرّفون أنفسهم من خلال إنجازاتهم وما يملكونه.. يسعون للسيطرة والتحكّم، ويتّخذون أغلب الوقت موقفًا دفاعيًا لأنّهم يشعرون أنّهم مُعرّضون للاعتداء من الآخرين.

الميزة الوحيدة في هذه المرحلة أنّ أصحابها يمكنهم أن يرتفعوا ليدخلوا إلى المرحلة الإيجابيّة، مرحلة الشجاعة، التي تبدأ من 200، وأصحابها يرون أنّ وجودهم ذو جدوى، ويعتبرون الحياة مليئة بالفرص التي يُمكن استغلالها.

رفعتُ يدي وسألتُه:

لكن يا دكتور، أحيانًا أجد في نفسي أغلب هذه الصفات، في بعض الأوقات أرى الدنيا مأساة كبيرة، وفي وقت آخر أجدها ممتعة، في بعض الأحيان أشعر أنّ الشرّ هو المسيطر على كلّ شيء، وفي أحيان أخرى أمتلك الحكمة الكافية لأرى التوازن في الأمور.. فكيف أعرف في أيّ مرحلة أنا؟

أجابني مبتسمًا:

ليس معنى هذا التقسيم أنّ كلّ واحدٍ منّا موجود في المرحلة الخاصة به ولا يُغادرها أبدًا، بالعكس، أنتَ في اليوم الواحد قد تكون في مرحلة العار ثمّ ترتفع إلى مرحلة الخوف، ثمّ تهبط إلى مرحلة اللامبالاة، وهكذا.. على

حسب ما تمرّ به من أحداث وظروف.. لكن تتبقّى مرحلة هي التي تظلّ فيها أغلب الوقت، هي المرحلة المسيطرة عليكَ.. هذه هي مرحلتكَ الأساسيّة.. وكلّ إنسان بإمكانه أن يُطوّر من مستوى وعيه ليصعد إلى مراحل أعلى، هناك كثيرٌ من السلبيين استطاعوا أن يصلوا مع الوقت إلى مرحلة الإيجابيين، وهناك من الإيجابيين من سقطوا إلى مرحلة السلبيين.. هدفنا في أفاتار أن نتعلّم كيف نرتفع بمستوى وعينا، ثمّ نرتفع بمستوى وعي من حولنا.

رفع أحد الزملاء يده وسأل:

حضرتكَ قلتَ إن الحبّ يبدأ من درجة 500.. هل يعني هذا أنّ من في مستويات الوعي الأقل لا يُمكنهم أن يُحبّوا؟

- الحبّ المقصود في هذه المرحلة هو الحبّ الحقيقي، الحبّ غير المشروط.. كلّ الناس يشعرون بالحبّ طوال الوقت، لكنّه في الغالب يكون حبًّا أنانيًا مشروطًا قد يتحوّل إلى كره في حالة أساء أحد الطرفين للآخر.

بعد انتهائه من شرح مستويات الوعي سمح لنا بنصف ساعة استراحة.. بدأنا نتحدّث مع بعضنا، ووجدنا أنّ التحفّظات بيننا قد زالت.. عرفتُ أنّ أحدهم موظّف في وزارة الماليّة والآخر مدرّس أمّا الثالث فكان ضابط شرطة.. عرّفتُهم بنفسي، وبدا أنّنا أدركنا مدى النفوذ والانتشار الذي تسعى إليه جماعة أفاتار.

بدأ دكتور (فريد) حديثه معنا بعد الاستراحة قائلاً:

لديّ لكم أخبار سيّئة وأخرى جيّدة.. لكن قبل ذلك دعوني أضع افتراضًا سأبني عليه ما سأقوله من الآن فصاعدًا، هذا الافتراض يدخل في باب الميتافيزيقا، بمعنى أنّه لا يوجد دليل علمي عليه، ولكم الحرّية في تصديقه أو رفضه، وإن كنتُ أنصح بأخذه بشكل متعادل..

نحن كبشر لدينا جانب غير مادّي يُمكننا أن نطلق عليه الطاقة الروحيّة أو النفسيّة، هذه الطاقة قد تكون هي أثر أرواحنا، وقد تكون شيئًا مختلفًا لا نعرفه، لكنّ المهم أنّها تُؤثّر فيما حولنا، بل إنّها تُؤثّر في كلّ الوجود.. هذه الطاقة تلتصق بالأماكن التي عشنا فيها، وهذا يُفسّر أنّنا نشعر بالراحة في بعض الأماكن وتنقبض نفوسنا من أخرى، ويُفسّر أيضًا ظاهرة الضوضاء التي تحدث في بعض البيوت، والتي يُفسّرها البعض بوجود الأشباح، في حين أنّها طاقة من تعرّضوا للعذاب أو القتل في تلك الأماكن.. هذه الطاقة قد تحوي معلومات عن كلّ ما مرّ بنا، وهناك من يمتلك القدرة على قراءة هذه المعلومات، وهؤلاء من يُقدّمون أنفسهم لنا باعتبار أنّهم عرّافون يُمكنهم معرفة ما مرّ بنا وتخمين ما سيحدث لنا.

نفس المعلومات سمعتُها منذ سنين عديدة من المُعلِّم الصيني حينما زرتُ المركز الثقافي الصيني.. أكمل دكتور (فريد):

ما يهمّنا هنا هو تأثير طاقاتنا علينا.. السلبيّون على مقياس الوعي، يحملون طاقة سيّئة مُدمِّرة، أما من هم فوق 200 فطاقاتهم نظيفة وجميلة..

الخبر السيّء أنّ 85% من البشريّة هم أقل من 200 على مقياس الوعي، على حسب كلام دكتور هاوكينز.. سلبيّون.. أما الإيجابيّون فهم 15% فقط من البشريّة.. ومن هم فوق 500 يُشكّلون فقط 0.4%.. أي إنّنا من بين الألف شخص سنجد أربعة فقط فوق الـ 500.. أما الأفاتار فلن نجد منهم في الجيل الواحد سوى عدد لا يتعدّى أصابع اليدين!

نعم يا حضرات، هذه حقيقة، أغلب البشر سلبيّون، وهو الأمر الذي نسعى هنا في أفاتار إلى تغييره..

المشكلة في الأمر كما قلتُ منذ قليل أنّ الطاقات السلبيّة تُؤثّر بشكل مُدمِّر في العالم، هؤلاء السلبيّون حتّى لو لم يفعلوا شيئًا، مجرّد وجود المشاعر السيّئة لديهم كفيل بتدمير ما حولهم.. في وجودهم تنشأ المشاكل، تقع الزلازل، تندلع الحروب.. يجلبون على أنفسهم ومن حولهم الويلات، الأماكن التي يعيشون فيها تُصبح أماكن بائسة.

الخبر الجيّد أنّ تأثير من هم فوق 200 هو أضعاف مضاعفة لتأثير السلبيّين.. قد تُذهلكم الأرقام التي وضعها دكتور هاوكينز، ولكم مطلق الحرّية في ألّا تصدّقوها، لكنّني شخصيًّا أُصدّقها.. يقول دكتور هاوكينز إنّ طاقة شخص واحد فوق 300 تُعادل طاقة مائة ألف شخص طاقتهم تحت 200!

نعم، الرقم كما سمعتموه، والأرقام القادمة ستكون أكثر إذهالاً: تأثير طاقة شخص فوق 400 تُعادل طاقة نصف مليون شخص طاقتهم تحت 200.. تأثير طاقة شخص فوق 600 تُعادل طاقة عشرة ملايين شخص

طاقتهم تحت 200، أما الأفاتار.. فشخص واحد طاقته تُعادل سبعين مليون شخص طاقتهم تحت 200!

وهذا يُفسّر لكم لماذا لم يتدمّر العالم بعد بسبب كلّ تلك الطاقات السلبيّة.. من فضل الله علينا أنّ الطاقة الإيجابيّة الواحدة تُعادل أضعاف أضعاف الطاقة السلبيّة.. كلّ ما نراه من حروب ودمار حولنا جاء بسبب الطاقات السلبيّة، وكان من الممكن أن يكون أضعافًا مضاعفة لولا وجود الطاقات الإيجابيّة التي تُعادلها.. تخيّلوا ماذا سيصبح عليه العالم لو نجحت أفاتار في أهدافها وارتفع وعي المزيد من الناس ليُصبح لدينا عدد أكبر من الإيجابيّين، ماذا سيحدث لو نجحنا في الوصول ببعضكم إلى درجة الأفاتار!

إذا انضممتَ إلى أفاتار فلن يكون مطلوبًا منكَ بذل أيّ جهد أكثر من الارتقاء بوعيكَ، وسنوفّر لكَ الوسائل الملائمة لذلك.. خطّتنا الحالية في أفاتار هي توفير مائة ألف شخص إيجابي، ومن هؤلاء المائة ألف يرتفع مائة فقط ليصبحوا فوق الـ 500، ومن هؤلاء نحتاج إلى أفاتار واحد.. أفاتار واحد طاقته ستكفي لتنظيف كلّ الطاقات السلبيّة التي تُحيط بمصرنا الحبيبة.. وحينما تُصبح مصر كما نتمنى لها يُمكننا بعدها الانطلاق إلى بقيّة العالم.

ثمّ ختم محاضرته الطويلة قائلاً:

عدد أعضائنا في أفاتار وصل حتّى الآن إلى عشرة آلاف عضو، الطريق مازال أمامنا طويلاً لنصل إلى المائة ألف، لكنّنا نأمل أن نفعل خلال العشر سنوات القادمة.

في نفس المساء اتّصلتُ بزوج خالتي عقيد أمن الدولة وسألتُه عن تلك الجماعة وإن كانت لها أهداف مشبوهة.. اتّصل بي بعد ساعة وأخبرني أنّ أفاتار تعمل تحت علم الأجهزة الأمنيّة وتخضع لتفتيش وزارة الشؤون الاجتماعيّة، وأغلب مؤسّسيها معروفون وموثوق فيهم، فاطمأنّت نفسي واتّصلتُ بـ(إبراهيم) وأعلمتُه أنّني مستعد للانضمام إليهم.

لم آخذ أغلب ما قاله لنا دكتور (فريد) من أرقام وتقسيمات على محمل الجدّ، لكنّني اعتبرتُهم في النهاية مجموعة من الأشخاص ذوي النفوذ يُحاولون أن يُحدثوا تغييرًا ما، وهذا شيء جيّد، ووجودي معهم قد يجلب لي الكثير من المنافع.

خاب ظنّي حينما لم أجد أيّ طقوس خاصة لعملية انضمامي.. فقد ذهبتُ في اليوم التالي إلى مكتب (فهمي ناظم) مع (إبراهيم)، وأخرج الأوّل من درج مكتبه مصحفًا قديمًا وضعه أمامي وطلب منّي أن أُقسم عليه بأن أظلّ مخلصًا لأهداف الجماعة وأسعى قدر استطاعتي للارتقاء بوعي المجتمع، ففعلتُ بلا تردّد.

قال لي (إبراهيم) بعدها بنظرة مرحة:

رواياتكَ الجديدة ستكون مع أماندا!

رمقتُهما وأنا لا أستطيع النطق، فقال لي (فهمي) مبتسمًا:

سنضعكَ في أماندا، في البداية ستنشر معها بتوصية من (إبراهيم)، ثمّ بعد فترة –وبتوصية أخرى من (إبراهيم) وبعض الجهد منك– سنُقنع (كمال الألفي) مدير عام أماندا بتعيينكَ مديرًا للنشر في الدار.. وحينها ستكون مهمّتكَ الوحيدة السماح بنشر الروايات التي تحمل الفكر التنويري الذي نسعى لنشره بين الناس، بالإضافة إلى رواياتكَ التي ستحمل نفس الفكر.

وحينما غادرتُ مكتب (فهمي ناظم) كنتُ أشعر أنّني ملكتُ الدنيا، بضربة واحدة سأنشر مع أماندا وسأُصبح المتحكّم فيما تنشره.. وتذكّرتُ آخر ما قاله لنا دكتور (فريد) وهو يُنهي محاضرته الطويلة التي استمرّت ست ساعات:

أفاتار منظمة غير ربحيّة تسعى لصالح المجتمع وأُنشئت منذ عقد واحد مع بداية الألفيّة الجديدة.. أنشأها مع الأستاذ (فهمي ناظم) شخص يُدعى (عزيز الرحماني)، لكنّه اختفى تمامًا بعد فترة ولم يعرف أحد إن كان حيًّا أم ميّتًا.

كانت هذه أوّل مرّة أسمع فيها اسمكَ يا (عزيز).

obeikan.com

رمقني (كريم) بقلق:

تبدو غير مقتنع بالفكرة يا (نادر)!

أفقتُ من شرودي ورددتُ عليه بحماس:

بالعكس، فكرة السيطرة التدريجيّة على سوق النشر تبدو لي فكرة ممتازة، فقط لو استطعنا أن نُنفّذها بالشكل الصحيح.

رمقوني جميعًا متسائلين، فأكملتُ بمرح:

لحسن الحظ أنّكم اخترتموني معكم في هذا المشروع الذي أتمنى ألا ينتهي بنا جميعًا في المعتقل، فالعبد لله خبير قديم في السيطرة على المؤسّسات! دعوني أصارحكم أنّ الفكرة تبدو ساذجة وطفوليّة إلا لو –أُكرّر- نفّذناها بطريقة سليمة.. أوّلاً يجب أن يكون هناك رئيس نأتمر بأمره، لأنّ المركب التي بها خمسة رؤساء ستغرق لا محالة.. ثانيًا نحتاج لتجميع أفكارنا، أقترح عمل "جروب" سري على "الفيس بوك" ليس به أعضاء سوانا، نجتمع فيه ونتناقش ونحدّد الأشياء التالية: ما أهدافنا؟ ما القوانين التي ستحكم عملنا السرّي؟ ما خطوتنا الأولى؟ وأشياء من هذا القبيل.

قال (مصطفى) بنبرة تمثيليّة:

obeikan.com

بدأتُ أخشاكَ يا (نادر)!

وقال (كريم):

المفروض أنّنا اجتمعنا اليوم لنحدّد كلّ هذه الأمور، لكن لا بأس بما تقول.

قلتُ له مستهجنًا:

لا تكن سخيفًا! هل سنضع قوانين الكيان الذي نُزمع إنشاءه في جلسة واحدة؟ نحن بحاجة إلى جلسات عصف ذهني يكتب خلالها كلّ واحد منّا كلّ ما يخطر على باله، كيف نرى أنفسنا الآن وماذا نتوقّع أن نكون بعد خمس سنوات، وهكذا.

فوجئتُ بـ(ريهام) تسألني:

وما طبيعة تلك القوانين التي يجب أن نضعها؟

أجبتُها واضعًا في صوتي ونظرات عينيّ كلّ ما استطعتُه من الثقة بالنفس:

مثلاً ما الشروط الواجب توافرها في العضو الجديد الذي سنضمّه معنا؟ كيف ستكون آلية اتّخاذ القرار ومَن مِن حقه التصويت؟ ما الدرجات التي سيترقى من خلالها العضو العادي حتّى يصبح عضوًا عاملاً أو من قادة هذا الكيان؟ لابدّ أن تكون هناك درجات ورتب معيّنة، لأنّنا لن نثق في أيّ أحد ونطلعه على أسرارنا وخططنا ما إن ينضمّ إلينا!

غمغم (صلاح) بتردّد:

obeikan.com

أنتَ تُعقّد الأمر الآن يا (نادر)، ليس بالضرورة أن نكون جماعة سرّية حقيقيّة كالماسونيّة لنستطيع تحقيق أهدافنا النبيلة!

أسرعتُ أقول لأئد تمرّده قبل أن يبدأ:

بالطبع الأمر ليس بهذا التعقيد، ولكنّ الأمور النظريّة دائمًا ما تبدو حشوًا لا طائل من ورائه، لكن لا تُنكر أنّنا بحاجة لوضع الكثير من النقاط على الحروف، وهذا لن يتمّ سوى من خلال لائحة عمل داخليّة.. هذا ما أقصده بقوانيننا.

بدا عليهم التردّد، فأسرعتُ أقول قبل أن يُفيقوا:

والآن نأتي لأهمّ نقطة: من سيكون رئيس كياننا الجديد؟

رمقوا بعضهم بينما أرمقهم بنظرة واثقة.. هيّا، الأمر لا يحتاج لكثير من التفكير، فليقلها أحدكم!

قال (كريم):

أعتقد أنكَ أكثرنا خبرة وعلاقات في المجال بسبب منصبكَ ومكانتكَ ككاتب.

فوجئتُ بـ(ريهام) تقول بعده:

أوافق على هذا الأمر.

يبدو أنّني أخطأتُ الحكم على هذه الفتاة، ليست سيّئة كما ظننتُ.. ربما أنا من كنتُ عدوانيًا من البداية حينما تبرّعتُ بمهاجمة التدوين

Obeikan.com

فاضطُرت لمهاجمتي.. سأُرسل لها رسالة اعتذار عند عودتي لتُدرك كم أنّني "جنتلمان"!

وافق (مصطفى) و(صلاح) بدورهما، فأصبحتُ رئيس هذا الكيان كما كان متوقّعًا.. لكنّ (كريم) أسرع يقول:

أعتقد أنّ الأفضل أن تكون الرئاسة دوريّة، كلّ ستة شهور مثلاً ننتخب رئيسًا جديدًا تكون مهامه في الأساس تنظيميّة.

قلتُ له بسرعة:

أكيد أكيد.. سنناقش هذا الأمر في وقته.. الآن بصفتي رئيس هذا الكيان سأبدأ قراراتي بتكليف (صلاح) بعمل "جروب" سرّي على "الفيس بوك" يقوم بإضافتنا جميعًا إليه، أما (مصطفى) فعليه أن يكتب في "الجروب" الخطوط العريضة لما اتّفقنا عليه الليلة، والأمور العالقة التي تحتاج أن نحدّدها، كوضع اللائحة الداخليّة مثلاً.

سأل (مصطفى) بحيرة:

لكن ماذا سنُطلق على هذا الكيان؟

- حاليًا لا داعٍ لإطلاق أيّ مسمّيات، فلنسمّه "الكيان" فقط.

انتهى اللقاء، تصافحنا وغادرنا المكتبة.. أخذتُ (صلاح) في طريقي لأُعيده من حيث التقطتُه، وأنا أُفكّر في تلك الفكرة التي أثاروها في ذهني.. السيطرة على سوق النشر.. لطالما اعتبرتُ نفسي أحد المتحكّمين الرئيسيين فيه، تحديدي للأعمال التي تنشرها أماندا جعلني أتحكّم إلى

حدٍ بعيد في نوعية الروايات التي تظهر في الأسواق.. لكنّني لم أُفكّر من قبل في السيطرة الكاملة.. أن يكون هناك كيان كامل أعضاؤه هم أهمّ الشخصيات في مجال النشر، وأنا أرأسهم وأُحدّد لهم سياساتهم.. حلم لم يخطر على بالي من قبل..

حاول (صلاح) أن يناقشني في لقاء الليلة وما أُثير فيه لكنّني صارحتُه بأنّني أشعر بصداع ولا أستطيع الكلام الآن، فاكتفى بالاستماع إلى أمّ كلثوم وتركني لأفكاري.. أنزلتُه في أوّل عبّاس، وذكّرتُه بعمل "الجروب" الذي اتّفقنا عليه، ثمّ تركتُه وقفلتُ عائدًا إلى المقطّم.. وما إن تأكّدتُ من ابتعادي حتّى نزعتُ أسطوانة أمّ كلثوم من مشغل الأسطوانات ووضعتُ مكانها أسطوانة مصطفى قمر:

وف يوم حزين.. العم نوح

اللي الجروح.. ملياه جروح

راح ف المسا

وبكيت بكيت.. لما التقيت

زينة البنات.. وسط الزنات

وأنا باتنسى

ولقتني لوحدي راجع.. بالحلم وبالمواجع

أحبي في حجر الشوارع.. اللي ضمّت خطونا

ما إن دخلتُ من باب المنزل حتّى أضأتُ أنوار الصالة وغرفة النوم والمطبخ والحمّام، أشعر بالراحة أكثر هكذا.. وقبل أن أُبدّل ملابسي فتحتُ "اللاب توب" ودخلتُ على "الفيس بوك"، كالعادة هناك ما يزيد عن مائة إشعار جديد، أغلبها لأشخاص يضعون "تاج" لاسمي في "بوستات" خاصة بهم، إما أشعار رديئة أو محاولات لكتابة القصّة القصيرة، بحثتُ بين الإشعارات بسرعة حتّى وجدتُ إشعارًا بأنّ (صلاح) أضافني إلى "الجروب" السرّي "الكيان".. دخلتُ "الجروب" فوجدتُ (صلاح) قد وضع "بوست" يقول فيه: "مرحبًا بكم يا رفاق في جروبنا الجديد".

أرسلتُ له بسرعة رسالة خاصة:

"(صلاح).. اجعلني "أدمن" في الجروب".

فوصلني إشعار أنّني قد صرتُ مسئولاً في "جروب" "الكيان".. استخدمتُ صلاحياتي لأحذف "بوست" (صلاح)، ثمّ كتبتُ "بوست" أقول فيه:

"شكرًا لـ(صلاح) على افتتاح "الجروب" كما اتّفقنا، بصفتي رئيس الكيان فإنّني أُرحّب بكم وأتمنى لكم رحلة سعيدة معنا".. ووضعتُ وجهًا ضاحكًا ثمّ نشرتُ "البوست"..

(صلاح) لن يلحظ ولن يعترض.

دخلتُ إلى قائمة الأعضاء فوجدتُ "أكاونت" (ريهام).. بالتأكيد (صلاح) أخذه من (كريم) عبر رسالة خاصة.. أرسلتُ لها طلب إضافة، وبعثتُ لها برسالة:

"مرحبًا (ريهام) :)

أعتذر لو كنتُ عدوانيًا على غير عادتي الليلة..

سعدتُ فعلاً بلقائكِ، وأشكر (كريم) أن عرّفني بكِ :)"

ثمّ خرجتُ من "الفيس بوك" ودخلتُ على "الجودريدز"، فتحتُ صفحة "سادة وعبيد".. تقييمها انخفض إلى 3.8 من 5!

الأوغاد الذين لا يفهمون في الأدب!

بحثتُ بسرعة بين "الريفيوهات" الحديثة فوجدتُ "ريفيو" يقول صاحبه:

"شعرتُ بالملل في أجزاء عديدة لأنّ الكاتب كان يستطرد كثيرًا في أحداث جانبيّة لا علاقة لها بالخط الرئيسي للرواية.. تستحق نجمتين فقط من خمس".

الحمدلله أنّه ليس أمامي وإلا ضربتُ رأسه في الحائط مرّتين!

كتبتُ بسرعة تعليقًا على كلامه، محاولاً قدر الإمكان ألا أتجاوز في ألفاظي: "أحمد الله أنّ لجنة البوكر لم تشعر مثلكَ بالملل وإلا لما وصلت روايتي إلى القائمة الطويلة.. أتدري لماذا؟ لأنّ لجنة البوكر تفهم فعلاً في الأدب!

يمكنكَ يا سيّدي الفاضل أن تقرأ روايات أرسين لوبين كي لا تشعر بالملل.. ولا تقرأ لي مرّة أخرى مادمتَ تراني مملاً هكذا!!"

وأرسلتُ التعليق.. لو أطلقتُ العنان لنفسي لقلتُ له ببساطة أن يذهب إلى الجحيم! أكتب الرواية في شهور طويلة ليقرأها هو في يوم أو اثنين ثمّ يأتي ليتفذلكَ ويقول إنّه شعر بالملل!

عدتُ إلى "الفيس بوك" فوجدتُ بين الإشعارات واحدًا يُخبرني أنّ (ريهام) قبلت طلب الصداقة، لكنّها لم تُرسل ردًّا على رسالتي.

فتحتُ رسالتي لها، فوجدتُ عبارة من "الفيس بوك" تُفيد أنّها قرأتها منذ دقيقة.. سيصلني ردّها في أيّ لحظة إذن..

بدّلتُ ملابسي ودخلتُ الحمّام ثمّ عدتُ لأقرأ ردّها، فوجدتُها لم ترسل لي شيئًا بعد!

دخلتُ صفحتها فوجدتُها وضعت "ستيتوس" جديدة منذ خمس دقائق:

"زهرة بريّة تبحث عمّن يُقربّها من وجهه.. فلا تجد!"

وهناك 12 "لايك"، يبدو أنّ هناك من يتابع تلك الخواطر الكئيبة!

شعرتُ بالغيظ الشديد.. فتحتْ رسالتي وقرأتْها، ووجدتْ الوقت لتكتب "ستيتوس" جديدة، ومع ذلك تجاهلتْ الردّ عليّ.. من تظنّ نفسها؟!

شعرتُ أنّني أسأتُ لنفسي، ما كان لي أن أُرسل لتلك المتكبّرة شيئًا، كلّ ما فعلتْه معي الليلة كان يدلّ على تعاليها وقلّة ذوقها!

تمدّدتُ على فراشي ومعي مجلد سوبر ميكي سنة 1989، وأخذتُ أقرأ فيه حتّى يأتيني النعاس.. أغلب القصص قرأتُها مرارًا وتكرارًا من قبل، لكنّني في كلّ مرّة أشعر بنفس شعور القراءة الأولى حينما كان عمري تسع سنوات.

بعد فترة غفوتُ، ثمّ انتبهتُ فجأة فنهضتُ من فراشي وأسرعتُ إلى "اللاب توب" الذي مازال مفتوحًا.. فتحتُ صفحة "الفيس بوك" فوجدتُ رسالة من (رِهام).. كانت من كلمة واحدة: "(رِهام)!"

كتبتُ بسرعة وأنا أُغالب النعاس:

"ماذا تقصدين؟!"

وأخذتُ أرمق الشاشة عدّة ثوانٍ، ثمّ أدركتُ أنّها لن تردّ الآن بالتأكيد، فأغلقتُ الجهاز وعدتُ إلى فراشي..

كانت هذه هي أحداث الليلة التي التقيتُ فيها (رِهام) للمرّة الأولى يا (عزيز).. (رِهام)، سرّ عذابي وبداية نهايتي..

oreikan.com

مرّ بي خلقٌ كثيرون بينما أُحاول الركض.. كانت تبدو على وجوههم الطيبة والبشاشة.. أشرتُ لهم وحاولتُ طلب مساعدتهم لكن لم يخرج من فمي صوت، ولم يبدُ عليهم أنّهم رأوني.. مرّوا بي كأنّني لا شيء، بينما تابع المطاردون اللحاق بي، وصوت الرجل المتّشح بالظلال يصلني:

لن تُفلتَ منّا!

وحينما وصل أوّلهم إليّ انتفضتُ منتصبًا في فراشي وأنا ألهث.. أخذتُ نفسًا عميقًا، لو استمرّ الكابوس ثانية أخرى لتوقّف قلبي..

كانت الساعة تُشير للثامنة صباحًا، وضوء الشمس يتسلّل من خصاص النافذة، فأطفأتُ أنوار الغرفة، وانطلقتُ مترنّحًا نحو "اللاب توب" في مكانه على الطاولة الصغيرة بغرفة المعيشة.. فتحتُ صفحة "الفيس بوك" متلهّفًا، وتجاهلتُ كلّ الإشعارات واتجهتُ إلى الرسائل.. من بين سبع عشرة رسالة وصلتني البارحة لم أرَ إلا رسالة (رِهام) المُتلوّنة باللون الرمادي دلالة أنّ هناك جديدًا.. فتحتُها بسرعة لأجدها تقول:

"(رِهام).. اسمي (رِهام) وليس (ريهام)!"

هذا فقط! الهانم بدلاً من أن تشكرني على رسالتي الرقيقة تُحاول أن تُعلّمني طريقتها الخاصة في كتابة اسمها! هذا كلّ ما لفتَ انتباهها في

رسالتي! أعرف أنّ كثيرًا من الفتيات مهووسات بعض الشيء، وردود أفعالهنّ تجاه الأمور غريبة، لكن ليس لهذه الدرجة!

كانت قد فتحت الرسالة بعد إغلاقي "للفيس بوك" أمس ببضع دقائق، وردّت عليها بعدها بربع ساعة.. لو كنتُ صبرتُ قليلاً لأمكنني أن أردّ عليها قبل نومي..

كتبتُ لها:

"هل هذه كلّ المشكلة؟" ووضعتُ وجهًا ممتعضًا..

"الاسم كما أعرفه هو (رِيهام) وليس (رِهام).. عمومًا لو تُحبّين كتابته هكذا فلا مشكلة.. لم أقصد أيّ إهانة يا سمّو البرنسيس!"

وأرسلتُ الرسالة.. تصفّحتُ "الفيس بوك" قليلاً منتظرًا لعلّها تُرسل ردًّا سريعًا كما فعلت بالأمس بعد رحيلي، لكنّها لم تفعل..

بعد أن تردّ عليّ سأُوقف أيّ تعامل بيننا وسأتجاهلها تمامًا.. أحتاج فقط إلى نهاية.. closure، أن تُظهر لي بعض الاحترام لتشفي غليلي منها، ثمّ أنسى كلّ شيء عنها!

وصلتُ مقرّ الدار في التاسعة والنصف، وعندما أوقفتُ سيّارتي في المكان الذي اعتدتُ صفّها فيه اختلستُ بضع ثوانٍ فتحتُ خلالها صفحتي على "الفيس بوك" من "موبايلي" الـ Samsung، فلم أجد ردًّا منها..

غادرتُ السيّارة صاعدًا إلى مقرّ الدار.. أنتَ لم تزرني من قبل يا (عزيز) في مكتبي بدار أماندا.. يحتلّ مقرّ الدّار شقتين متجاورتين في عمارة فخمة

obeikan.com

بالمعادي، إدارة النشر التي أرأسها تحتلّ غرفتين، إحداهما هي مكتبي الخاص، والأخرى يتواجد فيها الموظّفون الذي يعملون معي؛ (جمال) المدقّق اللغوي و(عمر) المنسّق الداخلي و(عاطف) مساعدي، بينما يستقرّ مكتب (مها) سكرتيرتي في الطرقة أمام الغرفتين.. (عاطف) يقوم بتلقّي الأعمال التي تصل إلى إيميل إدارة النشر على موقع الدار على الإنترنت، يقوم بتصنيفها وترتيبها والتأكّد من حصولنا على بيانات أصحابها، ويردّ على الاستفسارات والتساؤلات، ثمّ يقوم بفرز الأعمال فرزًا أوّليًا ويُحدّد حسب معايير خاصة درّبتُه عليها ما الأعمال الصالحة للنشر لدينا، ويُقدّم لي بمساعدة (مها) تقارير مفصلّة عن تلك الأعمال.. وبناء على هذه التقارير أُحدّد الأعمال التي سأقرأها، وأُقرّر إن كنتُ سأوافق عليها أم سأرفضها، ثمّ أرفع تقريري لـ(كمال الألفي) مدير الدار، والذي يأخذ بدوره رأي (إبراهيم طه) مدير التوزيع إن كانت هذه الأعمال يُمكن تسويقها أم لا، ثمّ يجتمع ثلاثتنا آخر كلّ شهر لنُقرّر الأعمال التي سنقوم بنشرها من بين تلك التي وافقتُ عليها، ويرسل (عاطف) لأصحابها يخبرهم بأنّه تمّت الموافقة على أعمالهم ويطلب حضورهم إلى مقرّ الدّار.. وحينما يحضرون أجلس معهم لأُخبرهم بملاحظاتي بخصوص العمل، وإن كنتُ أرغب في إدخال أيّ تغييرات أو تعديلات فنّية عليه، وأترك لهم وقتًا ليقوموا بإنجازها قبل أن يُرسلوا لـ(عاطف) ملف العمل النهائي، فيقوم هذا الأخير بإرساله إلى جمال ليُراجعه لغويًّا، ثمّ يقوم عمر بعمل التصميم الداخلي للكتاب، وبالتوازي مع كلّ هذا نُرسل مُلخّصًا للعمل إلى المصمّم الذي نختاره لعمل غلاف الكتاب.. ويختلف المصمّم

على حسب نوعيّة العمل وفكرته.. لكنّنا عادة لا نتعامل سوى مع ثلاثة أو أربعة مصمّمين..

بعد انتهاء تدقيق الكتاب وتصميمه وعمل الغلاف له، تنتهي هنا مهمّة إدارة النشر، ونُسلّم الكتاب لإدارة الطباعة ليبدأوا في التواصل مع المطبعة التي نتعامل معها لطباعته.. هذا هو عملي في الدّار باختصار يا (عزيز).

وفي ذلك اليوم كان نهاري حافلاً، ما إن دخلتُ من باب المقرّ وألقيتُ التحيّة على عم سعد عامل البوفيه، حتّى أسرعت (مها) نحوي وأنا أفتح باب غرفتي لتقول لي:

لدينا اليوم عدّة لقاءات يا أستاذ (نادر).. هناك كاتب شاب ينتظر حضوركَ.

سألتُها من هو فأجابتني:

الأستاذ (محمد عبد الحميد) مؤلّف رواية "زمن الرهائن".

أشرتُ لها أن تُرسله لي، وأنا أجلس على مكتبي وأُخرج "اللاب توب" من الحقيبة وأوصله بكابل الإنترنت.

سمعتُ طرقتين على الباب فطلبتُ من صاحبها أن يتفضّل.. كان (محمد عبد الحميد) شابًا هادئ الملامح ضئيل الحجم يرتدي نظّارة.. اقترب منّي بتردّد وهو يُلقي التحيّة، لابدّ أنّ رائحة عطري الصباحي قد لفتت انتباه أنفه أوّلاً، قبل أن تتسمّر عيناه على بذلتي الـ Versace التي اخترتُ

ارتداءها اليوم.. نهضتُ عن مقعدي راسمًا على وجهي ابتسامتي الودود مرحّبًا به، ودعوتُه للجلوس أمامي وأنا أختلس النظر لشاشة "اللاب توب" منتظرًا انتهاء تحميل نظام التشغيل.

- لا يمكنكَ تخيّل مدى سعادتي بلقائكَ يا أستاذ (نادر)، أنا من أشدّ المعجبين بكتابات حضرتكَ، وقد أرسلتُ لكَ عدّة مرّات على "الفيس بوك" في كلّ مرّة كنتُ أنتهي فيها من قراءة إحدى رواياتكَ لأُخبركَ برأيي فيها، لكنّكَ لم تكن تردّ عليّ.

قلتُ له مبتسمًا:

اعذرني، لا أجد وقتًا للكتابة على "الفيس بوك" إلا للضرورة القصوى.. لكنّني شاكرٌ لكَ على رأيكَ في رواياتي.

ومددتُ يدي نحو الملف الموضوع على مكتبي والذي يحوي ملاحظاتي وملاحظات (عاطف) على تلك الرواية، لأُنعش ذاكرتي بها قبل حديثي مع الفتى، لكنّني وجدتُ أنّ "اللاب توب" قد انتهى من تحميل نظام التشغيل، فقرّرتُ اختلاس نظرة سريعة إلى "الفيس بوك"، سأُوجّه الضربة النهائيّة لـ(رِهام).. سأقرأ ردّها وأعتبر المحادثة منتهية ولن أردّ عليها، ستظلّ تنتظر ردّي بلا جدوى.. ستكون لي الكلمة الأخيرة..

كالعادة، لم تردّ.. فتحتْ رسالتي منذ عدّة دقائق وقرأتها ولم تردّ.. دخلتُ صفحتها فوجدتُها لم تكتب شيئًا هناك.. زفرتُ بحنق!

في السنين الأخيرة اعتدتُ على أنّ كلّ من أُرسل لهم رسالة يحتفون بي وبكلماتي، حتّى لو كان كلامي لا يحوي ما يستحقّ الردّ عليه، يُرسلون أيّ

عبارة شكر أو تقدير لأنّني تذكّرتُهم أو أخذتُ من وقتي وكتبتُ لهم، ويهتمّون بألا يتركوا كلمة أكتبها بلا ردّ.. أحيانًا يكون ردّي على رسائلهم هو: جميل جدًا.. فلا يجدون شيئًا ليردّوا به على هذه العبارة، فيكتفون بإرسال وجه مبتسم يختم المحادثة، وكأنّهم يقولون لي: نحن ممتنّون لكَ أنّكَ تكلّمتَ معنا.

حتّى لو لم تجد ردًّا، حتّى لو افترضت أنّ هذه هي نهاية المحادثة، على الأقل فلتُرسل ذوقيًّا وجهًا مبتسمًا أو ضاحكًا لأفهم أنّها قرأت كلامي ولا تجد ردًّا عليه!

لو كانت هذه الفتاة أمامي الآن لضربتُ رأسها في الحائط حتّى تنكسر جمجمتها ويتلطّخ شعرها الأحمر الذي لا أعرف ما لونه الحقيقي بالدماء!

انتبهتُ على صوت (عبد الحميد) وهو يقول لي:

لماذا لا تردّ عليّ يا أستاذ (نادر)؟

رمقتُه بحيرة وسألتُه:

معذرة، لم أنتبه لكلامكَ!

- كنتُ أقول لكَ إنّني أتيتُ لأناقشكَ في العرض الذي تُقدّمه لي داركم الموقّرة.. كما أخبرتكم قبلاً فقد حصلتُ على عرض للنشر من دار الحكمة.. وإن سمحتَ لي بالقول؛ فعرضهم يبدو لي أفضل من عرضكم.

رمقتُه لوهلة غير فاهم، ثمّ فتحتُ بسرعة الملف الموضوع أمامي.. بالفعل كان (عاطف) قد ترك لي ملاحظة يُخبرني فيها أنّ العمل أكثر من ممتاز

وأنّ من مصلحتنا نشره معنا، وهناك ملاحظة منّي تقول إنّ العمل من النوع التشويقي المكتوب بإتقان شديد ولا يجب أن نُفلتَه من أيدينا.. ثمّ ملاحظة أخيرة تقول إنّ الكاتب لديه عرض من دار نشر أخرى وسيحضر لمقرّ الدّار لأُناقشه في هذا وأُقنعه بالنشر معنا.

اللعنة على (رِهام) ورسائلها، أضاعت منّي عامل المفاجأة!

رسمتُ على وجهي ابتسامة دافئة وقلتُ له:

اسمع يا محمد.. أنتَ تُذكّرني بنفسي، وما يهمّني الآن هو مصلحتكَ.. انسَ تمامًا أنّني مدير النشر في أماندا. لو كانت مصلحتكَ مع دار الحكمة فسأكون أنا أوّل من ينصحكَ بالذهاب إليها.

وجدتُه يبتسم في راحة ويقول:

هذا ما أتوقعه من كاتب "سادة وعبيد". أنا أعتبركَ كأخي الأكبر يا أستاذ (نادر) وأثق تمامًا أنكَ أحرص على مصلحتي منّي.. دار الحكمة عرضوا عليّ أن أدفع نصف تكاليف الطباعة، وهي خمسة آلاف جنيه، وسيعطونني نسبة 25% من الأرباح، بينما أنتم تعرضون عليّ طباعة الكتاب على حسابكم ونسبة 10% فقط.. إن سمحتَ لي، أنا أرى عرض دار الحكمة مشوّقًا أكثر لأنّني سأكون شريكًا في الكتاب.

هززتُ رأسي واضعًا على وجهي قناع المحايدة وأنا أقول:

للأسف عرضهم يبدو لي مُخادعًا.. أوّلاً هم يعرضون عليكَ نسبة 25% من الأرباح بينما نحن نعرض عليكَ 10% من سعر الغلاف.. أتدري ما الفرق؟

لو سيُباع الكتاب بأربعين جنيهًا، فمعنا ستحصل في النسخة الواحدة على أربعة جنيهات.. أما هم فسيحاسبونكَ على أساس الأرباح، أي بعد خصم قيمة كلّ التكاليف.. 10 جنيهات قيمة تكاليف الطباعة، و16 جنيهًا نسبة الـ 40% الخاصة بالتوزيع والتي تحصل عليها المكتبات، ولنقل جنيهين قيمة الانتقالات والنثريات، إذن سيخصمون 28 جنيهًا، فيتبقى 12 جنيهًا هي الأرباح الصافية.. ستأخذ أنتَ منها 25%، أي ثلاثة جنيهات! أقلّ مما ستحصل عليه معنا، مع فرق أنكَ كذلك ستدفع لهم خمسة آلاف جنيه، بينما نحن لن نُكلّفكَ ملّيمًا واحدًا!

تابعتُ باستمتاع تغيّر ملامح وجهه أثناء شرحي له، وفي النهاية قال بارتباك:

أنا.. أنا لم أحسبها هكذا!

وضعتُ قناع الحزم على وجهي وأنا أقول بسرعة:

بالطبع لم تحسبها هكذا، لأنّكَ قارنتَ فقط بين رقمي 25% و10%، لكنّكَ يا صديقي أهملتَ عاملاً مهمًّا ما كان لكَ أن تتجاهله.. أنكَ لا يمكنكَ أن تُفكّر مرتين أو تُقارن بين أماندا والحكمة. أماندا دار تنشر لكبار الكتّاب، وتوزيعها يشمل كلّ مكان في الجمهوريّة، وكلّ منطقة في الوطن العربي، مجرّد اسمها علامة جودة تكفل توزيع كتابكَ حتّى لو لم يكن أحد يعرف اسمكَ.. أمّا الحكمة فهي دار أقلّ من متوسطة لم يسمع كثيرون عنها، وتوزيعها يشمل أماكن محدّدة داخل القاهرة بالإضافة لعدّة محافظات،

وبعد عدّة شهور لن تجد كتابكَ في أيّ مكان.. لا أعرف كيف تُفكّر يا صاحبي الطيّب وكيف تحكم على الأمور!

ارتبكَ أكثر وأسرع يُغمغم:

أنا مازلتُ جديدًا في الوسط ولا أعرف كثيرًا من...

قاطعتُه لأُجهز عليه بضربة أخيرة:

بصراحة، لقد غضب الأستاذ (كمال الألفي) كثيرًا حينما عرف أنّكَ تُفاضل بيننا وبين دار الحكمة وقرّر ألا ننشر روايتكَ، ولكنّني أصررتُ على نشرها وأخبرتُه أنكَ مازلتَ في مقتبل حياتكَ وتفتقد للخبرة الكافية.. لكنّه مُصرّ على...

كان وجهه قد شحب وأصبح يبتلع ريقه بصعوبة، فهززتُ رأسي بأسف وقلتُ له:

أنا مؤمن بموهبتكَ، وسأبذل جهدي لترى كتاباتكَ النور، ويهمّني جدًّا أن تكون معنا في أماندا.. لكن فلتُساعدني أنتَ أيضًا!

أسرع يقول:

أنا مُستعدّ لكلّ شيء يا أستاذ (نادر)، وموافق على كلّ ما تقوله!

لمحتُ بطرف عيني إشعارًا برسالة جديدة من (رِهام)، فأسرعتُ أقول له:

إذن فلتنسَ موضوع دار الحكمة هذا ولتُرسل اعتذارًا لهم، واترك لي مهمّة إقناع (كمال الألفي).. ولا تنسَ أن تُرسل لي النسخة النهائيّة من روايتكَ لنبدأ العمل عليها.. لا تحمل همًّا، اعتبر أنكَ قد أصبحتَ معنا في أماندا.

ونهضتُ معلنًا انتهاء المقابلة، وأنا أرمقه بابتسامة ودود، فنهض مرتبكًا وهو يلهج بالثناء وصافحني مودّعًا وقد أشرق وجهه سعادة.

أسرعتُ أفتح رسالة (رِهام)، لأجد كلمات مقتضبة منها تقول:

"(رِهام) هو الكتابة الصحيحة للاسم.. (رِهام) هو جمع "رهمة" وهي المطر الخفيف.. الجميع يكتبونه (ريهام) بشكل خاطئ".

ثمّ وضعت لي وصلة لقاموس المعاني على الإنترنت، فتحتُها فوجدتُ معنى كلمة "رهام" كما قالت تمامًا.

شعرتُ بالدماء تتصاعد لوجهي، طوال الساعات الماضية لم تردّ عليّ بما يتجاوز بضع كلمات، وكأنّها مُجبرة على الردّ رغم إرادتها، وكأنّها لا تُطيقني لكنّها تردُّ كتأدية واجب، والآن تُظهرني بمظهر الجاهل الذي يجب أن تُصحّح له معلوماته اللغويّة.. قد أقبل أن يُصحّح لي أحدهم معلوماتي في أيّ شيء إلا في اللغة!

أسرعتُ أكتب لها:

"بالطبع أعرف أنّ "رِهام" هي المطر الخفيف، لكنّني لم أربط بين اسم (ريهام) الشائع بين الفتيات، وبين "الرهام".. كنتُ أظنّ أنّ (ريهام) اسم مؤنّث لا معنى له D:"

وأرسلتُ لها الرسالة.

ظهرت لي عبارة تُخبرني بأنّها شاهدت الرسالة لتوّها.. انتظرتُ أن يأتيني ردّها لكن كالعادة بلا جدوى.. وضعتُ أصابعي المتشنّجة على "الكي بورد"، وكتبتُ بسرعة وأنا أنفث غضبًا:

"من تظنّين نفسكِ؟! لماذا لا تردّين عليّ على الفور؟ لماذا تردّين باقتضاب؟ فلتذهب الكتابة الصحيحة للاسم إلى الجحيم، لا يهمّني هذا الأمر.. بالأمس أرسلتُ لكِ معتذرًا وما كان يجب أن أعتذر، فإذا بكِ تتجاهلين كلّ هذا ولا تنتبهين إلا لطريقة كتابتي لاسمكِ الغبيّ!"

توقّفتُ بالمؤشّر متردّدًا في الضغط على زر الإرسال.. دخلت (مها) لتقول لي بوجه متجهّم:

الأستاذ (كمال الألفي) حضر ويرغب في لقائكَ.

لابدّ أنّ هناك مصيبة ما، قلتُ لها إنّني سآتي فورًا، وعدتُ بالمؤشّر إلى خانة الكلام.. تردّدتُ للحظة، ثمّ مسحتُ كلّ ما كتبتُ.. لن أترك لها فرصة لتُظهرني في مظهر المخطئ، سأتحمّلها للنهاية.. أرسلتُ لها:

"هل أُثقل عليكِ بكلامي معكِ؟"

أنشأ (محمد الألفي) دار أماندا في السبعينات، بدأ بنشر الكتب الدينيّة تماشيًا مع الموجة الدينيّة التي سادت في مصر مع رحيل كثير من المصريين إلى الخليج في ذلك الوقت، وبدا اسم الدار غريبًا مع نوعية الكتب التي تنشرها.. أماندا هو اسم ابنة (الألفي) الصغرى التي تُقيم الآن مع زوجها في الولايات المتحدة، سمّاها على اسم جارته الأرمنيّة التي كان يُحبّها في صغره.. كلّنا نعرف هذه الحكاية..

بعد وفاة (الألفي) الكبير في بداية التسعينات، تولّى إدارة الدّار ابنه (كمال الألفي)، واتّخذ بها منحى جديدًا، الأدب.. كان دائمًا ما يُكلّمنا عن أنّه أدرك أنّ الزمن الحالي هو زمن الرواية، فعل ذلك قبل أن ينشر جابر عصفور كتابه الشهير "زمن الرواية"، والذي أشار فيه إلى أنّ أغلب الفائزين بجائزة نوبل هم روائيّون، وليسوا شعراء ولا مسرحيين، ولم يكن في الحقيقة بحاجة لذلك، فكلّ من يعمل في حقل النشر يُدرك حجم الإقبال على شراء الروايات في مقابل كتب الشعر والمجموعات القصصيّة.. لكنّ (كمال الألفي) يُصرّ على أنّه كان ذا نظرة مستقبليّة ثاقبة حينما قرّر أن يُحوّل نشاط الدار الرئيسي إلى نشر الروايات في التسعينات.. ومع بداية الألفيّة كانت أماندا من كبرى دور النشر المتخصّصة في نشر الروايات، ربما لا ينافسها سوى دار الشروق التي

تستحّوذ على كبار الكتّاب، بينما أماندا تستحّوذ على أغلب الأدباء الشباب، وعدد لا بأس به من الكبار.

أرتاح كثيرًا في التعامل مع (كمال الألفي) يا (عزيز)، فهو طفل كبير رغم محاولاته في الادّعاء أنّه جبّار لا مثيل له.. حتّى ملامحه تتواطأ ضدّه في ذلك، فهو بامتلاء جسده وشاربه الكثّ ونظّارته التي تجعل عينيه صغيرتين؛ يقول بوضوح إنّه طفل في الخمسين ضلّ طريقه إلى عالم الكبار.

وفي ذلك اليوم دخلتُ مكتبه وأنا أعلم جيّدًا ما سيقوله لي.. كان يرمقني شذرًا وأمامه على المكتب العدد الجديد من مجلّة "نجوم القاهرة"، ألقيتُ عليه التحيّة فردّ عليّ ببرود، وقبل أن أجلس أمامه بادرني بحدّة:

لماذا لا تردّ على هاتفكَ؟

- معذرة يا سيّدي، لابدّ أنّني لم أنتبه لمكالمتكَ.

أشار إلى المجلّة أمامه وهتف:

لماذا تُقحم الدّار في صراعات لا معنى لها؟ صاحب دار المنار يتّصل بي من الأمس ويكاد يُجنّ مما ذكرتَه عن داره! هل يصحّ هذا الكلام يا (نادر)؟!

رسمتُ على وجهي قناع الوداعة التي لا تخلو من الثقة وأنا أقول له بهدوء:

هذا ما كنتُ أنتظره بالضبط يا سيّدي.. لقد تعمّدتُ أن أقول ما قلتُه عنهم لتصلهم رسالتنا: نحن ندرك جيّدًا ما يفعلونه وعلى استعداد

لفضحهم في أيّ لحظة إن لم يتوقّفوا.. يجب أن يعرفوا أنّهم لا قِبل لهم بنا ويكفّوا عن ألعابهم الصبيانيّة.

ويبدو أنّه توقّع أنّني سأُبرّر أو أعتذر فتفاجأ باعترافي، وظلّ يرمقني بدهشة عدّة ثوانٍ قبل أن يقول:

دار أماندا لا تدخل في مثل هذا النوع من الصراعات يا (نادر).. من فضلكَ، لا داعٍ لإلقاء التصريحات باسم الدّار.. أنتَ أحد أعمدة الدّار الأساسيّة، لكن ليس من حقّكَ أن تُلقي بالتصريحات نيابةً عنها.. أنا فقط من أتكلّم باسم الدّار.

قلتُ مبتسمًا لأمتصّ ثورته:

بالطبع يا سيّدي، أتّفق معكَ في كلّ حرف، لكنّني لم ألقِ تصريحات باسم الدّار، لقد تكلّمتُ في حدود اختصاصي كمدير للنشر.. ألم يحدث من قبل أن كنتُ على وشك الاتّفاق مع أحد الكتّاب الشباب ثمّ فوجئتُ بدار المنار تُحاول إغراءه للتعاقد معها وتركنا؟ حدث هذا كثيرًا.. لا تقلق يا سيّدي، الدّار لن يصيبها أذى من تصريحاتي، سأتحمّل وحدي كلّ النتائج.. أنا مستمتع جدًّا بإثارة غيظ القائمين على دار المنار.

أشعل لنفسه سيجارة، ونفث دخّانها مفكّرًا قبل أن يستجمع كلماته ويقول لي في حزن:

أنا أعتبركَ كأخي الأصغر.. لن أقول ابني كي لا أزيد من سنّي –وضحك بارتباك– أنتَ يا (نادر) تجد نفسكَ في الصراعات.. تنتعش حينما تخوض معركة، هذه طبيعة لاحظتُها لديكَ.. لكنّني أختلف عنكَ، أنا شخص

obeikan.com

مسالم، وكذلك كان أبي.. لقد عملتُ معه في الدّار منذ الثمانينات حين كنتُ شابًّا صغيرًا، وتحمّلتُ إدارتها وحدي منذ التسعينات، وطوال تلك الفترة تجنّبتُ قدر الإمكان الدخول في المشاكل مع أيّ أحد.. لديّ استعداد للتنازل عن نصف كتّابنا لو كان المقابل ألا تهتزّ سمعتي في السوق كشخص محترم وبعيد عن المشاكل.. هل تفهمني؟

هززتُ رأسي أن نعم، وفكّرتُ أن أخبره بأنّني لا أطلب منه أن يدخل في مشاكل، فليترك لي هذا الأمر بالنيابة عنّه، لكنّني فضّلتُ في النهاية أن أصمت.. الموضوع منتهٍ على أيّة حال.. كان يريد أن يوبّخني لكنّني سيطرتُ على مسار المحادثة كالمعتاد، وأصبح عليه هو التبرير.. انتصرتُ كالعادة!

تذكّرتُ شيئًا فقلتُ له:

في طريقي إلى هنا اتّصل بي تامر إسماعيل كاتب الرعب المشهور.. هو صديق عزيز وقديم، كان يستشيرني في مشكلة لديه.. تعرف يا سيّدي أنّه ينشر كتبه مع أكثر من دار نشر واحدة بسبب غزارة إنتاجه، فهو يكتب في السنة الواحدة أكثر من خمس روايات، لا أعرف كيف.. المهم، دار النشر التي يتعامل معها مؤخّرًا صارحته بأنّها لا يمكنها أن تنشر له في السنة سوى روايتين فقط لأسباب تسويقيّة.. في الغالب كي تأخذ كلّ رواية وقتها وحقّها في الدعاية والتسويق.. وهو الآن محتار، يريد أن يُركّز مع دار نشر واحدة وفي نفس الوقت ينشر كلّ ما لديه من أعمال.

خلع (كمال) نظّارته ورمقني متسائلاً وهو يقول:

لكنّ دار النشر التي يتعامل معها على حق.. نحن أيضًا لا يُمكننا أن ننشر له أكثر من روايتين في السنة.

قلتُ له بحماس:

هذا صحيح، لكن ماذا لو طرحنا أعماله في شكل سلسلة روايات جيب.. سلسلة رعب تصدر كلّ شهرين، ونستهدف بها جمهور الشباب والمراهقين؟

ارتسمت الابتسامة على وجهه وهو يقول:

فكرة جيّدة يا (نادر).. سنناقشها في اجتماع مجلس الإدارة القادم.

عرفتُ حينها أنّ الفكرة تمّت الموافقة عليها وسترى النور قريبًا.. انتصار جديد لـ(نادر منصور) العظيم.. شكرتُه وغادرتُ مكتبه عائدًا إلى مكتبي.

بادرتني (مها):

الأستاذ (إبراهيم طه) سأل عنكَ فأخبرتُه أنّكَ عند الأستاذ (كمال).

طلبتُ منها أن تُخبره أنّني في مكتبي الآن.. ترى ماذا تريد يا (إبراهيم)؟

أسرعتُ أفتح "الفيس بوك" لأجد ردًّا من (رِهام) يقول:

"لا أبدًا".

هكذا ببساطة.. ربما لو شتمتني أو وبّختني على شيء فعلتُه بالأمس لكان الأمر أفضل!

هممتُ لوهلة أن أُرسل لها بعض الشتائم ثمّ أضعها "بلوك" فلا تتمكّن من الردّ عليّ، لكنّني فتحتُ صفحتها أوّلاً.. وجدتُها كتبت خلال الدقائق الماضية "بوست" جديد، يقول:

"عادةً يُريدها بريئة بقدر دناءته".

حصد البوست عددًا كبيرًا من "اللايكات" و"الكومنتات".. لا شيء يفتح الشهيّة للحديث مثل النقاش حول طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة.

قرأتُ بسرعة "الكومنتات"، الفتيات كالعادة مؤيّدات متأوّهات، أما الرجال فيحاولون دومًا أن يبدو مختلفين، إمّا من خلال نبرة الاعتراف والتواضع: نعم، للأسف نحن كذلك.. أو من خلال نبرة: هناك بالفعل كثيرٌ من الرجال يُفكّرون بتلك الطريقة البشعة، نحن لا نعرف كيف تتواجد مثل هذه الكائنات معنا على نفس الكوكب!

لكنّني اخترتُ طريقًا ثالثًا.. كتبت:

"البراءة والدناءة شيئان نسبيّان، في مجتمعنا مثلاً الفتاة البريئة هي الساذجة التي لا تعرف شيئًا عن حقائق الحياة.. في المجتمع الأمريكي الفتاة البريئة هي التي تكون مُخلصة في كلّ العلاقات التي تخوضها، ولا تعرف رجلين اثنين في نفس الوقت.. لذلك دعوني أتساءل: أيّهما أسوأ: الدناءة أم السذاجة والغباء؟"

توقّعتُ أن تُقيم مداخلتي الدنيا ولا تُقعدها، (نادر منصور) الكاتب الشهير دخل ليُدلي بدلوه معنا، يا للسعادة، يا للفرحة، توقّعتُ الكثير من الترحيب والنقاش، لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث!

استمرّت "الكومنتات" التي تحمل آراء مختلفة بعد مداخلتي، ولم يُلقِ أحدٌ بالاً لما قلتُه حتّى صاحبة "البوست".. يبدو أنّ أحدًا هنا لا يعرفني، لقد دخلتُ مجتمعًا آخر فيه (رِهام) نجمة متوّجة و(نادر منصور) دخيل مجهول الهويّة.. تابعتُ "الكومنتات" من البداية فوجدتُ أنّ (رِهام) تضع "لايك" على بعض "الكومنتات" التي تُعجبها وتتجاهل أخرى، ويُمكنكَ أن تستنتج يا (عزيز) أنّ "الكومنت" الخاص بي كان من "الكومنتات" المغضوب عليها.. شعرتُ بالغيظ، وفكّرتُ لوهلة أن أقوم بعمل "شير" "للبوست" عندي وأسأل متابعيّ عن رأيهم في القضيّة التي يطرحها وأطلب منهم الإدلاء بدلوهم هناك.. ستتعرّض (رِهام) وأصدقاؤها لحملة لن يقووا على الوقوف أمامها، وستصل عدد "اللايكات" على "الكومنت" الذي وضعتُه إلى مائة أو أكثر!

لكن قبل أن أتّخذ أيّ ردّة فعل سمعتُ طرقًا، ثمّ انفتح باب غرفتي ليُطلّ من ورائه وجه (إبراهيم) قائلاً بمرح:

هل يجب أن آخذ موعدًا لألتقيكَ أيّها النجم؟

ابتسمتُ بودّ وأشرتُ له أن يتفضّل:

أهلاً أهلاً بصاحبي الطيّب الجميل.. تفضّل يا هيما، لا تقل أبدًا مثل هذا الكلام.

لكنّه ظلّ واقفًا عند الباب وهو يقول:

معي ضيف يريد أن يراكَ.

Obeikan.com

رمقتُه متسائلاً، فانزاح جانبًا ليظهر بجواره دكتور (فريد)!

فاجأني وجوده وخمّنتُ أنّ هناك مشكلة قادمة في الطريق، لكنّني لم أُظهر ذلك على وجهي.. أسرعتُ أُرحّب به بحرارة وأخذتُه بين أحضاني، وأنا أتساءل عمّا تُريده منّي أفاتار الآن.

- أنا عاتب عليكَ يا (نادر).

أسرعتُ أقول لأقطع عليه طريق هذه الأكلشيهات:

لأنّني لا أسأل؟ أنتَ أيضًا لا تسأل يا دكتور، هل نسيتَ (نادر منصور) تلميذكَ النجيب؟

وانطلقتُ أُقهقه بمرح، لكنّه حافظ على نظرته الجادة ورمق (إبراهيم) الذي قال مبتسمًا:

يبدو أنّه لا مكان لي وسط عتاب الأحبّة هذا.. سأنسحب بكرامتي.

وقبل أن أقول كلمة كان يُغادر الغرفة وهو يقول:

لنا جلسة سويًّا يا (نادر) فيما بعد، لم أعد ألتقيكَ مؤخّرًا إلا لمامًا.

أشرتُ للدكتور (فريد) ليجلس على أحد المقعدين المواجهين لمكتبي، وجلستُ أمامه على الآخر وأنا أسأله بجدّية:

ماذا هناك يا دكتور؟

- الأستاذ (فهمي) قرأ حواركَ في مجلّة "نجوم القاهرة" واستاء من بعض ما قرأ!

ما بال حواري في نجوم القاهرة! الكلّ قرأه والكلّ غضب من بعض أجزائه!

- لا أعتقد أنّني قلتُ شيئًا يُمكنه أن يسبّب الاستياء لأحد!

قال بأسف:

حينما سألكَ المُحاوِر عن روايتكَ الجديدة أجبتَه أنّها ستدور حول اغتراب الإنسان ووحدته وعدم فهم أحد له.

فهمتُ ما يرمي إليه لكنّني قررتُ خوض اللعبة للنهاية، فسألتُه:

وماذا في ذلك؟

هتف فجأة بغضب:

ماذا في ذلك؟! هل تمزح يا (نادر)؟ كيف تختار فكرة روايتكَ الجديدة دون الرجوع إلينا؟ وفوق ذلك تختار فكرة بعيدة كلّ البعد عن أهداف الجماعة!

رسمتُ على وجهي ابتسامة باردة وأنا أردّ عليه بحزم:

الشيء الطبيعي أن يختار الكاتب أفكاره دون الرجوع لأحد.. أليس كذلك يا دكتور (فريد)؟!

رمقني بنظرة طويلة كأنّه يُحاول سبر أفكاري، ثمّ قال:

لا داعٍ للفّ والدوران يا (نادر).. تعرف أنّ بيننا اتفاق محدّد.. وأنتَ هكذا تُخالفه!

- أعرف يا دكتور (فريد) ولا أُحبّ اللفّ والدوران تمامًا مثلكَ.. لكن ألا ترى أنّ روايتين كافيتان جدًّا لأؤدي الجزء الخاص بي من الاتفاق، والآن يحقّ لي أن أنطلق كما أُريد؟

حينما وافقتُ على الانضمام لأفاتار وأقسمتُ على الإخلاص لأهداف الجماعة، أخبرني (فهمي ناظم) في اجتماع خاص مع دكتور (فريد) أنّ مهمّتي ستكون كتابة أعمال أدبيّة تحمل أفكار الجماعة، وأنّهم قبل كلّ رواية جديدة سيناقشونني في فكرة معيّنة ويتركون لي حرّية التعبير عنها في عمل أدبي، ثمّ بعد انتهائي من الكتابة نجتمع سويًّا لنقرأ مسودّة الرواية قبل نشرها ويناقشونني فيها ويعطونني ملاحظاتهم التي سأقوم بتعديل الرواية بناءً عليها.

في البداية طلبوا منّي أن أكتب عن فكرة تقبّل الآخر.. قال لي (فهمي):

أغلب مشاكل مجتمعاتنا بسبب عدم تقبّلنا لبعضنا، أصبحت الغلبة للتعصّب في كلّ شيء.

أخذتُ الفكرة منه ووضعتُها في روايتي الثانية "مترو".. تخيّلتُ المجتمع كلّه في عربة مترو.. البطل يأتي محطة المترو يوميًا في نفس الموعد ويركب القطار من نفس المكان، وبالتالي كان يركب أغلب الأيام في نفس العربة.. أصبح يعرف سائق المترو ونمت بينهما صداقة دون كلام، لدرجة أنّ

السائق كان إذا تأخّر البطل يتظاهر بوقوع عطل في قطاره ويتوقّف حتّى يأتي هذا الأخير ويركب في عربته المعتادة.. مع الوقت لاحظ البطل أنّه صار يعرف كثيرًا ممّن يركبون العربة، ونشأ بينه وبينهم نوع من الألفة، شخصيات مختلفة متباينة، وبعضها متنافر.. مع الوقت والكثير من المواقف ينجح البطل في تحويل الجميع إلى أسرة واحدة تسود بينها المودّة والاحترام.

وحينما أصبحتُ مستعدًّا لكتابة روايتي الجديدة اجتمعا بي، وأخبرني دكتور (فريد) أنّهم يريدونني هذه المرّة أن أكتب عن الحرّية.. بعد الثورات العربية أصبح مفهوم الحرّية ملتبسًا عند كثيرين، وصاروا يخلطون بينه وبين الفوضى.

وهكذا كتبتُ "سادة وعبيد".. البطل يُعاني من تسلّط كلّ من حوله، زوجته ورئيسه في العمل وأسرته الصعيديّة ومجتمعه.. الكلّ يعتقد نفسه سيّدًا وهو عبده، وعند لحظة معيّنة وبعد الكثير من المواقف يُقرّر التحرّر، أنّه ليس عبدًا، وتأتيه الفرصة ليصبح سيّدًا بدوره ويستعبد الآخرين، لكنّه يُقرّر أن يمنح الحرّية التي حصل عليها لغيره، يُقرّر أنّنا كلّنا أحرار، كلّنا سادة أنفسنا، لا يوجد عبيد بيننا.

وما لم ينتبهوا إليه في أفاتار أنّني بعد انتهائي من هذه الرواية قرّرتُ أن أكون حرًّا بدوري وألا يُملي عليّ أحد طبيعة ما أكتب.. كنتُ أتوقّع الصدام معهم قريبًا، لكن لم أتخيّل أنّهم يُتابعونني بهذه الدقّة وسينتبهون لحواري في نجوم القاهرة ويدركون أنّني بدأتُ التمرّد.

كان دكتور (فريد) على وشك أن يفقد أعصابه، قال لي بغيظ:

لا ليس من حقّكَ! هل تعتقد أنّكَ وصلتَ إلى ما وصلتَ إليه وحدكَ وبفضل موهبتكَ؟ استيقظ يا (نادر) ولا تترك الغرور يتسلّل إليكَ، كن واعيًا! نحن من سهّلنا لكَ الوصول إلى ما أنتَ عليه الآن، نحن من وجّهناكَ وسخّرنا مواردنا لدعمكَ.. تذكّر كيف كنتَ قبلنا، لم يكن أحد يسمع عنكَ، نحن من أعطينا الإشارة الخضراء لتنشر مع أماندا ثمّ تُصبح مديرًا للنشر بها.. نحن من وجّهنا أصدقاءنا وحلفاءنا ليُلمّعوكَ إعلاميًا ويجعلوكَ وجهًا مألوفًا على الشاشات وصفحات الجرائد والمجلّات.. نحن من صنعناكَ!

وضعتُ قناع الغضب على وجهي ليُدرك أنّه تجاوز حدوده، وقلتُ له جاذًّا على أسناني:

يبدو أنّكم أنتم من نسيتم أنفسكم يا دكتور (فريد).. أنا أذكر جيّدًا ما كنتُه قبلكم، وأُدرك أنّه لولا موهبتي وشهرتي التي بدأتُ أحقّقها قبل أن ألتقيكم ما كنتم لتفكّروا في ضمّي إليكم.. أنتم لم تفعلوا سوى إمدادي ببعض الأفكار الأوّلية العامة، وأنا قبلتُ أن أستخدمها في روايتيّ السابقتين إظهارًا لامتناني على مساعدتكم لي في الدخول إلى أماندا.. لكن غير ذلك فموهبتي هي ما قامت بكلّ شيء.. لا تقل لي إنّ أفاتار هي من كتبت الروايتين بالنيابة عنّي، لا تقل لي إنّ أفاتار هي من رشّحتني مرتين للبوكر، لا تقل لي إنّ أفاتار هي من صنعت لي كلّ هذه الشعبيّة الطاغية في الوسط.. موهبتي وشخصيتي المميّزة هي من قامت بكلّ شيء، أنتم وضعتم قدمي على بداية الطريق، أعترف بذلك، وأمتنّ لكم كثيرًا عليه.

وقد ساعدتكم كما ساعدتموني حينما قبلتُ باستخدام أفكاركم في روايتيّ.. لكن لا تذهبوا بتفكيركم أبعد من ذلك فتعتقدوا أنّكم من صنعتم كلّ شيء.. أنا أعرف أنّكم حاولتم تكرار تجربتكم معي مع كثيرين، في السينما والتلفزيون والصحافة وكلّ المجالات التي تُحاولون اختراقها، لكن هل منهم من نجح مثلي؟ (نادر منصور) هو من صنع (نادر منصور).. لا تنسَ هذا أبدًا!

فوجئ (فريد) بردّة فعلي، فأخذ نفسًا عميقًا ورسم على وجهه ابتسامة غير متقنة وهو يقول:

لا يجب أن تنسى الهدف الأساسي يا (نادر).. لا تجعل الشهرة والمجد يجذبانكَ في دوّامتهما فتفقد كلّ شيء.. أنتَ هنا لهدف محدّد وهو زيادة وعي المجتمع.. هل نسيتَ الحلم؟ ألا تريد أن ترى المجال الذي تعشقه، مجال النشر والكتابة، وقد أصبح على أفضل ما يكون؟ ألا ترى أنّ ذلك لن يكون سوى من خلال نشر مفاهيم الجماعة وجعلها تسود؟

أجبتُه بهدوء:

لا لم أنسَ الحلم القديم، وسأنفّذه بطريقتي الخاصة.

رمقني متسائلاً، فأكملتُ:

أنا الآن أُسيطر على جانب كبير ممّا يتمّ نشره، وسأعمل على زيادة ذلك.. بيني وبينكَ يا دكتور أنا الآن في سبيلي لتكوين جماعة جديدة ستُسيطر على سوق النشر وتُحدّد سياساته وما يتمّ نشره فيه.. سأُطبّق رؤيتي الخاصة دون الحاجة لتطبيق رؤية غيري!

ارتجّ عليه وظلّ صامتًا بضع ثوانٍ قبل أن يُغمغم:

وما الحاجة بكَ لذلك؟ نحن أكثر خبرة ونعرف جيّدًا ما نفعله، ولدينا خطّة بعيدة المدى.. نحن جماعة منظّمة بينما أنتَ شخص واحد ستبدأ من الصفر.. لماذا تُعيد اختراع العجلة ولديكَ أفاتار؟

- دعني أسألكَ وأجبني بصراحة يا دكتور (فريد): هل ما يهمّكم في أفاتار هو زيادة وعي المجتمع بأيّ كيفية، أم أن تحدث هذه الزيادة من خلالكم أنتم فقط؟

صمت قليلاً قبل أن يقول:

نحن في أفاتار متأكّدون من أنّنا الأقدر على القيام بتلك المهمّة، وبصراحة لا نثق في أن يقوم غيرنا بهذا، ونعتقد أنّه في الغالب سيأتي بنتائج عكسيّة.. لا تُؤاخذني يا (نادر)، لكن كيف ترفع مستوى وعي المجتمع وأنتَ نفسكَ في حاجة لمن يرفع مستوى وعيكَ؟ أنتَ وعيكَ الآن عند درجة 175، في مرحلة التكبّر!

أطلقتُ ضحكة مرحة وأنا أقول له:

أنتم إذن تسعون للسيطرة يا دكتور (فريد)، تمامًا مثلي.. دعني أُصارحكَ بدوري أنّني لا أسعى لرفع مستوى وعي أحد، أنا فقط أُحبّ أن أرى أفكاري مطبّقة على الأرض، أُحبّ أن أرى الجميع يتّبعون ما أؤمن به.. وبصراحة لا أجد فرقًا كبيرًا بيني وبينكم!

- نحن لا نسعى للسيطرة، نحن نحمل الخير للعالم!

أجبتُه بابتسامة هازئة، فنهض واقفًا:

إذن فهذا ردّكَ النهائي؟ أنتَ تتخلّى عن أفاتار؟

نهضتُ ومددتُ يدي له مصافحًا:

بلّغ الأستاذ (فهمي) تحيّاتي الحارة.

هزّ رأسه واتجه نحو الباب.. وقبل أن يفتحه التفتَ وقال لي ما كنتُ أنتظره:

تذكّر فقط يا (نادر).. أفاتار ليست ضعيفة، وكما ساعدتكَ على الوصول إلى القمّة بإمكانها أن تُلقي بكَ في القاع.

قلتُ له مبتسمًا:

بالتأكيد طبعًا.. بالتوفيق لأفاتار في مهمّتها المقدّسة.

رمقني غير فاهم ردّة فعلي، ثمّ غادر الغرفة بسرعة.

obeikan.com

عدتُ إلى "الفيس بوك" فوجدتُ "الكومنت" الذي وضعتُه في "بوست" (رِهام) قد حصل على "لايك" واحد من شخص لا أعرفه!

لا أعرف يا (عزيز) كيف أقنعتُ نفسي في تلك الفترة بأنّها تتعامل معي ببرود واقتضاب لأنّها معجبة بي في قرارتها، فبدلاً من الانفجار في وجهها أو وضعها "بلوك" كتبتُ لها رسالة مرحة تقول:

"أتمنّى ألا يكون ردّي على "البوست" الخاص بكِ قد أزعجكِ :)"..

وجدتُ عبارة من "الفيس بوك" داخل الرسالة تُخبرني بأنّها شاهدتها.. انتظرتُ قليلاً ثمّ قرّرتُ أن أرسل لها رسالة أخرى:

"بالمناسبة، يبدو أنّني كنتُ مخطئًا في رأيي عن التدوين.. بعد قراءتي لبعض "البوستات" لديكِ وجدتُ الأمر مثيرًا للاهتمام.. مشكلتي أنّني حكمتُ على الأمر دون تعمّق أو فهم.. هل يمكنني أن أطلب وصلة مدوّنتكِ لأتعرّف على تدويناتكِ أكثر؟"

فوجئتُ بها تردّ على الفور:

"الاعتراف بالخطأ من شيم الشجعان، أتمنّى أن تُغيّر رأيكَ في التدوين، أو على الأقل تبنيه عن بيّنة.. شكرًا على اهتمامكَ، أتمنّى أن أسمع رأيكَ فيما أكتبه"

Obeikan.com

ووضعت لي وصلة مدوّنتها.

أصابني الإحباط من ردّها، كنتُ أتوقّع أن تستمرّ في لعبة التجاهل والردّ باقتضاب، لأنّ هذا يعني أنّها تتعمّد جذب انتباهي.. لكنّ ردّها السريع المستفيض هذا قد يدلّ على أنّها كانت تردّ عليّ باقتضاب لأنّني فعلاً ثقيل على نفسها!

قرّرتُ أن أقرأ بعض تدويناتها ثمّ أفنّدها لها، سأُمزّقها إربًا وأُوضّح لها أنّها لا تصلح أن تكتب حرفًا، ثمّ أتجاهل الردّ على ردوها التي تُحاول فيها الدفاع عن نفسها.

حفظتُ وصلة المدوّنة في قائمة "الفيفوريتس"، ثمّ أغلقتُ "اللاب توب" ووضعتُه في حقيبتي، وأخبرتُ (مها) أنّني سأغادر لأنّني متوعّك قليلاً.

Obeikan.com

قضيتُ الفترة بعد العصر وحتّى العشاء أتصفّح مدوّنة "نهارك سعيد" بحثًا عن أيّ انتقادات أستطيع توجيهها لـ(رِهام).. لكنّني بعد نصف الساعة الأولى من تصفّح المدونة انقلبت خطّتي رأسًا على عقب..

كانت (رِهام) قد أنشأت المُدوَّنة سنة 2005.. في تلك الفترة حسبما أذكر كان العصر الذهبي للمُدوَّنات، بسبب الأحداث السياسيّة المتلاحقة.. وكانت (رِهام) تُضيف تدوينة جديدة كلّ أسبوع على الأقل.. كانت تكتب في كلّ شيء، عن الأدب والحياة والمواقف اليوميّة التي تمرّ بها، والأشخاص الذين تلتقيهم، والمشاعر التي تعتريها، والكتب التي تقرأها.. بعد قراءة عدّة تدوينات اضطررتُ للاعتراف بيني وبين نفسي أنّ هذه الفتاة تملكَ أسلوبًا وفكرًا.. عباراتها موزونة تحوي إيقاعًا وموسيقى داخليّة. ونادرًا ما كنتُ أقع على خطأ لغوي لديها.. هي إذن تكتب بوعي واحتراف، ليست مجرّد فتاة تكتب خواطرها كيفما اتّفق بغير خطة ولا هدف ولا أدوات.

بعض التدوينات يمكنني أن أعتبرها قصصًا قصيرة بدون تردّد، قصصًا قصيرة من أجمل ما قرأتُ.. لكن ما غيّر تفكيري تجاهها كان تدوينة تعود إلى خمس سنوات مضت، تتحدّث فيها عن روايتي الأولى "ذلك الصفير في أذني".. وقفتُ مبهوتًا أمام كلماتها..

من تاريخ التدوينة أدركتُ أنّها قرأت روايتي وكتبت عنها قبل أن ينتبه أحدٌ إليّ، قبل حلقة برنامج "حلم ولّا علم"، قبل انضمامي إلى أفاتار ونشري مع أماندا.. ورغم اقتضاب التدوينة إلا أنّ سطورها القليلة منحتني سعادة لم أشعر بها منذ فترة طويلة:

"انتهيتُ اليوم من قراءة رواية "ذلك الصفير في أذني" لكاتب لم أقرأ له من قبل يُدعى (نادر منصور).. الرواية صغيرة الحجم تتكلّم عن شاب كان يُعاني من ارتفاع صوت صفير في أذنه كلّما كان مقبلاً على قرار مصيري، صفير يُربكه ويجعل مهمّة اتخاذ القرار أصعب وأشدّ.. أليس هذا حالنا جميعًا؟ تُحيطنا الدنيا بوسائل التشويش التي تُربكنا أمام خياراتنا المختلفة.. رواية جميلة أتوقّع لكاتبها مستقبلاً رائعًا.. المأخذ الوحيد الذي آخذه على الرواية هو سوء الطباعة، بعض الصفحات كانت مقلوبة، وحجم الكلمات صغير وكأنّ الناشر يحاول حشر الرواية في أقلّ عدد ممكن من الصفحات لتقليل التكلفة".

بعدها بعدّة شهور كانت هناك تدوينة أخرى تحمل عنوان "الفتى الشجاع":

"شاهدتُ اليوم حلقة برنامج "حلم ولّا علم" التي ظهر فيها كاتب السيناريو الشاب (نادر منصور).. لن أتحدّث هنا عن فيلم "الخطيئة الأولى" الذي كتبه (نادر)، والذي أصبح حديث الساعة مؤخّرًا، وإنما عن شعور بالسعادة لم أشعر به من قبل.. الكلّ يعرف أنّني أنأى بنفسي عن متابعة برامج المقالب في رمضان، أحتقر تلك البرامج وأحتقر القائمين عليها وأحتقر من يقبلون الظهور فيها.. لكنّني حينما وجدتُ الجميع يتحدّثون

obeikan.com

عن تلك الحلقة بالذات سارعتُ بمشاهدتها ولم أندم لحظة.. (نادر) شاب في أواخر العشرينات مثله مثلنا جميعًا، فوجئ بنفسه وقد أحضروه في هذا البرنامج دون أن يُخبروه بطبيعته، ليُسلّوا الناس بمشاهدة ذعره وفزعه، تمامًا كما كان يفعل أباطرة الرومان في العصر القديم حينما يضعون العبيد أمام الأسود في ساحة الأرينا.. لكنّ (نادر) لم يستسلم لهذا القَدَر، قرر أن يُلقّنهم جميعًا درسًا لا أعتقد أنّهم سيستفيدون منه شيئًا.. قلب الطاولة على رؤوسهم جميعًا وأظهر شجاعة نادرة، كانوا يتوقّعون منه أن يصرخ ويُولول ويستجدي الرحمة، لكنّه ضربهم كما يجب بأيّ ضيف محترم أن يفعل.. الشيء الوحيد الذي ضايقني منه أنّه لم يختصّ المذيع والمخرجة ببعض ضرباته وركلاته..

شكرًا (نادر منصور)، ليتنا جميعًا نكون في مثل شجاعتك".

تعرف يا (عزيز) أنّني لا أُحبّ المواقف الدراميّة وأسخر منها، لكنّني لم أستطع أمام هذه الكلمات ألا تطفر الدموع من عينيّ..

هل تذكّرتْ (رِهام) وهي تكتب تلك التدوينة أنّ (نادر منصور) الذي شاهدته في تلك الحلقة هو نفسه (نادر منصور) الذي أعجبتها روايته الأولى منذ عدّة شهور؟ وهل تذكّرتْ بالأمس حينما التقتني أنّني (نادر منصور) الذي كتبت عنه منذ سنوات تدوينتين من أروع ما كتبتْ؟ لماذا إذن كانت تُعاملني بكلّ هذا البرود والتعالي والاقتضاب؟

فكّرتُ أن أُرسل لها أُذكّرها بتلك التدوينتين، لكنّني تراجعتُ، وبدلاً من ذلك وجدتُ نفسي أكتب لها:

Obeikan.com

"العزيزة (رِهام) [ها أنا أكتب الاسم صحيحًا هذه المرّة، ولا أعتقد أنّني سأُخطئ فيه مرّة أخرى :)]

أبحرتُ قليلاً في مدوّنتكِ ولا يمكنني أن أصف لكِ الآن مقدار النشوة التي أشعر بها.. أنتِ ساحرة كلمات حقيقيّة يا عزيزتي، دعيني أُصارحكِ أنّني حينما التقيتُكِ أوّل مرّة لم أتخيّل أنكِ موهوبة بالشكل الذي شاهدتكِ عليه في تدويناتكِ الرائعة.. اعذري جهلي إذن، الآن أُدرك لماذا أحضركِ (كريم) إلى اجتماعنا، وإنّني لأشكره لأنّه أتاح لي فرصة التعرّف عليكِ ومن ثمّ الاطلاع على كتاباتكِ الرائقة..

أعرف أنّني تصرّفتُ بالأمس بكثير من التعالي، لكنّني اعتدتُ على ذلك في تعاملي مع (كريم) و(مصطفى) و(صلاح) لأنهم عِشرة عمر، ويحلو لي كثيرًا المزاح معهم بتلك الطريقة، لكنّني في الحقيقة أكثر تواضعًا مما ظهرتُ عليه في لقائنا، لذلك أتمنّى ألا تأخذي عنّي فكرة غير حقيقيّة..

شكرًا مرّة أخرى لأنكِ أتحتِ لعينيّ فرصة قراءة كلماتك"

أرسلتُ لها الرسالة وأنا موقن أنّها ستتخلّى الآن عن أسلوبها السخيف في الردّ المتأخّر المقتضب، وربما تُصارحني بأنّها تُتابعني وتقرأ لي منذ سنين، وخصّصت بعض تدويناتها للكلام عنّي.. أظهري إعجابكِ يا فتاة لننتهِ من هذه اللعبة!

رنّ "موبايلي" وظهر على شاشته اسم (إسلام منصور)، ضغطتُ على أحد الأزرار لأُلغي الصوت.. لا حاجة لي بالكلام معكَ يا ابن عمّي المزعج! لم

تمضِ ثوانٍ حتّى عاد "الموبايل" يرنّ من جديد، فرفعتُه ورددتُ على المكالمة بغيظ:

أهلاً يا (إسلام)!

أتاني صوته الهادئ يقول:

أخيرًا رددتَ يا (نادر)!

- أرجوكَ يا (إسلام) لا داعٍ للمقدّمات أو العتاب.. ماذا تريد؟!

جاءني صوته خافتًا:

ما أقسى قلبكَ يا ابن عمي! أردتُ فقط أن أطمئنّ عليكَ وأُخبركَ أنّ حالة عمّكَ ازدادت سوءًا لتأتي وتراه.. فقد لا تراه مرّة أخرى إن تأخّرتَ!

زفرتُ بحنق:

أنتَ تعلم معزتكَ لديّ يا (إسلام)، لكنّكَ تعرف أيضًا أنّني منذ وفاة والدي اعتبرتُ أنّه لا عمّ لي.. ولستُ بحاجة لأذكّركَ بالسبب!

- هذا ماضٍ رحل إلى حال سبيله يا (نادر)، ونحن أبناء اليوم.. أؤكد لكَ أنّ أبي نادم أشدّ الندم على ما فعله معكَ، ولو عادت الأيام لأخذكَ تحت جناحه ولما أشعركَ قط أنّ والدك قد مات.. لقد...

قاطعتُه بنفاد صبر:

obeikan.com

الأيام للأسف لا تعود يا (إسلام)، وما أشعرني به عمّي من خوف وعدم أمان لن يزول طعمه من فمي مادمتُ حيًا.. أنا لا أعرف أصلاً لماذا تُحاول الحفاظ على صلتكَ بي، لقد قام جدّي ببيع كلّ ممتلكاتنا عندكم في الصعيد ما إن نجح في انتزاعها من قبضة عمّي، ولم يعد هناك ما يربطنا بكم!

- الدم لا يتحوّل إلى ماء يا ابن عمي، والـ...

قاطعتُه بسرعة:

معذرة يا (إسلام)، ماذا تقول؟ لا أسمعكَ.. يبدو أنّ هناك مشكلة في الشبكة.

وقبل أن يُكمل أنهيتُ المكالمة، ثمّ أغلقتُ "موبايلي" وألقيتُه جانبًا.. لستُ في حاجة لوجع الرأس هذا!

عدتُ بلهفة إلى "اللاب توب" فوجدتُ أنّ (رِهام) لم تُخيّب ظنّي في الردّ السريع.. وصلني ردّها يقول باقتضاب:

"أسعدني كلامكَ كثيرًا، وأتمنّى أن أظلّ دومًا عند حسن ظنّك".

اللعنة يا (رِهام)! على الأقل حاولي أن تُرسلي لي نفس عدد السطور التي أرسلتُها لكِ! لماذا تجاهلتِ ما قلتُه عن لقاء الأمس والفكرة الخاطئة وكتابتي اسمكِ بشكل صحيح؟ لماذا لا تضعين وجهًا مبتسمًا على الأقل يعطيني انطباعًا أنّكِ لا تردّين عليّ ببرود وقرف؟!

هل أُرسل لـ(كريم) أُخبره بما تفعله معي؟ لعلّه يصارحني بأنّ هذا أسلوبها في الردّ على الجميع فأستريح.. لكنّني وجدتُها فكرة سيّئة، لستُ طفلاً صغيرًا يسرع إلى حضن أمّه ليشكو لها ابنة الجيران!

قررتُ أن أكتشف أسلوبها في الردّ على الآخرين بنفسي.. فتحتُ صفحتها على "الفيس بوك" وعدتُ إلى بداية إنشائها سنة 2008، وأخذتُ أقرأ "البوستات" القديمة التي نشرتها وردودها على الآخرين والأشياء التي تقوم بعمل "شير" لها، شهرًا بعد شهر وسنة بعد سنة.. أحضرتُ ورقة وقلمًا لأُسجّل ملاحظاتي..

بدايةً وجدتُ أنّها تُخفي تاريخ ميلادها وطبيعة عملها.. لم تكن هناك معلومات بخصوصها سوى أنّها خريجة كلّية الآداب مثلي وتُقيم في مدينة 6 أكتوبر.. ولم تكن هناك صور شخصيّة لها، ماعدا بضع صور تجمعها مع بعض الفتيات.. انتبهتُ إلى نفسي وأنا أتأمّل وجهها وأُحاول استشفاف ملامحها بدون طبقات "المكياج" التي تُغطّي وجهها.. شعرتُ بالضيق والقلق من نفسي، وإن لم يمنعني هذا من أن أحفظ صورها في "فولدر" لديّ لأعود إليها لاحقًا..

مضت الساعات وأنا أُقلّب في صورها و"البوستات" الخاصة بها، نسيتُ نفسي، وكانت ملاحظتي الأهم أنّها قبل سنتين من الآن كانت أكثر انفتاحًا، أغلب كتاباتها كانت مرحة، وكانت تردّ على كلّ من يُحاول الحديث معها.. ضبطتُ نفسي أحصر الأسماء المتكرّرة التي تردّ على "البوستات" الخاصة بها باستمرار، وأُحدّد من منهم تهتمّ بالردّ عليه أو الاحتفاء بمروره.. وأُحاول أن أُخمّن من طريقة ردّها عليه مدى قربه منها.. أحيانًا كنتُ أدخل

صفحة أحدهم لأعرف خلفيّاته وأستشفّ طبيعة علاقتها به، هل هو مُدوِّن أم زميل عمل أم قريب أم صديق أم.. حبيب!

تكوّنت لديّ قائمة تحوي ما يقرب من ثلاثين شخصًا، لم تعد تردّ في السنتين الماضيتين سوى على بضعة عشر شخصًا منهم، لا يوجد بينهم سوى سبعة ذكور منهم (كريم).. هؤلاء إذن أقرب أصدقائها، ردودها عليهم مازالت مرحة كما كانت في السابق، بعكس الردود المقتضبة التي تردّ بها على الآخرين الآن.

استراحتْ نفسي بهذا الاكتشاف، هي إذن لا تُحاول التقليل من شأني، هذا أسلوبها في الفترة الأخيرة لسبب ما مع غير دائرتها المقرّبة.. فهل لو أصبحتُ من دائرتها المقرّبة ستتغيّر طريقتها في الردّ عليّ؟

لاحظتُ وجود نقاط مشتركة بيننا، فهي تُحبّ مصطفى قمر ومن فترة لأخرى تكتب على صفحتها أغنيّة قديمة له، خصوصًا تلك الأغاني الهادئة الهامسة التي اشتهر ببعضها.

وانتبهتُ مع أذان الفجر إلى أنّني ظللتُ أُقلّب في صفحتها لأكثر من عشر ساعات يا (عزيز)، بلا كلل ولا ملل، ودون أن أستجيب لسيل الإشعارات التي تصلني طوال الوقت أو أفتح الرسائل التي يُرسلها لي البعض..

أرسلتُ إيميلاً إلى (مها) أُخبرها أنّني متعب اليوم ولن أستطيع الحضور إلى الدّار.. لو نمتُ الآن فلن أستيقظ قبل الظهر.

بحثتُ قليلاً على "اليوتيوب" حتّى وجدتُ ضالتي.. فيديو قديم لمصطفى قمر، من قبل حتّى أن يبدأ في إصدار ألبوماته في بداية التسعينات، عبارة

عن أوبريت صغير يظهر فيه مع نيللي وحسن كامي، ترقص نيللي كالفراشة بينما يُؤدّي كامي دور بابا نويل، ويُغنّي قمر: هات أحلامنا يا بابا نويل.. كان شعره مايزال أكرت قبل أن يفرده.. "شيّرتُ" الفيديو على صفحتي وكتبتُ كلمات الأغنيّة ثمّ وضعتُ وجهًا حزينًا في النهاية.

وعندما أغلقتُ "اللاب توب" اعترفتُ بيني وبين نفسي أنّني بالغتُ كثيرًا في موضوع (رِهام)، الأمر لم يكن يستحقّ كلّ هذا.. أم إنّه يستحقّ؟

كيف استطاعت هذه الفتاة التسلّل إليّ هكذا؟!

opeikan.com

أيام عزاء والدي في بلدتنا في الصعيد كانت أسوأ أيام حياتي.

لم أكن قد استوعبتُ بعد فكرة أنّه قد رحل وما عاد بإمكاني رؤيته. أزعجني أنّ عمّي البشوش الطيب الذي طالما جمعنا أنا و(إسلام) و(سلمى) أمامه ليحكي لنا طُرفًا من حياته كانت تجعلنا نفقد السيطرة على أنفسنا من كثرة الضحك؛ هذا الرجل تغيّرت نظرته وصارت صارمة مفزعة. في اليوم الأوّل للعزاء استدعى أمّي وتحدّث معها قليلاً، ثمّ تركها ومضى.. أسرعتُ إليها فوجدتُها تبكي بحرقة، واحتضنتني وهي تُردّد:

حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل!

وحينها بدأتُ أشعر بالخوف يغزوني، ولم يغادرني أبدًا بعدها.

في يوم العزاء الثالث كنتُ أقف بجوار عمّي في مقدمة الصوان نستقبل المعزّين، حينما فوجئتُ به يهزّني بعنف ويصرخ بي.. انتبهتُ إلى أنّ أحد المعزّين مدّ يده ليصافحني لكنّني كنتُ شاردًا أُفكّر في رحيل أبي وحزن أمّي وتغيّر عمّي فلم أنتبه.

شعرتُ بالألم والجميع يرمقونني وعينا عمّي الغاضبتان مصوّبتان نحوي. تركتُ الصوان وركضتُ بعيدًا كي لا يروني وأنا أبكي. ناداني (إسلام) لكنّني لم أتوقّف.. ظللتُ أركض ودموعي تسيل على خدّي بحرقة، ماذا سيفعل عمّي بي أنا وأمّي؟

انتبهتُ بعد فترة إلى أنّني توغلتُ كثيرًا وابتعدتُ ولم أعد أعرف أين أنا.. أخذتُ أسير في الأزقّة الضيّقة وأمرّ بالبيوت ذات الطابق الواحد المبنيّة من اللَبِن.. شعرتُ بالعجز ولم أدرِ ماذا أفعل.. كان الظلام قد أوشك على ابتلاع الكون بعباءته السوداء ولا أحد في الشوارع لأطلب مساعدته.. لوهلة ظننتُ أنّني في بلدة مهجورة لا يوجد بها أحياء سواي.. بدأت الرجفة تغزو جسدي، وتذكّرتُ حكايات خالتي، خصوصًا وأنّ ثلاثة كلاب سوداء ظهرت من بعيد.. رمقتني وكأنّها اكتشفت أنّني وحيد وضعيف وخائف، لا توجد فريسة أسهل من هذا.. اقتربت الكلاب منّي ببطء، أو ربما كانت مسرعة لكنّ عقلي جعلني أراها وقتها بالتصوير البطيء.. أنيابها البارزة واللعاب الذي يسيل من أشداقها وعيونها الجاحظة المرعبة.. هل هذه كلاب أم ذئاب؟

سمّرني الرعب في مكاني، وبدأت الكلاب تنبح سويًّا وهي ترمقني بغضب وتستعدّ للانقضاض عليّ.. لم أُفكّر للحظة أنّني قد أنجو من هذا الموقف لأحكيه لاحقًا.. لكنّني نجوتُ يا (عزيز) بفضل ذلك الشاب الذي ظهر فجأة لا أدري من أين.. قذف الكلاب بعدّة حصاوات كانت بين يديه وصرخ فيها، فتوقّفت الكلاب متردّدة ثمّ لم تلبث أن تراجعت وانطلقت تركض في اتجاه آخر بعيدًا عنّا.. طمأنني الشاب ثمّ تركني وانصرف.. بعدها ظهر أكثر من شخص كانوا يمرّون في الطريق، وبدأت نوافذ بعض البيوت تُضيء مع قدوم الليل، فأنارت الطريق شبه المظلم.. شعرتُ حينها بالأمان يتسلّل إليّ. سألتُهم عن مكان العزاء فدلّوني عليه.

ومن يومها أدركتُ أنّ عليّ الاحتماء بالناس دومًا.

في كلّ مرّة أُدرك أنّ هذا كابوس، ومع ذلك لا أستطيع السيطرة على الذعر الذي يجتاحني وأنا أخطو خطواتي المتثاقلة وأُدرك أنّ مطارديّ سيلحقون بي في أيّ لحظة.. التفتُّ من فوق كتفي ورمقتُ الهول خلفي، كانوا على وشك الوصول إليّ، والرجل المتّشح بالسواد يمشي بخطوات واثقة خلفهم ويُشير نحوي:

هاتوه إليّ، أُريده!

امتدّت الأيدي الحانقة نحوي ثمّ وجدتُ نفسي كالعادة جالسًا ألهث في فراشي.. لماذا أتعامل في كلّ مرّة مع الأمر وكأنّه حقيقي رغم إدراكي أثناء وقوعه أنّه ليس كذلك!

نهضتُ متثاقلاً وأخذتُ أُغلق أنوار الشقّة تاركًا مهمّة إضاءتها لنور النهار، وتركتُ نور الصالة مضاءً حيث جلستُ أمام "اللاب توب".. فتحتُ "الفيس بوك" فوجدتُ أنّ فيديو مصطفى قمر حصد ما يزيد على 400 "لايك"، و100 "كومنت".. فتيات يتحدّثن بانبهار عن سعادتهنّ باكتشافهنّ أنّني أُحبّ مصطفى قمر مثلهنّ، وفتيان يتحدّثون عن ذكرياتهم في فترة التسعينات، وبعض الظرفاء الذين يسخرون من هؤلاء وأولئك.. بحثتُ بين أسماء من وضعوا "لايك" بلهفة. هيّا، لا تُخيّبي ظنّي يا فتاة، يجب أن تبتلعي الطعم!

هتفتُ بفرحة حينما وجدتُ اسم (رِهام)، وقفتُ وسط الصالة وأخذتُ أرقص رقصة النّصر على أنغام الأغنيّة.. لقد جلب بابا نويل أحلامي بينما كنتُ نائمًا، (رِهام) تنازلت أخيرًا وأظهرت اهتمامًا، لأوّل مرّة تُظهر بادرة تواصل –ولو من خلال "لايك"– دون أن أكون أنا البادئ في الإرسال لها..

فتحتُ صفحتها فوجدتُها كتبت "ستيتوس" جديدة تقول:

"هناك دومًا متّسعٌ للألم"

لماذا هذا النكد في الصباح؟!

بدأتُ كتابة "بوست" جديد سيحصل بالتأكيد على "لايك" من (رِهام).. لا يمكنها ألّا تفعل لأنّني سأضع فيه عصارة روحي:

"في بداية التسعينات، بالتحديد سنة 1992، أصدر مصطفى قمر ألبومه الأوّل "لياليكي".. في الحقيقة كان هذا ألبومه الثاني، لأن الأوّل كان "وصّاف" وصدر سنة 1991، لكنّ حرب الخليج لم تلبث أن قلبت الدنيا رأسًا على عقب ولم ينتبه أحد إلى الألبوم، فاعتبره قمر كأنّه لم يصدر، وتعامل مع "لياليكي" باعتباره ألبومه الأول، ثمّ بعد النجاح الذي حقّقه أعاد إصدار "وصّاف" من جديد وكأنّه ألبومه الثاني.

في تلك الفترة كان والدي مايزال حيًا، أما عمّي فكان قادمًا لتوه من السعوديّة بعد أن قضى هناك عشر سنوات كاملة دون أن نراه لا هو ولا أسرته.. كان نزوله بشكل نهائي لأنّ الخليج لم يعد كما كان بعد الحرب، على حدّ قوله.. كنتُ أعرف أنّ لديه ابنين: (إسلام) و(سلمى)، لكنّني لم ألتقِ بهما من قبل.. (إسلام) كان في مثل عمري، و(سلمى) تكبرنا بعدّة

سنوات.. ذهبنا جميعًا إلى الإسكندريّة للتصييف، كنتُ سعيدًا جدًا بصديقي الجديد (إسلام)، لعبنا سويًّا ونزلنا البحر معًا وبنينا قصورًا من الرمال على الشاطئ، وسهرنا ليلاً مع أسرتينا في شوارع الإسكندريّة وكافيترياتها.. كانت تلك الأيام من أسعد أيام حياتي، إن لم تكن أسعدها على الإطلاق.. وكانت أغاني ألبوم مصطفى قمر هي الموسيقى التصويريّة لكلّ هذا.. كان الإسكندرانيّة سعداء بأغنيّة "يا واد يا إسكندراني"، ولا يكّفون عن تشغيلها في كلّ مكان، وحينما تنتهي كنتُ أسمع بقيّة أغاني الألبوم، "دباديبو"، "أصدّق عيونك لو"، "البيانولا"، وغيرها..

فيما بعد حينما كبرتُ حاولتُ أن أفهم ما سرّ جاذبيّة تلك الأغاني، هناك شيء حميمي غير مفهوم فيها يشدّ القلوب.. عرفتُ أنّ مصطفى قمر كان وصديقه سامح العجمي زملاء دراسة، حلما سويًّا أيام الجامعة، كان سامح يكتب ومصطفى يُلّحن الأغاني على الجيتار ويُغنّيها بين الطلبة، ولم تمضِ بضع سنوات حتّى قابلا حميد الشاعري وبدآ تحويل حلمهما إلى حقيقة.. حلمهما الذي جذبتني أغانيه في تلك الفترة وأصبحت مرتبطة شرطيًّا بلحظاتي السعيدة.. هل هو صوت مصطفى قمر الرفيع ما جذبني؟ ألحانه الرشيقة؟ كلمات سامح العجمي الجذّابة؟ أم هو الحبّ والصداقة التي جمعت بينهما؟

انتهت لحظاتي السعيدة.. مات أبي، وخاننا عمّي، وانفصل مصطفى قمر وسامح العجمي، ولم تبقَ سوى الأغاني التي أحببتُها".

مسحتُ دموعي لأتمكّن من رؤية زر نشر "البوست"، ثمّ ظللتُ جالسًا أُتابع فيض "اللايكات" التي انهالت عليّ، بعد ربع ساعة تجاوزت

"اللايكات" الألف.. وبعد ثلث ساعة وجدتُ "اللايك" الذي كنتُ أنتظره من (رِهام) فامتلأتُ نشوة وأدركتُ أنّني انتصرتُ..

هناك فيديو نادر أحتفظ به على "اللاب توب"، كان لديّ على شريط فيديو قديم، ثمّ مع انقراض الفيديو قمتُ بإدخاله على "اللاب توب" ليُمكنني مشاهدته وقتما أُحبّ.. فيديو قديم لمصطفى قمر يُغنّي فيه أغنيّة فلكلوريّة تُدعى "يا طير يا طاير"..

حمّلتُ الفيديو على قناتي الخاصة على "اليوتيوب"، ثمّ أخذتُ وصلته وأرسلتُها في رسالة خاصة إلى (رِهام):

"يبدو أنكِ تعشقين مصطفى قمر مثلي.. أتمنّى أن تُعجبكَ هذه الهديّة :)"

ووضعتُ لها وصلة الفيديو.

مضت ثلاث دقائق، هي مدّة عرض الفيديو، ثمّ وصلني ردّها:

"لا أُصدّق نفسي!

لم أرَ هذا الفيديو من قبل، وكنتُ أظنّني أعرف كلّ ما غناه مصطفى قمر.. لا أعرف كيف أشكركَ يا (نادر).. سأحتفظ بالفيديو لديّ..

شكرًا لكَ مرّة أخرى :)"

ظللتُ أرمق كلماتها مبهوتًا غير مصدّق لإحساس السعادة الذي يجتاحني الآن.. قالت لي شكرًا ووضعت وجهًا مبتسمًا..

كتبتُ لها بسرعة:

"لهذا الفيديو قصّة.. هذه الأغنيّة اعتاد مصطفى قمر أن يغنّيها لزوجته، التي كانت زميلته في الكلّية وجمعت بينهما قصّة حبّ، كما لابدّ أنكِ تعرفين.. ألحّت عليه زوجته أن يُصدر الأغنيّة في أحد ألبوماته، لكنّه أصرّ أن يختصّها وحدها بها.. وهذا الفيديو كان جزءًا من إحدى حفلاته التي حضرتها زوجته، فقرّر أن يغني لها أغنيتها الخاصة أمام الجميع :)"

وصلني ردّها بعد دقيقة:

"قصّة جميلة، يبدو أنكَ خبير في حياة مصطفى قمر :)

بالمناسبة، تأثّرتُ كثيرًا "بالبوست" الأخير الذي كتبتَه"

تأثّرتْ "بالبوست"!

أرسلتُ لها:

"يمكنني أن أكتب رسالة دكتوراه عن مصطفى قمر إن أردتُ.. ومعذرة لو سبّب لكِ "البوست" الأخير أيّ حزن :("

أتاني ردّها:

"بالعكس، استمتعتُ به كثيرًا ولمس قلبي.. بصراحة بعد لقائنا أوّل أمس لم أعتقد أنّ لديكَ مثل هذا الجانب الإنساني!"

أرسلتُ لها وجهًا ضاحكًا، ثمّ كتبتُ:

"ألم أعتذر لكِ عشرات المرّات عن سلوكي تلك الليلة؟ D:

كان عليّ أن أُدرك أنّني لستُ وحدي مع أصدقائي وأن أنتبه لمزاحي أمامكِ :)"

وصلني ردّها:

"مزاح؟ وهل كان هجومكَ على تلك الفتاة المسكينة مزاحًا؟"

آه، الأخت (ولاء) هي المشكلة إذن!

"بداخلي ناقد صارم، حينما أقرأ نصًّا أدبيًا أنسى نفسي يا (رِهام)، أتحوّل لسمكة قرش تقضم بفكّيها كلّ ما يُسيء للأدب.. تلك الفتاة مازال أمامها الكثير، وكان على أحدٍ ما أن يُنبّهها كي لا تنخدع بمدح الأهل والأصدقاء!"

قرأتْ رسالتي ومرّت دقيقتين دون أن يصلني الردّ، فكدتُ أُجنّ، لن أعود إلى المربع صفر بعد كلّ هذا!

لكنّ ردّها لم يلبث أن وصلني:

"ألم تقرأ ما قاله تشيكوف ذات مرّة بخصوص المواهب الشابّة؟ "لا تقصقصوا أجنحة الفراخ الصغيرة".. لا أطلب منكَ أن تمدحها كذبًا، لكن لا تكن قاسيًا عليها، كان بإمكانكَ أن تُوضّح لها أماكن الضعف لديها، وأن تنصحها لتُطوّر من نفسها.. لكنّ ما فعلتَه أنكَ حاولتَ تدميرها، صارحتها بكلّ بساطة أنّها لا تصلح! أنّها لا فائدة منها، والغريب أنكَ فعلتَ كلّ هذا باستمتاع غريب كان يظهر على ملامح وجهكَ وصوتكَ!"

بدأتُ أشعر بالحرج، وكتبتُ لها:

"ربما بالغتُ قليلاً، لكنّني بالتأكيد لم أقصد ما قلتيه"

وصلني ردّها على الفور:

"سأسألكَ سؤالاً: حينما بدأتَ الكتابة، هل كنتَ تكتب كما تكتب الآن؟ أحضر قصّة قديمة لكَ، أحضر أوّل قصّة كتبتها، وحاول أن تحكم عليها بمستواكَ الحالي.. أُراهن أنّكَ ستشعر أنّ كاتبها لا يفقه شيئًا ولا يصلح للكتابة! تخيّل أن يأتيكَ وأنتَ في تلك المرحلة من يُمسِك بقصّتكَ ويُفصّصها سطرًا سطرًا وكلمة كلمة، ثمّ يخرج بنتيجة أنّكَ لا تصلح أن تكتب أصلاً.. هل كنتَ ستستمرّ في الكتابة بعد المرور بتجربة كتلك؟!"

بدأتُ أشعر بندم حقيقي، لو تعرف عدد من أجهضتُ أحلامهم!

"لا أدري ماذا أقول لكِ يا (رِهام).. أنا نادم فعلاً ولو عاد بنا الزمن لتعاملتُ مع تلك الفتاة بشكل أكثر رحمة"

زلزلتني كلماتها التالية:

"الزمن للأسف لا يعود!"

رمقتُ بوجوم "موبايلي" المغلق الذي مازال ملقى في مكانه بجوار "اللاب توب".

سألتُها ماذا بإمكاني أن أفعل في رأيها لأُصلح ما تسببتُ فيه، فنصحتني بأن أُرسل لتلك الفتاة لأُطيّب خاطرها وأُعيد إليها ثقتها بنفسها.. وعدتُها أن أفعل وأنا أعرف أنّني لن أفعل.

ثمّ قضيتُ بقيّة النهار في الحديث معها، تحدّثنا في كلّ شيء تقريبًا، صحيح أنّني كنتُ الأكثر ثرثرة وأنّني حكيتُ لها تقريبًا قصّة حياتي كلّها، بينما كانت هي تكتفي بالتعليق على ما أقول، أو ذكر بعض الحوادث في حياتها التي تُشبه ما حكيتُه لها.. لكنّني لم أتوقّف طويلاً أمام كونها مازالت صندوقًا مغلقًا غامضًا أمامي.. كنتُ مستمتعًا جدًّا بالحديث معها، بأن تقرأ كلماتي وتهتمّ بها لدرجة أن تردّ عليها.

لم أنهض من أمام "اللاب توب" سوى لأُضيء أنوار الشقّة كلّها حينما حلّ الظلام.. لم أتبرّم من تأخّرها في الردّ عليّ، صرتُ أُدرك أنّها تهتمّ بالكلام معي ولا تتعمد تجاهلي.

شعرتُ يا (عزيز) بشعور جديد ينساب في نفسي، شعرتُ بطاقة جديدة تختلج داخل صدري، وأنا الذي تعاملتُ بآليّة مع أغلب الأمور طوال السنين الماضية.. شعرتُ أنّني أُبعث من جديد!

وحينما استأذنتْ أخيرًا في إنهاء الحوار للذهاب لبعض شأنها، أغلقتُ "اللاب توب" وأخذتُ أتمشّى في الشقّة على غير هدى.. كنتُ أشعر بنشوة جارفة لم تزرني منذ سنين، ربما لم تزرني من قبل أبدًا.. كلّ النجاح والشهرة التي حقّقتُها لم أشعر معها بمثل هذا الشعور.. شعور بالجدوى وبأنّني موجود فعلاً في الحياة، أنّني لستُ مضطرًا لفعل أيّ شيء لإثبات أيّ شيء، يكفيني فقط أنّها راضية عنّي.

ظللتُ أدور حول نفسي في الشقّة حتّى أصابني التعب فتمددتُ على سريري والابتسامة لا تُفارق وجهي.. لم أفتح "موبايلي" ولم أُحاول أن

Obeikan.com

أكتب أو أقرأ أو أستعمل "اللاب توب" مرّة أخرى، كنتُ أودّ الاحتفاظ بهذا الشعور فقط.

ومنذ فترة طويلة يا (عزيز)، منذ فترة طويلة للغاية، نمتُ دون أن أحلم بكوابيس..

obeikan.com

استيقظتُ في اليوم التالي شاعرًا بالاكتفاء، بالشبع، أنّني سعيد لمجرّد أنّني موجود في نفس الدنيا التي تحملها، أتنفّس نفس الهواء الذي تتنفّسه، ومازال في عمري بقيّة لأُحدّثها وأرى كلماتها..

لا أدري يا (عزيز) سبب ما حدث، كانت الفتيات حولي طوال الوقت، ولم أُحاول من قبل التقرب لإحداهنّ أو لفت انتباهها، أعترف أنّني كنتُ أستمتع كثيرًا حين ألمس إعجابهنّ بي، لكن لا شيء أبعد من هذا، لو حاولت إحداهنّ أن تُعمّق علاقتها بي كنتُ أنفر منها وأطردها من دائرتي.

هل السبب أنّ (رِهام) لم تُحاول التقرّب منّي فحاولتُ أنا التقرّب منها، ولما استجابت شعرتُ مع انتصاري أنّني ملكتُ الدنيا؟

لم أعترف في ذلك الوقت أنّ المشاعر التي تنبض في أعماقي حبٌّ، افترضتُ أنّه نوع من الإعجاب أو التعلّق.. الفتاة رغم كلّ ما أظهرته من نفورٍ منّي كانت في قرارتها معجبة بي، أُتيحت لي فرصة نادرة لاكتشاف ذلك من خلال ما كتبته عنّي في مُدوَّنتها، ونحن الرجال شئنا أم أبينا نتعلّق بالمرأة التي تُعجب بنا إعجابًا حقيقيًا.. وهل هناك إعجاب حقيقي أكثر من أن تُخفي الفتاة إعجابها وتتظاهر أمام رجلها بأنّها لا تُطيقه؟ أيّ تحدٍّ وأيّ انتصار يجده المرء في علاقة كهذه؟

أسرعتُ إلى "اللاب توب" وأرسلتُ لها أوّل ما خطر على بالي:

"صباح الخير يا سمو البرنسيس :)

تخيّلي أنّ الكلام أخذنا بالأمس ونسينا أن نضع حرفًا واحدًا في "جروب" "الكيان"؟ سيقتلنا الرفاق هناك بسبب إهمالنا!"

وصلني ردّها بعد دقائق:

"صباح الروعة :)

أنا لم أنسَ، تكلّمتُ بالأمس في الهاتف طويلاً مع (كريم) واتّفقنا على بعض النقاط الأساسيّة. سأكتبها في "الجروب" حينما أجد وقتًا :)"

تحدّثتْ مطوّلاً مع (كريم) على الهاتف؟ شعرتُ بقبضة باردة تعتصر قلبي.. أعرف أنّهما صديقان منذ سنوات، لكن لم أعتقد أنّ العلاقة بينهما تجاوزت الإنترنت لتصل إلى الهواتف.. كنتُ أثق في (كريم) وأعرف أنّه ليس بينهما أكثر من الصداقة. لو كان هناك لأخبرنا أنا و(مصطفى) و(صلاح)، فلم نعتد إخفاء شيء عن بعضنا.. لكن لا أستطيع تخيّل أن تكون قد أنفقت وقتًا في الحديث مع (كريم) في حين كان بإمكانها إنفاقه معي!

تملّكتني شجاعة مفاجئة فسألتُها:

"لماذا تتأخّرين كلّ مرّة في الردّ عليّ.. هل أنتِ مشغولة؟"

أجابتني بعد دقيقة:

obeikan.com

"لا أبدًا، لكنّني أضطر أحيانًا للذهاب لأقوم بشيء من أعمال المنزل، أو أترك "اللاب توب" بضع دقائق لأختي لتُجري عليه بعض الأبحاث الخاصة بدراستها".

عرفتُ أنّها تُقيم وحدها مع أختها في شقّة صغيرة في 6 أكتوبر.. سألتُها عن أسرتها وكيف سمحوا لهما بالإقامة وحدهما، لكنّها لم تردّ، فعرفتُ أنّني تجاوزتُ حدودي وأنّني لم أصل بعد للمكانة التي تسمح بإلقاء مثل هذه الأسئلة.

وجدتُ أنّ موعد ذهابي إلى الدّار قد فات، فأرسلتُ إيميلاً جديدًا إلى (مها) أُخبرها أنّني مُتعَب ولن أستطيع المجيء اليوم أيضًا، وقضيتُ بقيّة النهار في تبادل الرسائل مع (رِهام).

كانت تتأخّر أحيانًا في الردّ لما يزيد عن ربع الساعة، لكنّني لم أهتمّ.. ظللتُ أنتظر ردودها باهتمام، واكتشفتُ أنّ هذا الانتظار يزيد الأمر متعة.. كأنكَ طفل صغير تنتظر بفارغ الصبر هديّة جديدة أو حلقة جديدة من كارتونكَ المفضّل.

ولم أعد أهتمّ كذلك باقتضابها في الحديث، ولا ابتعادها عن الأمور التي تخصّ حياتها، خصوصًا وأنّها منحتني وسط اليوم دليلاً جديدًا على إعجابها، قالت لي وسط رسائلنا:

"أتدري؟ حينما رأيتُكَ منذ يومين شعرتُ أنّنا التقينا من قبل!"

أرسلتُ لها وجهًا ضاحكًا وقلتُ:

"هل أعتبر هذا نوعًا من التحرّش؟ رأيتُكَ قبل هذا، ثمّ ما رأيكَ أن تأتي لشقّتي الخالية لأُعرّفكَ على ماما... إلخ"

وضعت وجهًا ضاحكًا وكلمة LOL طويلة، ثمّ قالت:

"أتكلّم بجدّية.. وجهكَ يبدو مألوفًا لي وكأنّني التقيتُكَ من قبل"

كتبتُ لها:

"بالتأكيد رأيتيني في التلفاز ذات مرّة، ظهرتُ في الشهور الماضية مرّتين مع محمود سعد، ومرّة مع منى الشاذلي :)"

لم أُرد أن أُذكّرها بأنّها رأتني في برنامج "حلم ولّا علم"، لا يجب أن تعرف أنّني قرأتُ التدوينة القديمة وعرفتُ أنّها معجبة بي.

هل أقول لها إنّ الأرواح جنودٌ مجنّدة وأنّ هناك أشخاصًا قُدّروا لبعضهم منذ الأزل، حينما يلتقون يتذكّرون اجتماعهم القديم في عالم الأرواح؟

"أعتقد أنّ وجهي من النوع المألوف، (كريم) أيضًا حينما تعرّفتُ عليه منذ بضع سنوات أخبرني أنّه شعر أنّه التقاني من قبل"

وهكذا مضى اليوم وأنا لا أفعل شيئًا –كما حدث بالأمس– سوى تعميق صلتي بها، آملاً أن أكون قد أصبحتُ من دائرتها المقرّبة.. يومان آخران بهذه الحميميّة ويصير بإمكاني سؤالها عن أسرتها وعمّا جرى لها منذ سنتين وجعلها أكثر تحفّظًا مع الآخرين.. لم أنسَ شكل هالتها الغريب، وسأعرف سرّه قريبًا..

obeikan.com

"أتعرفين ما أودّ معرفته الآن؟"

غاظني أنّها لم تسألني "ماذا"، وكأنّها تنتظر أن أُخبرها على الفور.. لم أُرسل لها شيئًا وتمسّكتُ بالعناد، حتّى أرسلت لي علامة استفهام يتيمة.. حسنًا يا (رِهام)، سأُجاريكِ..

"شعركِ الأحمر، أتمنّى لو أعرف لونه الحقيقي!"

ردّت عليّ بوجه مبتسم ولم تُعلّق.. حتّى هذا من ضمن الأسرار المؤجَّلة؟!

استغرقتُ تمامًا في شاشة "اللاب توب" ونسيتُ كلّ ما حولي.

لذلك لكَ أن تتخيّل مدى فزعي حينما انتبهتُ فجأة إلى المفتاح وهو يدور في قفل باب الشقّة، قفزتُ من مكاني ورمقتُ الباب بفزع، قبل أن ينفتح ليندفع (أدهم) من خلاله نحوي وهو يهتف:

باباااااااااااااااااااااااااااا..

رفعتُه بين ذراعيّ بشكل آليّ بينما يحتضن رأسي بذراعيه الصغيرتين..

ثمّ خطت (إيناس) إلى داخل الشقّة وهي تجرّ وراءها حقيبة كبيرة وتهتف بغضب:

خشيتُ أن يكون شيئًا قد وقع لكَ! يومان و"موبايلكَ" مغلق؟! لم أتمكّن من إخباركَ أنّنا سنعود اليوم مع أخي لتنتظرنا وتُساعدني في حمل الحقيبة، ماذا أصابكَ يا (نادر)؟! نقضي أسبوعًا في المصيف فلا تسأل عنّا ولو ليوم واحد؟

obeikan.com

ثمّ رمقت الشقّة وهتفت بغيظ:

كالعادة تُضيء كلّ أنوار الشقّة وكأن الكهرباء مجانيّة!

رمقتُها بوجوم وكأنّني استيقظتُ لتوّي من النوم..

أنتَ تعرف بالطبع يا (عزيز) أنّني متزوّج ولديّ طفل في الثالثة، أليس كذلك؟

ob eikan.com

لم أُحبّ في حياتي سوى (سلمى) ابنة عمّي..

كانت تكبرني بثلاث سنوات، لكنّني لم أقف طويلاً أمام هذا الأمر، فكّرتُ أنّه في يومٍ ما، بعد عشر سنوات مثلاً، سأكون شابًا يافعًا وهي فتاة ناضجة كالزهور ولن يشعر أحد بفرق السنّ بيننا.. حينها سأتقدّم لخطبتها ولن يُعارض أحد، سآخذها بين ذراعيّ وأدور بها في قاعة زفافنا، أدور بها وأدور حتّى نشعر بالدوار ونسقط على الأرض ونحن نضحك من حماقتنا.

لم تكن باهرة الجمال، لا يا (عزيز)، لم يكن هذا سبب تعلّقي بها.. ربما كنتُ على أعتاب المراهقة في ذلك الوقت، لكنّني لم أكن سطحيًّا لهذه الدرجة.. حينما رأيتُها أوّل مرّة وأنا في الثانية عشرة من عمري، أثناء رحلة أسرتينا إلى الإسكندريّة، شعرتُ أنّ هذه هي "هي" التي لا أُريد أحدًا سواها.. نصف التفّاحة الآخر الذي سيُكملني ولن أحتاج معه إلى شيء آخر.

كنتُ أنتشي كلّما رأيتُ في عينيها نظرة إكبار لذكائي الذي يفوق سنّي، وأتعمّد تكرار ما أثار انبهارها، وأُحبط حينما لا أجد لديها نفس ردّة الفعل.. أمّا حينما كانت تُعاملني كأختي الكبرى -وكثيرًا ما كانت تفعل- كنتُ أغضب وأتألّم وأنزف بيني وبين نفسي.. عملتُ على أن أنضج سريعًا في تلك الفترة كي أُصبح لائقًا بها، راقبتُ نفسي كي لا أضبطها وأنا أتصرّف

كالأطفال، وتعمّدتُ التعامل كالكبار وأنا أتخيّلها تُتابعني من مكانٍ خفيّ، أتصوّر نظرتها وما يدور في رأسها تجاهي..

المشكلة أنّني لم ألتقِ بها في حياتي سوى مرّات معدودات، في تلك الأوقات التي كان عمّي يزورنا فيها مع أسرته قادمًا من الصعيد، وعلى قلّة تلك المرّات كانت بالنسبة لي هي حياتي الحقيقيّة..

ثمّ انتهى كلّ شيء فجأة بوفاة أبي ونذالة عمّي معنا.. لم أتصوّر أنّ بإمكاني التقدّم لخطبة ابنة من خاننا وحاول الاستيلاء على ميراثنا.. لكنّني كنتُ أعود لأُحاور نفسي وأُقنعها أنّها لا ذنب لها في الأمر، أنّها بالتأكيد غير راضية عن تصرّفات والدها، أنّني لو تزوجتُها فسآخذها بعيدًا عنه ولن نترك له مكانًا في حياتنا.. ظللتُ هكذا حتّى وصلني من بعض أقاربنا أنّها تزوّجت!

هكذا فجأة، لم أعرف أنّها تُحبّ غيري، ولا أنّها خُطبتْ لغيري، فقط أخبروني فجأة أنّها تزوّجت، تزوّجت شخصًا لا تعرفه، تقدّم لها بطريقة زواج الصالونات ووجدوه مناسبًا فوافقوا عليه، ووافقت هي أن تقضي ما بقي من حياتها معه.. هو الذي لا يُكنّ لها أيّ مشاعر، ولا يبيت لياليه يُفكّر فيها، ولا يستمع إلى أغاني مصطفى قمر مرارًا وتكرارًا وهو يتخيّلها بين عينيه، هكذا بكلّ بساطة حصل عليها آخر لمجرّد أنّه مناسب لها.. ما أعجب هذه الدنيا!

ظللتُ لشهور طويلة صامتًا أنطق الكلمة بصعوبة، ومن يراني يعتقد أنّني مازلتُ متأثّرًا بوفاة والدي، دفنتُ غضبي في فنون القتال التي بدأتُ في

التدرّب عليها، وكلّما اختليتُ بنفسي كنتُ أجد دموعي تسيل على وجهي وحدها، أنتبه فإذا بي أُجهش في البكاء، كنتُ أشعر بشفقة شديدة على نفسي، لأنّني لم أكن أستحقّ أن ينتهي حبّي بهذه الطريقة، من قبل حتّى أن يبدأ.

كان أكثر ما يؤلمني يا (عزيز) أنّها لا تعرف، ربما لم يدر في خلدها أصلاً أنّني أعتبرها حبيبتي، لم تأخذني بجدّية لتعتبرني ندًّا لها أو أصلح لأكون حبيبها.. ولم أرها بعدها أبدًا، كانت تصلني أخبارها مع أخبار عائلة عمّي من آن لآخر، عرفتُ أنّها صارت تُنجب الطفل وراء الآخر وكأنّ هذه مهمّتها الوحيدة في الحياة.. لن تعرف أبدًا أنّها معي كانت ستصير ملكة مُتوّجة، كنتُ سأدلّلها ليل نهار، لم أكن لأسمح لها سوى بإنجاب طفلين، صبي وفتاة، لا أُريدها أن تُنهكَ كثيرًا في الحمل والولادة وتربية الأطفال.. كنتُ سأساعدها في تربيتهما، وسأفرح كثيرًا حين تتشكّل ملامحهما لتحمل وجهها أكثر من وجهي، سأفرح لأنّه سيصير لديّ اثنان آخران منها..

هل سيعاملها زوجها بنفس الشكل؟

في تلك الفترة تعاملتُ باستهتار مع كلّ شيء، وحصلتُ على مجموع منخفض في الثانويّة العامّة فلم أستطع الالتحاق بكلّية الهندسة كما كنتُ أتمنى، ووجدتُ نفسي في كلّية الآداب، وبعد عدّة سنوات كنتُ مُدرّسًا للغة العربيّة في مدرسة قريبة من بيتنا.. لم أهتمّ كثيرًا بنوعية عملي لأنّنا، أمّي وأنا، كنّا نحصل على دخل مناسب من شركة الاستيراد والتصدير التي استثمرنا فيها ما حصلنا عليه من بيع الأراضي التي

ورثناها في الصعيد من أبي، تلك التي حاول عمّي حرماننا منها بحجّة ألا تتفتّت أرض الأجداد.

دفنتُ همومي في الكتابة، ومن آن لآخر كنتُ أُحاول نشر بعض أعمالي، وأحضر الصالونات الثقافيّة مع الأصدقاء الذين يشاركونني نفس الهواية، حتّى نجحتُ في نشر روايتي الأولى، ثمّ نجحتُ في الحصول على الموافقة على سيناريو فيلم الخطيئة الأولى، وجرت الأمور بسرعة بعد ظهوري في برنامج "حلم ولّا علم".. في تلك الفترة لم يعكر صفو نجاحي سوى مرض والدتي، كانت تشعر بدنو نهايتها فأصرّت على أن أُحقق حلمها القديم بأن أتزوّج لتطمئنّ عليّ.. كانت مشاعري مُنطفئة، معطوبة، وكلّ الإناث بالنسبة لي هنّ نفس الظلّ الباهت الذي لا يحمل ملامح مادمن لسن (سلمى). فكّرتُ أنّه إن كان عليّ أن أتزوج ذات يوم فتاةً ليست (سلمى) فماذا سيفرق إن تزوّجتُها الآن أم فيما بعد؟

استسلمتُ لرغبة أمّي، وتظاهرتُ بالاقتناع أنّ أنسب زوجة لي هي (إيناس) ابنة خالتي منى.. وتمّ كلّ شيء بسرعة، تزوّجتُ (إيناس) التي كنتُ أعلم أنّها معجبة بي منذ سنين طويلة، وتُوفّيت أمّي بعدها بشهور قليلة بعد أن اطمأنّت عليّ.. كان الفقد الكبير الثاني في حياتي، ولم تنجح محاولات (إيناس) في تعويضي.. كنتُ أشعر بالغيظ منها طوال الوقت لأنّها اعتقدت أنّ بإمكانها ملأ الفراغ الذي تركته أمّي، ولأنّها لم تكن (سلمى).

لم أتوقّع يا (عزيز) أنّ استعادة تلك الأحداث ستُصيبني بالألم وكأنّني مررتُ بها من جديد.. لا أدري لماذا أقصّ عليكَ كلّ هذا وأنتَ في الأصل تعرفه، لعلّي وأنا أتحدّث إليكَ أتحدّث إلى نفسي..

سأتوقّف هنا وأستعيد يومًا آخر أعتبره الآن من أبهج أيام حياتي.. ذلك اليوم الذي عدتُ فيه من معرض الكتاب على قدميّ مبعثر النّفس، أتذكره؟

يومها سرتُ وأنا لا أشعر بمن حولي، لم أركب سيّارتي، نسيتُها بجوار المعرض، سرتُ شاردًا على قدميّ وكأنّني مُنوّمٌ لا أرى ما أمامي.. قادتني غريزتي دون أن أشعر، فلم ألبث أن وجدتُ نفسي في السيّدة عائشة.. كم مرّ عليّ من وقت؟ ربما ساعتان أو ثلاث، لم أشعر حتّى بالكدمات التي في وجهي، لكنّ نظرات الناس الفضوليّة كانت تُذكّرني بها.. حتّى البرد لم يؤثّر فيّ مع النار المتّقدة في صدري.. أحيانًا كنتُ أشعر ببلل تحت فتحة أنفي، فأُخرج بآليّة منديلاً من جيبي وأمسح تلك الدماء القليلة التي غافلتني ففرّت، ثمّ ألقي بالمنديل بعيدًا.. بذلتي من نوع **Armani** كانت في حالة يُرثى لها، القميص الأبيض كان جيبه وأكثر من زر فيه ممزقًا، وربطة العنق متدلّية بشكل بائس، بينما التراب يغطّي ظهر السترة وأجزاء لا بأس بها من البنطلون.. كلّ هذه التفاصيل لم ألحظها سوى حينما عدتُ فجر اليوم التالي إلى المنزل، فلم أكن أعرف وقتها أنّني لن أبيت ليلتي هناك.

كانت الأفكار تتقافز في ذهني، أسئلة غير مكتملة تدهسني بلا رحمة ذهابًا وإيابًا، كيف، ولماذا تفعل بي هذا؟ لم تخدعني عيناي فيما رأيتُ، كانت بين ذراعيه تحتمي به.. تحتمي به بينما أُقاتل أنا للذود عنها، كيف لم ألحظ من قبل؟! كم كنتُ أحمق ساذجًا! لقّنتُ أولئك الفتية درسًا لن ينسوه أبدًا.. لكن ماذا خسرتُ في المقابل؟ هل سأجد لنفسي فيديو جديدًا على "اليوتيوب"؟ "شاهد ماذا فعل (نادر منصور) في معرض القاهرة الدولي للكتاب.. شاهد قبل الحذف"!

لو كنتُ سأكتب عن هذا الموقف، لو كنتُ سأصف شخصيّة تمرّ بنفس الظروف، لقلتُ إنّني أشعر الآن بالغثيان وأرغب في التقيّؤ، تقيّؤ كلّ ما مررتُ به، كلّ ما شعرتُ به، كلّ لحظات الضعف والأحلام الجميلة التي اتّضح أنّها بلا طائل، أنّها مجرّد وهم حقير خدعتُ نفسي به طوال الشهور الماضية لأنّني غبي.. غبي ووقعتُ في نفس الفخ الذي وقع فيه الملايين قبلي، لماذا ظننتُ أنّني نجحتُ؟ لماذا تركتُ نفسي للأحلام وبنيتُ القصور وسكنتُها معها؟ أكان كلّ ذلك كي أراها في النهاية بين ذراعيه؟

لكنّني لم أكن أرغب في التقيّؤ، فقط كنتُ أشعر بالعلقم في حلقي، وصدري مُكتوٍ بالألم، وعيناي ملتهبتان بدموع أُحاول حبسها كي لا تخرج.. ما الذي فعلتُه بنفسي؟!

هناك جزء بداخلي أدرك الموقف كلّه من اللحظة الأولى واستوعبه ووجده متوقّعًا، وجزء آخر تائه يشعر أنّ هذا لن يكون في النهاية سوى حلم بائس، كابوس رسمه عقلي الباطن ليُعبّر به عن أقصى مخاوفي.

حينما وصلتُ السيّدة عائشة بدأتُ أشعر بألم قدميّ.. سآخذ سيّارة أجرة إلى البيت، يكفيني تعبًا لهذا اليوم.. مددتُ يدي إلى جيبي الخلفي لأنتزع محفظتي لكنّني فوجئتُ بأنّها غير موجودة، ربما سقطت أثناء القتال، أو لعلّ أحدهم نشلها عندما لم أكن منتبهًا..

بحثتُ في جيوبي فوجدتُ قطعتي عملة.. جنيهًا ونصف، حسبما أذكر فهذه أجرة الميكروباص الصاعد إلى المقطّم.. فلأعد إلى البيت الآن ثمّ أتدبر أموري لاحقًا. دخلتُ موقف الميكروباصات شاردًا ودلفتُ إلى أوّل ميكروباص صادفني، جلستُ في الأريكة الأخيرة كي لا يُزعجني أحد.. كنتُ أشعر بالشفقة على نفسي وعيني تُراودني لتتفجر براكينها وأنا أبذل جهدي للسيطرة عليها.. همستُ رغمًا عنّي: ساعدني يا رب لأتماسك حتّى البيت.. ساعدني كي لا يرى دموعي أحد.

عبر راكب عجوز أمامي في تلك اللحظة ليجلس إلى الجانب الآخر من الأريكة التي جلستُ على طرفها بجوار النافذة، وقال لي بمرح:

مساء الخير.

أجبتُه أنّه مرحبًا، لكن خرجت الكلمة من فمي كهمهمة غير مفهومة.

لاحظتُ أنّه يرغب في أن يقول شيئًا لكنّه صمت حينما أشحتُ وجهي بعيدًا.

أخذتُ أرمق السماء المظلمة خارج نافذة الميكروباص الذي امتلأ وبدأ في التحرّك.. أخذ الركّاب يجمعون الأجرة مع بعضهم، فمنحتُ الجنيه ونصف للجالس بجواري ليُمرّرها بدوره إلى الراكب أمامه. تأمّل قطعتي

العملة لحظة ورمق بذلتي المتّسخة ووجهي الذي أغرقته الكدمات والخدوش، ثمّ قال لي:

الأجرة جنيهان يا أستاذ.

قلتُ معترضًا:

هل زادت الأجرة؟ أجرة المقطّم جنيه ونصف حسبما أذكر.

- هذا ميكروباص القطّاميّة وليس المقطّم!

تلفّتُ حولي غير فاهم:

ولكن.. أليس هذا ميكروباص المقطّم؟

اللعنة على كلّ شيء! أبلغ بي الشرود أن أركب الميكروباص الخاطئ دون أن أنتبه؟! أهذا ما فعلتَه بي؟! ألن تكفّ عن إذلالي؟!

- سأدفع أنا نصف الجنيه الناقص.

رمقتُ العجوز المتودّد بحدّة.. لماذا افترض أنّني بحاجة لمن يدفع لي؟

رددتُ عليه بعصبيّة:

شكرًا، لستُ بحاجة لذلك.. سأنزل هنا.

- نحن الآن على الطريق الدائري ولن تجد بسهولة مواصلة لتعود إلى السيّدة عائشة.

تجاهلتُه وأنا أهتف بالسائق ليسمعني:

obeikan.com

على جنب يا أسطى.. معذرة، يبدو أنّني ركبتُ هنا خطأً.

عاد العجوز يقول مبتسمًا:

لا ترفض المساعدة حينما تأتيكَ.

رمقتُه لأوّل مرّة.. كان في الخمسين، أصلع الرأس، قويّ البنية وكأنّه يمارس الرياضة بانتظام، عيناه وديعتان مرحتان، لحيته نامية وكأنّه أهمل حلاقتها أسبوعًا أو أكثر.. نهضتُ من مكاني محاولاً العبور من فوق قدميّ الجالس بجواري، بينما الميكروباص يتباطأ ليقف لي.

خطوتُ بقدميّ فوق الأرض الإسفلتيّة، بينما انطلق الميكروباص قبل حتّى أن ينغلق بابه.. السيّارات تمرّ مسرعة والطريق مظلم موحش. انتبهتُ حينها فقط أنّني نسيتُ استرجاع الجنيه ونصف، ليس معي ملّيم واحد لأذهب إلى أيّ مكان.. فكّرتُ لوهلة أن أركض وراء الميكروباص لأُوقفه وأستعيد نقودي ثمّ استسخفتُ الفكرة.. أهون عليّ أن أعود إلى البيت مشيًا عن أن أركض هكذا من أجل جنيه ونصف!

فجأة توقّف الميكروباص على بعد عدّة عشرات أمتار منّي وانفتح بابه لينزل العجوز المتودّد، أشار للركّاب محييًا قبل أن ينطلق الميكروباص مبتعدًا.. رمقتُه بدهشة وهو يشدّ الخطا نحوي ويهتف ضاحكًا:

نسيتَ أن تستعيد أجرتكَ فجئتُكَ بها.

الغريب في الأمر يا (عزيز) أنكَ في ذلك اليوم، وبعد كلّ هذا، لم تُعد لي الجنيه ونصف!

في ذلك اليوم الذي نسيتُ فيه أنّني متزوّج تمالكتُ نفسي سريعًا وحاولتُ الانشغال عن (إيناس) بمداعبة (أدهم).. لكنّ تلك الأخيرة انتبهت إلى أنّ هناك شيئًا ليس على ما يرام بخصوصي، فتركت حقيبتها عند الباب وتوقّفت عن وصلة اللوم، وسألتني بقلق:

هل أنتَ بخير يا حبيبي؟

في تلك الفترة كنتُ أجد (إيناس) شخصيّة لزجة، لحوحة، ينحصر نشاطها في محاولة لفت انتباهي أو إشعاري بالذنب! نعم يا (إيناس)، أنا بخير، منذ ثوانٍ قليلة كنتُ أُرسل رسالة لفتاة أُحاول لفت انتباهها وإثارة إعجابها، أتمنّى أن تطمئنكِ هذه المعلومات!

- لماذا لم تذهب إلى المكتب اليومين الماضيين، اتّصلتُ بـ(مها) وأخبرتني أنكَ لم تحضر.. هل أنتَ مريض؟ لماذا لم تسأل عنّا؟ قلقتُ عليكَ يا حبيبي.

حبيبي حبيبي حبيبي، كيف حالكَ يا حبيبي؟ أين أنتَ يا حبيبي؟ هل تحبّني يا حبيبي؟ لابدّ من "يا حبيبي" كلّ ثلاث كلمات وإلا خَسِرتْ حبّي!

- لا شيء، أُحاول العمل على روايتي الجديدة.

تهلّلت أساريرها:

رائع! يجب أن أقرأ ما كتبتَه، لا تتصوّر مدى فرحتي لرؤيتي سطوركَ قبل قرائكَ.. أنا...

قاطعتُها بغضب:

(إيناس)! لِمَ لا تُغيّري ملابسكِ وترتاحي قليلاً من السفر؟ خذي حمّامًا ساخنًا وتناولي بعض الطعام ثمّ ثرثري كما تشاءين!

انكتمت مع ثورتي المفاجئة وغمغمت بخجل:

سأُغيّر ملابسي وأُعدّ لنا شيئًا نأكله يا حبيبي، لابدّ أنكَ لم تتناول طعامًا جيّدًا طوال الأسبوع الذي تركناكَ فيه.. هل افتقدتنا؟ أعني (أدهم) وأنا؟

تجاهلتُها ولم أردّ عليها، فحملت حقيبتها وذهبت بها إلى غرفتنا تاركة (أدهم) معي في الصالة أمام التلفزيون.

أتدري ما مشكلة (إيناس) يا (عزيز)؟ أعلم أنّها طيّبة وتُحبّني، لكنّها تُحاصرني بشكل مبالغ فيه.. منذ صغرنا وهي تعتقد أنّني مُتيّم في هواها، لا أدري لماذا! صحيح أنّنا قضينا أغلب طفولتنا معًا في بيت جدّي، لكنّني كنتُ دائم التجاهل لها، خصوصًا بعد تعلّقي بـ(سلمى)، فمن أين جاءتها فكرة أنّها فتاة أحلامي؟!

وحينما مرضت أمّي وتقدّمتُ لخطبتها كانت ترمقني بنظرة مبتهجة تقول: أخيرًا جئتني! كنتُ أعلم أنّكَ ستفعلها! ثقتها هذه كانت تزيد حنقي عليها. لكنّها فوجئت ببرودي معها بعد الزواج، طوال سنوات زواجنا الأربعة ظللتُ أتعامل معها باعتبار أنّها زميلة سكن مزعجة، فسيطرت عليها فكرة

أنّها ارتكبت خطأً ما جعلني أتغيّر تجاهها ولا أُحبّها كما كنتُ أفعل في السابق! ومنذ ذلك الحين وهي تُحاول بشتّى الطرق التكفير عن هذا الخطأ المجهول.. لم أكن أهتمّ بها سوى في لحظاتنا الحميمة في الفراش، حينها فقط كنتُ أُعاملها كأنثى.. فتنتعش وتسعى للمزيد من تلك اللحظات وتُحاصرني في الأوقات التي لا أرغبها فيها، فيزيد سخطي عليها..

لم أكن أُريد أن أظلمها، تمنّيتُ أن تمضي الحياة بيننا كما تفعل مع أيّ زوجين يعيشان سويًّا بالقصور الذاتي، لكنّها كانت تُصرّ أن يكون العشق ملتهبًا متّقدًا بيننا، تسعى لتلك الصورة المثاليّة بحماس وصبر يُثير الحنق ويُفقدني أعصابي.. لو أنّها فقط تعاملت معي كما أتعامل معها لعاش كلانا في سعادة وهدوء، لكنّها تُصرّ على بلوغ ما لا يُمكن بلوغه.. ربما المشكلة في خيالها الجامح الذي يُشعل طوال الوقت وقود رومانسيتها، خيال أحسدها عليه، لو كان لديّ مثله لكتبتُ رواية عظيمة كلّ شهر.. خيالها هيّأ لها أنّها قد تكون بطلة مسلسل تركي طويل من تلك المسلسلات التي لاتفتأ تشاهدها ليل نهار، البطل الذي لديه عقدة ما في حياته، والبطلة المسكينة التي تُحاول كسب ثقته ومن ثمّ قلبه.. لا تُدرك أنّها أبدًا لن تصل لقلبي لأنّني لن أسمح بذلك.. كلّ محاولاتها لا تفعل أكثر من إثارة تقزّزي. أحيانًا حينما أكون بعيدًا عنها أُشفق عليها وأودّ لو أحنو عليها قليلاً لأُريحها، لكنّني حين أكون أمامها أمتلأ كراهية لها، أكره افتعالها ورومانسيتها وطيبتها معي، أكره أنّها تُذكّرني طوال الوقت بأنّني فشلتُ في الحصول على (سلمى)، أكره أنّها موجودة في المكان الذي كان محجوزًا لـ(سلمى)!

أحيانًا تفقد السيطرة على أعصابها فتنفجر في وجهي وتُعنّف برودي معها وتجاهلي لها، تخيّل يا (عزيز) أنّني في تلك الأوقات فقط أمتلأ شفقة عليها، أشعر أنّها أراحتني بغضبها من شعوري بالذنب تجاهها، لكن قبل أن أبدأ في تطييب خاطرها أُفاجأ بها تتراجع فجأة وتعتذر لي عن عصبيتها، فامتلأ نقمةً عليها من جديد.

بعد شهور من زواجنا تُوفّيت والدتي، ظللتُ أسابيع بعدها أُقلّب في رأسي فكرة أن أُطلّقها، فلم يعد لزواجنا معنى بعد رحيل أمّي، لكنّ تكوّر بطنها بـ(أدهم) أخرج الفكرة من رأسي نهائيًا.

أتدري ما الذي يغيظني فيها أيضًا؟ أنّها لا تغار عليّ! هل قابلتَ من قبل امرأة لا تغار على زوجها؟ لو أنّ امرأة غيرها دخلت البيت فجأة لتجد زوجها الذي لم يسأل عنها في سفرها منذ عدّة أيام، زوجها الذي غاب عن عمله يومين وأغلق هاتفه، تجده شاردًا أمام "اللاب توب" وبدلاً من أن يستقبلها بالأحضان إذا به يرمقها وكأنّه فوجئ بوجودها في العالم؛ فما الذي سيتبادر لذهنها؟ أنّ معه -مثلاً- امرأة أخرى في البيت؟ أنّه يتحدّث -مثلاً- مع (رِهام) على "الفيس بوك" محاولاً التسلّل لعالمها؟ لكنّ (إيناس) لم يتبادر لذهنها سوى أنّني لستُ على ما يرام!

في بداية زواجنا كنّا نسير معًا في معرض الكتاب، وتعرّفتْ عليّ إحدى القارئات رغم أنّني لم أكن مشهورًا حينها كما أنا الآن، استوقفتني وطلبت أن تحصل على صورة معي.. كانت جميلة، وتوقّعتُ أنّ الأمر سيُثير استياء (إيناس) التي وقفت جانبًا تنتظر أن تنتهي الحسناء من التقاط صورتها

o beikan.com

"السيلفي" معي، لكنّني فوجئتُ بها ترمق المشهد بابتسامة بسيطة. سألتُها بدهشة إن كان الأمر قد ساءها فردّت عليّ بحماس:

أنا أثق بكَ وأعرف أنّ مشاعركَ لي وحدي، منذ صغرنا كانت لي وستظلّ هكذا حتّى نلتقي في الجنّة!

حينها قاومتُ بصعوبة أن أصفع غرورها بأن أحكي لها عن (سلمى).. بدأتُ وقتها أُدرك أيّ كائن بارد المشاعر تزوّجتُه. لكن بيني وبينكَ أراحني الأمر كثيرًا، لو كانت من النوع الغيور الذي ينزعج لاقتراب أيّ أنثى منّي لتحوّلت حياتي إلى جحيم مع ازدياد شهرتي يومًا بعد الآخر وإحاطة المعجبات بي.

سأزيدكَ من الشعر بيتًا: أتدري ما هواياتها؟ كأيّ امرأة سطحيّة كانت تعتقد أنّ الطريق إلى الرجل معدته، لذلك كانت لا تملّ من الجلوس أمام قنوات وبرامج الطبخ، تتعلّم الوصفات الجديدة وتُحاول تطبيقها.. ربما يمرّ شهر كامل علينا يا (عزيز) دون أن تُكرّر طبخة واحدة صنعتها سابقًا، كلّ يوم نوع جديد من الطعام، تنوّع قد يُدهشكَ في البداية، لكنّكَ لن تلبث أن تملّه، لأنّكَ مع الوقت ستجد نفسكَ تتناول أصنافًا عجيبة وتشتاق للأكلات العادية التي تُحبّها. ثمّ إنّ ذلك أزعجني لأنّه كان يضطرّني لبذل المزيد من الجهد في ممارسة الرياضة كي لا يزداد وزني، أما هي فكانت حياتها عبارة عن حِمية متّصلة، لا تأكل سوى بقدر معيّن وأصناف معيّنة من الطعام، ورغم ذلك فقدت السيطرة على نفسها وامتلأت قليلاً عمّا تزوجتُها، خصوصًا بعد إنجابها (أدهم).. كانت طويلة القامة، وأيّ زيادة في وزنها تجعلها تبدو ضخمة، ومع الوقت بدأتُ أشعر بالخجل منها

وأتعمّد تركها في البيت مع أيّ مناسبات اجتماعيّة أذهب إليها.. لم تكن تُمارس الرياضة لكنّها كانت ترقص كثيرًا، لا أدري ألجذب انتباهي أم لإفراغ طاقتها.. كلّما وجدتُها تنهض من أمام التلفزيون لتُحرّكَ جسدها بليونة واحترافيّة أمام المرآة في الصالة وهي ترمق نفسها بحبور وتختلس النظرات لي؛ كنتُ أدفن وجهي في "اللاب توب" لتُدرك أنّني غير مهتمّ بما تفعله.

الغريب في أمرها أنّها لم تكن بهذا الضعف الذي تُظهره معي حينما تتعامل مع الآخرين، فمع (مختار) البوّاب وزوجته والباعة الذين تحتكّ بهم وقُدّر لي رؤيتها تُفاصلهم في الأسعار؛ كانت تتصرّف بغلظة قد تصل إلى الشراسة إذا شعرت أنّ من يتعامل معه يُحاول خداعها.. وليس هؤلاء فقط.. ذات مرّة كنّا في زيارة لوالدتها، وكنتُ أركن السيّارة بينما هبطت هي مع (أدهم) لتسبقني، ولمحتُ شابًا يتبعها ويهمس لها بشيء ما.. غلى الدم في عروقي، وتركتُ السيّارة كيفما اتّفق وانطلقتُ نحوه ناويًا أن أجعله يبيت في المستشفى.. توقّعتُ أنّها ستمدّ في خطواتها وستبحث عنّي بعينيها، لكن فاجأني أنّها توقّفت فجأة والتفتت إلى الشاب وعيناها تغليان وهتفت به:

ماذا تريد منّي؟!

ارتبك الشاب وتوقّف محتارًا.. يبدو أنّه لم يعتد التعامل مع فتاة تُواجهه حين يُغازلها. وقبل أن ينطق بحرف كانت لكماتي تستقرّ في وجهه، وقام المارة بتخلصيه من بين يديّ بصعوبة.

من مواقف كهذه أدركتُ كم هي مفتعلة حينما تتعامل معي بضعف ولين.

وفي ذلك اليوم الذي عادت فيه انتهزتُ فرصة غيابها في غرفتها ففتحتُ "الفيس بوك" لأرى إن كانت (رِهام) قد ردّت على رسالتي الأخيرة.. لا أعرف لماذا لم تعمل قاعدة "إنّها ليست (سلمى)" مع (رِهام)، هناك شيء غريب غامض جذبني في هذه الفتاة.. منذ فترة طويلة وأنا محطّ إعجاب الفتيات.. أثناء دراستي كنتُ خجولاً، وحالة عدم الأمان التي عشتُها بعد وفاة أبي جعلتني أتعامل بحذر مع الآخرين، وهذا وضع حاجزًا بيني وبين الجنس الآخر.. ناهيك عن أنّني ظللتُ لفترة طويلة أُوهم نفسي بأنّني مخلص لـ(سلمى) ولا أستطيع الإعجاب بغيرها. أذكر أنّني ذات مرّة في الكلّية أُعجبتُ بزميلة لفتت نظري بجمالها الهادئ وشخصيّتها الآسرة.. راقبتُها بعينيّ أكثر من مرّة وودتُ لو أستطيع الحديث معها، كان ذلك في الفترة التي تلت معرفتي بزواج (سلمى).. ثمّ دارت الأيام وجاءتني الفتاة من نفسها لتسألني عن شيء ما لا أذكره، شيء تافه في إحدى المحاضرات ولا يستحقّ السؤال عنه، فخمّنتُ أنّها تودّ فتح باب الحديث معي، لكنّني أُرتجّ عليّ ولم أدرِ ماذا أقول.. أُصيبت الفتاة بالإحراج أمام تلعثمي فتركتني وذهبت.

مع الوقت اكتسبتُ ثقة في التعامل مع الجنس الآخر، وأدركتُ مدى تأثير وسامتي وبنياني الرياضي عليهنّ، ومع الشهرة المطّردة التي حصدتُها اعتدتُ أن تُصارحني الفتيات بإعجابهنّ بكتاباتي أو بشخصي.. فأصبحتُ أتعامل معهنّ بتعالٍ، اكتشفتُ أنّ الفتاة التي تقترب منّي أو تُظهر إعجابها بي تفقد رونقها في نظري.. ماذا سيُريد الواحد منّا من الفتاة إلا نظرة

إعجاب في عينيها؟ في سبيل تلك النظرة قد يرتكب الكثير من الحماقات للفت انتباهها.. لكن ماذا لو كنتَ في مكانة تسمح لكَ بالحصول على تلك النظرة طوال الوقت من كلّ الفتيات دون أن تبذل جهدًا؟ كان هذا هو حالي حتّى التقيتُ بـ(رِهام).. كانت الوحيدة التي تجاهلتني منذ سنين طويلة.. أكان هذا سبب تعلّقي بها؟

لكنّها في الأيام الماضية أظهرت اهتمامًا بي، ومع ذلك مازلتُ شغوفًا بها، لا أدري لماذا!

ظللتُ فترة أُقلّب في "الفيس بوك" انتظارًا لظهور (رِهام)، إلى أن فاجأني صوت (إيناس) تقول، وهي تنحني بوجهها لترمق شاشة "اللاب توب":

أين الأجزاء الجديدة التي كتبتها من روايتكَ، أُريد أن أقرأها!

أغلقتُ الشاشة في وجهها وصحتُ بها:

طلبتُ منكِ مائة مرّة من قبل ألا تنظري إلى شاشتي دون إذن! ماذا لو كنتُ أتحدّث حديثًا خاصًا مع أحد أصدقائي، هل سيُسعدكِ أيّتها الزوجة المحترمة أن تري لفظًا خارجًا هنا أو هناك؟!

أفزعتها ثورتي فتراجعت وهي تُردّد بأسف:

آسفة، لم.. لم أقصد.. أنا.. كنتُ يا حبيبي.. أُحاول أن...

- لا توجد أجزاء جديدة من روايتي، قمتُ بحذفها الآن.. لا تُعجبني.. غير مقتنع بها.. لا أُريدكِ أن تقرأي شيئًا من روايتي قبل أن أُنهيها تمامًا!

ارتبكت وأخذت تُردّد:

لكنّكَ.. لكنّكَ كنتَ تتركني أقرأ الـ.. أحيانًا عندما...

حملتُ "اللاب توب" ونهضتُ من مكاني تاركًا إياها تلهج بالاعتذار.

ومنذ تلك الليلة وضعتُ "للاب توب" كلمة سرّ كي لا يستطيع أحدٌ أن يفتحه سواي.

opeikan.com

وضع (كريم) "بوست" في "الجروب" السرّي كتب فيه:

"مضت عدّة أيام دون أن نفعل شيئًا.. فقط لخّص (مصطفى) ما قيل في اجتماعنا الأوّل.. والآن ما القضيّة الأولى التي سنناقشها؟"

فكّرت أن أحذف "البوست" قبل أن يراه أحد لأضع مكانه آخر يتكلّم بشكل محدّد عن قضيّة كنتُ أرغب في فتحها.. "الرتب والدرجات التي سيتقلّدها الأعضاء في كياننا السرّي".. لكن لم يكن ذلك متاحًا لأنّ (كريم) كان سيغضب، كما أنّ (رِهام) لم تترك لي فرصة، إذ إنّها وضعت ردًّا على "البوست" وكأنّها كانت تنتظر فقط أن ينشره (كريم):

"فلنحدّد المعايير التي سنختار على أساسها الأعضاء للانضمام إلينا"

اندلعت النيران في صدري، ربما اتّفقا عبر الهاتف على مناقشة هذا الأمر، فوجدتُ نفسي بدون تفكير أضع ردًّا قلتُ فيه:

"إن كنّا سنناقش شيئًا فليكن محدّدًا من فضلكم بدلاً من الكلام المُرسل.. هناك رئيس لهذا الكيان المفروض أن يُحدّد ما الذي سيتمّ نقاشه، أمّا أن يقوم أحدنا بسؤال بقيّة الأعضاء عمّا سنناقشه فهذا سيقودنا للفوضى.. سأضطر لتفعيل خيار ألّا يتمّ نشر شيء في "الجروب" إلا بعد أن يُوافق عليه الأدمن"

فردّ عليّ (كريم):

"من فضلك يا (نادر) لا تفعل.. سأُغادر "الجروب" إن فعلتَ.. نحن لسنا مجموعة أطفال هنا لتضع رقابة على ما نكتبه! من حقّ كلّ واحد فينا أن يقول ما يشاء!"

وغاظني أنّ (رِهام) وضعت "لايك" على "كومنته" هذا، فأرسلتُ رسالة خاصة إلى (مصطفى) كتبتُ له فيها:

"أيرضيكَ تهديد (كريم) لي بالانسحاب؟ هل نسي أنّه هو من توسّلني لأنضمّ إلى هذا الكيان؟ إن استمرّ الحال هكذا سأُغادر "الجروب" وأنسحب من المشروع بأكمله"

لم أكن سأُقيم وزنًا لكلام (كريم) لولا أنّ (رِهام) وافقته "باللايك"!

وصلني ردّ (مصطفى):

"سأتحدّث مع (كريم) ليكون أقلّ حدّة.. لكن يا (نادر) –بيني وبينكَ- لا داعٍ لموضوع نشر "البوستات" بعد أن تُوافق عليها بصفتكَ "أدمن الجروب".. هذه السياسية ستخلق حزازيات بيننا"

لم أردّ عليه، وفتحتُ رسالة لـ(رِهام) كتبتُ فيها:

"هل تُوافقين (كريم) على طريقته في الحديث معي؟ يُهدّدني بالانسحاب فتُسارعين بوضع "لايك" على كلامه؟ هل أنتِ معه أم معي؟"

obeikan.com

وقبل أن أضغط زرّ الإرسال قمتُ بحذف كلّ شيء.. قد تُحرجني وتقول لي إنّها تعرفه قبلي، وأنّنا لم نقترب من بعضنا سوى منذ يومين فقط!

وبدلاً من ذلك كتبتُ ردًّا على (كريم) في "البوست" الذي فتحه:

"أنا أُحاول أن ألعب دورًا تنظيميًّا يا (كريم) بدلاً من أن نقع في الفوضى ولا نخرج بشيء! كنتُ سأقترح عليكم أن أقوم أنا –بصفتي رئيس هذا الكيان بالانتخاب- بفتح مواضيع النقاش، ولكم مطلق الحرّية في طرح أفكاركم داخلها"

اعترض (كريم) على كلامي، وأبدى (صلاح) تحفّظًا حذرًا، فآثرتُ الانسحاب من النقاش.. هؤلاء الأوغاد يعتبرون أنّهم أنداد لي في هذا الكيان، فلنرَ ماذا سيفعلون بدوني!

وكما توقّعتُ، انتهى نقاشهم للاشيء.. اختلفوا ولم يتّفقوا على شيء، ولم يفتح أحدهم بعدها أيّ "بوستات".. أحيانًا كان (صلاح) يضع في الصباح "بوست" لا قيمة له يكتب فيه:

"صباح الخير على أجمل أعضاء في أروع كيان سرّي" مع وجه ضاحك، فيضع بعضهم "لايك" عليه ويردّون تحيّته، لكن ما دون ذلك أصبح "الجروب" كمدينة مهجورة تعبث بها الرياح.

شعوري بقوّتي يدفعني كثيرًا للاستعراض يا (عزيز)، أتحيّن الفرص لأتعاركَ وأُظهر مهاراتي القتاليّة، أستمتع كثيرًا حينما ترتطم قبضتاي بوجوه الأشقياء، أشعر بالأمان.. ربما أفعل هذا لأؤكد لنفسي أنّني مازلتُ قادرًا على حمايتها.

لكنّني في ذلك اليوم استخدمتُ قوّتي للتقرّب من (رِهام).

مضى شهر منذ التقيتُها لأوّل مرّة، وفي كلّ يوم مرّ عليّ، في كلّ ساعة، كنتُ إمّا أُفكّر فيها أو أُحاول التواصل معها عبر "الفيس بوك". كنتُ أُرسل لها الرسالة أفتح معها أيّ موضوع، أقول أيّ هراء، صباح الخير، "البوست" الأخير الذي كتبتِه أعجبني، هل تكتبين شيئًا جديدًا، هل أنتِ بخير، لم أركِ على "الفيس" طوال الأمس، هل قرأتِ رواية المنسي قنديل الأخيرة، ماذا سنفعل في الكيان السرّي؟ إلخ.. ثمّ أنتظر أن تردّ عليّ، أتخيّل ردّها، وأُفكّر في ردّي على ردّها، وأبتكر شيئًا جديدًا أقوله لها لأفتح باب الحديث إذا انقطع، أقود سيّارتي عائدًا إلى البيت وأتصوّر أنّني قد أراها تعبر الشارع في أيّ لحظة، أبحث عنها بين الناس، نجلس سويًّا في أيّ "كافيه" ونتكلّم في أيّ شيء، أتخيّلني أحكي لها كلّ شيء عنّي، أُخبرها عن قصّتي مع (سلمى) ومحاصرة (إيناس) ووفاة والدي، مخاوفي وأحلامي وذكرياتي.. هناك مخزون ضخم بداخلي يجب أن أُخبرها به وإلا انفجر في صدري.

لكنّها لم تكن تتجاوب معي بالشكل الذي أنتظره.. أُرسل لها رسائل طويلة جدًّا، فتردّ بسطر أو اثنين بعد عدّة ساعات، أُعاتبها فتعتذر بأنّها لا تجلس طويلاً على "النت" مثلي.. مثلي؟ أنتبه حينها إلى أنّني أهملتُ حياتي وصرتُ أجلس أغلب الوقت أمام شاشة "اللاب توب" أنتظرها ولا تأتي.. أجلس شاردًا في مكتبي، لا أجد مزاجًا رائقًا لقراءة الأعمال المقدّمة لي، إذا اقترب منّي (أدهم) ليُداعبني أصرخ فيه هو و(إيناس) ليتركاني في حالي.. أصبحتُ نافد الصبر سريع الاشتعال.

كنتُ أرغب في رؤيتها ولا أجد مدخلاً مناسبًا لذلك.. أُريد أن أملأ عينيّ بها، صورها لم تعد تكفيني، أشتهي أن أرى عينيها على الحقيقة وهما تتفاعلان مع عينيّ.. كلّ عدّة أيام كانت هناك مناسبة يجب أن أحضرها، حفل توقيع لزميل، ندوة أدبيّة، ملتقى شعري.. الدعوات لا تتوقّف عن الوصول إليّ، يُتبعونها برسالة أو اتّصال، نتمنى أن تُشرّفنا بالحضور، وجودكَ سيعني لنا الكثير.. فكنتُ أُؤجل الردّ حتّى أسمع رأي (رِهام).. أكتب في "الجروب" السرّي أنّني سأحضر غدًا المناسبة الفلانيّة، ما رأيكم يا رفاق، هل ستأتون؟ وأتعمّد وضع "منشن" لاسمها بين أسماء بقيّة أصدقائي. يقول بعضهم إنّهم سيحضرون لأنّهم يرغبون في رؤيتي، وتأتي هي لتعتذر، فأخبرهم بأنّني غيّرتُ رأيي ولم أعد متحمّسًا للذهاب، هناك شيء جديد ظهر سيمنعني من الحضور.

فكّرتُ أن أدعوهم إلى لقاء جديد لنناقش ما سنفعله في الكيان السرّي الذي نُزمع تأسيسه، لكنّني فوجئتُ بها قبل أن أفعل تُوافق على إحدى دعواتي.

أنا لا أُحبّ الشعر، الشعراء بالنسبة لي لا يبذلون جهدًا في كتابة قصائدهم ثمّ يحصلون على الإعجاب والتقدير.. بينما نحن الروائيين نبذل جهدًا قد يمتدّ لشهور وسنين في كتابة عمل واحد، وقد يلقى الإعجاب أو يُلاقى بالفتور فيذهب المجهود أدراج الرياح.. الروائي ممثل مسرحي قدير يتدرّب طويلاً ليُؤدّي مشاهده أمام جمهوره كما يجب، بينما الشاعر ليس سوى مغنّي رقيع يظهر في فيديو كليب لمدة ثلاث دقائق فيحصد تأوّهات الفتيات!

لذلك حينما كتبتُ على "الجروب" السرّي أنّني قد أحضر ندوة شعريّة لـ(محمد عبد التوّاب) الشاعر الشاب، كنتُ أتوقّع أن يرفض الجميع وينتهي الأمر، لكنّني فوجئتُ بـ(رِهام) تكتب بحماس أنّها تُحبّ أشعار (عبد التوّاب) كثيرًا وستحضر الندوة!

أدركتُ حينها أنّها تهوى الشعر وأنّني يجب عليّ بدوري أن أُحبّه وأُظهر افتتاني به!

حرصتُ على الوصول متأخّرًا، لأنّني من جهة لم أُرد أن ألفت الانتباه إليّ، ومن جهة أخرى أحببتُ أن أراها من حيث لا تراني.. ثمّ لا تنسَ أنّ النجوم يأتون دائمًا متأخّرين!

كان الحضور كبيرًا، و(عبد التوّاب) منهمك في حماس في إلقاء إحدى قصائده، تسلّلتُ وأنا أرمق الجالسين بحثًا عن (رِهام).. ساءني أنّها كانت تجلس وبجوارها (كريم) و(صلاح) الذي وضع حقيبته على كرسي يجاوره من الواضح أنّه محجوز لي.. كنتُ أُريد الجلوس بجوارها!

جلستُ وأشرتُ لهم بيدي محييًا، فأومأ لي (كريم) و(صلاح)، بينما لم تنتبه هي.. كانت ترمق شفتيّ (عبد التوّاب) الوغد باهتمام وتركيز!

ناديتُها فالتفتت إليّ غاضبة، اغتصبتْ ابتسامة مُرحّبة ثمّ عادت تُتابع القصيدة.. شعرتُ بالحرج فتظاهرتُ بالمتابعة بدوري.

مضت الدقائق بطيئة ثقيلة مملّة، لم أستطع التركيز مع ما يقال، حاولتُ تبادل بعض العبارات مع (صلاح)، لكنّ (رِهام) كانت تنهرنا لتستطيع سماع ما يُقال فكنّا نصمت متوتّرين.

وزاد الطين بلّة أنّ (عبد التوّاب) لاحظني، فأشار نحوي وهتف بحماس:

ويشرّفنا بالحضور الليلة الروائي المعروف الأستاذ (نادر منصور) الغني عن التعريف.. رحّبوا معي به!

صفّق الجميع، فاضطررتُ للنهوض وهززتُ رأسي بتواضع رادًّا التحيّة.

وانتهز مدير الندوة الفرصة فسألني:

أستاذ (نادر)، ما رأيكَ في أشعار الأستاذ (عبد التوّاب)؟

لم أكن أعرف شيئًا عن (عبد التوّاب) قبل الليلة، لكن لم يكن هناك مجال للتراجع، فانطلقتُ أقول بحماس:

تسألني عن (عبد التوّاب)؟ وهل تحتاج أشعار (عبد التوّاب) لإجابتي؟ أنا يا سيّدي لا أقرأ سوى لعدد محدود من الشعراء منهم (محمد عبد التوّاب)، (عبد التوّاب) لا يكتب الشعر بل يتنفّسه، ينزفه، يخرج من

مسامه مثل العرق.. لحسن حظّي أنّه لا يكتب الرواية وإلا لفقدتُ الأمل في أن أكتب بمثل عظمته!

ارتجّت القاعة بالتصفيق، وجلستُ في مكاني وأنا أرمق (رِهام) بطرف عيني.. سرّني أنّها كانت تتأمّلني باهتمام.

وحينما طال الوقت دون أن تنتهي الندوة هممتُ بالنهوض، فسألني (صلاح) هامسًا:

إلى أين؟

- سأُدخّن سيجارة بالخارج.

رمقني بدهشة:

لكنّكَ لا تُدخّن!

- سأتظاهر بذلك لأنجو مما نحن فيه.

لمحتُ (عبد التوّاب) يرمقني بنظرة متسائلة وأنا أتّجه إلى باب الخروج، فأشرتُ له مبتسمًا وأنا أُقرّب إصبعيّ من فمي دلالة أنّني سأُدخّن سيجارة.

جلستُ في سيّارتي أستمع لأسطوانة مصطفى قمر منتظرًا انتهاء الندوة وخروج (رِهام).. كنتُ أنوي أن أعرض عليها أن أوصلها إلى بيتها في 6 أكتوبر بسيّارتي، العائق الوحيد أمام هذه الخطّة هو (صلاح)، لأنّه سيفترض كالعادة أنّني سأوصله في طريقي، بينما أُريد أنا أن أختلي

بـ(رِهام).. لذلك كان عليّ أن أنتظر بصبر حتّى يخرجوا فلا يجدونني ويذهب كلٌّ منهم لحال سبيله، فأظهر أنا أمام (رِهام).

بدأ الحضور يخرجون من المكتبة التي أُقيمت الندوة بداخلها، ولم تظهر هي.. مرّت دقائق فبدأتُ أقلق.. ثمّ لمحتُ حركة غير طبيعيّة داخل المكتبة وتناهى لمسامعي صوت جلبة.

غادرتُ السيّارة وعدتُ إلى المكتبة مسرعًا.. كان هناك تجمّع من الحضور يحيط بـ(رِهام) التي أمسكت بخناق شاب وهي تصرخ بهستيريّة والدموع تملأ عينيها، كانت تقول إنّه التصق بها أثناء وقوفهم في الطابور منتظرين أن يوقّع لهم عبد الفتّاح ديوانه الأخير، والشاب يؤكد أنّه لم يفعل.

(كريم) وبعض العاملين في المكتبة يحاولون تخليص الشاب من يديها وهم يؤكّدون أنّه ربما لم يقصد وأنّه حصل خير.. لمحتُ في عيون المحيطين نظرة استياء تجاهها، لم يكن من السهل أن يتعاطف معها أحد وهي تتصرّف بهذه الهستيريّة، بينما الشاب يردّ عليها بهدوء وتهذيب.

كان من الصعب عليّ أن أرى (رِهام) -التي لم تُظهر أمامي سوى الهدوء والاتّزان- في مثل هذا الموقف وقد خرجت عن شعورها وتبدّى ضعفها للجميع.

أزحتُ كلّ من وقف في طريقي وصولاً إلى الشاب.. دفعتُ (كريم) وكلّ من يحاولون الفصل بين (رِهام) والشاب بغلظة، فظنّوا لوهلة أنّني سأتدخل لإنهاء الموقف، لكنّهم فوجئوا بي أجذب الفتى من ياقة قميصه وأنا أصرخ فيهم بحنق:

حينما تجدون فتاة في موقف كهذا امسحوا وجه الفتى الذي ضايقها أوّلاً في الأرض ثمّ اسألوا بعدها عمّا حدث!

واندفعتُ جارًّا إياه إلى خارج المكتبة وسط ذهول الجميع.

وفي الخارج أخرجتُ في وجهه كلّ توتر الليلة، لم يقاوم، سقط على ظهره بعد أوّل لكمتين، فجذبتُه من ياقته ورفعتُه ووجّهتُ له لكمتين أخرتين، فسقط من جديد، أدهشني حجم الغضب الذي امتلأت به نفسي، لم تكن هذه المرّة الأولى التي أضرب فيها شابًا عاكس أو تحرّش بفتاة، لكنّني في هذا الموقف انتابتني رغبة مخيفة في أن أؤذيه، لم أشعر بنفسي سوى وثلاثة شباب يحملونني بعيدًا عنه، وظللتُ أُحاول التملّص من بين أيديهم وأنا أصرخ به أنّني لن أتركه وسأُريه الويل.

بعد أن هدأتُ بحثتُ عن (رِهام) وأخذتُ أسألها باهتمام:

هل أنتِ بخير؟ هل أُحضر ذلك الفتى ليعتذر لكِ؟

لم تُجبني، كانت ترمقني بدهشة ملأتني حبورًا.. كلّ العبارات التي ألقاها (كريم) و(صلاح) ومن حضروا الموقف لم تصل إلى آذاننا.. لقد أفسدنا ندوة الأستاذ (محمد عبد التوّاب) لكن لا يهمّ، نظرة الامتنان الصامتة في عينيها كانت تستحقّ.

أشرتُ لها نحو سيّارتي:

تعالي، سأوصلكِ إلى بيتكِ، يجب أن أطمئن عليكِ بعد ما حدث الليلة.

حاولتْ الاعتذار والتحجّج بأنّها ستأخذ سيّارة أجرة لكنّني أصررتُ، ووافقني بعض الحضور، فاستسلمتْ.. كانت فيما يظهر تشعر بالإعياء ولا قدرة لديها على الشدّ والجذب.. أسرع (كريم) يقول:

سآتي معكما لأطمئن عليكِ.

لكنّها رمقتُه بنظرة غضب وعيناها تقدحان بالشرر، وقالت جاذّة على أسنانها:

لا، لن تأتي معنا.

لا ألومها، (كريم) و(صلاح) لم يقفا بجوارها وحاولا أخذ جانب الحياد.. وحدي أنا من فعلتُ، ووحدي أنا من يستحقّ العودة بالأميرة.

ركبتْ إلى جواري في السيّارة، ووجدتُ (صلاح) يفتح باب السيّارة الخلفي ويركب معنا، فأدركتُ أنّ عليّ توصيله في طريقنا.. لا بأس.

ظلّت صامتة حتّى بعد أن هبط (صلاح)، بحثتُ في عقلي عن أيّ شيء يمكن أن يقال ففوجئتُ بأنّني بعد كلّ هذه المحاولات لرؤيتها لا يوجد لديّ شيء جاهز أودّ إخبارها به، فاكتفيتُ بالصمت بدوري.. وضعتُ أسطوانة مصطفى قمر لأجعلها تُدرك أنّني أعتزّ بسرّنا الصغير، واكتفيتُ باختلاس النظرات إلى وجهها في مرآة السيّارة الجانبيّة.

وحينما أصبحنا على مشارف مدينة أكتوبر؛ فوجئتُ بها تلتفتُ إليّ فجأة وتسألني:

لماذا فعلتَ ذلك؟

ارتبكتُ وتظاهرتُ بالتركيز على الطريق وأنا أردّ على سؤالها بسؤال:

فعلتُ ماذا؟

- لماذا وثقتَ في كلمتي؟ أغلب من كانوا هناك تعاملوا معي إمّا باعتباري كاذبة أو تجاوزتُ في محاولة الحصول على حقّي.. لم يحدث شيء لكلّ هذا.. هكذا كانت تقول عيونهم، حتّى (كريم) و(صلاح).. لماذا وقفتَ بجواري وأنتَ تعلم أنّ هذا قد يُسيء لمكانتكَ الأدبيّة؟

أصابني سؤالها بالحيرة، لم أفكّر للحظة أنّها كاذبة أو تدّعي، أو أنّ تعنيفها للفتى يكفي لإنهاء الأمر.. نظرة عينيها أفقدتني صوابي، كانتا ممتلئتين ذعرًا ويأسًا؛ أنا وحدي أمام كلّ هؤلاء وأعرف أنّ أحدًا لن يأخذ لي حقي، أنا مظلومة وأعرف أنّني سأظلّ كذلك، كلّكم ضدي.

- لا أدري، دائمًا ما أفقد صوابي حينما أرى من يستغلّ قوّته في ظلم من هم أضعف منه، منذ سنين طويلة وثقتُ في عمّي، لكنّه خاننا.. كنتُ ضعيفًا أنا وأمّي، افتقدنا الأمان بعد رحيل أبي، لكنّ عمّي لم يرحم ضعفنا، دهسنا بقدمه القويّة من أجل أموال زائلة.

أذهلني أنّ صوتي بدأ يرتعش، فتوقّفتُ عن الكلام.. كيف تستطيع هذه الفتاة التسلّل داخل حصوني هكذا كحصان طروادة؟! لم أتخيّل يومًا أنّني سأشعر مع أحد بالثقة لدرجة أن أُخبره بشيء كهذا!

رمقتُها في المرآة الجانبيّة فوجدتُها ترمقني بنظرة حانية.. نظرة حانية زلزلت آخر حصوني.. حكيتُ لها كلّ شيء.. عمّي و(سلمى) و(إيناس).. نظرتها فتحت بداخلي الصندوق الأسود الذي لم أفتحه من قبل لبشر.. كنتُ

أتوقّف كلّما خانتني مشاعري وبدأ صوتي في التذبذب وحاولتْ عيناي الغدر بي.. أصمتُ لثوانٍ أستجمع فيها نفسي، وتحترم هي صمتي.. في النهاية وجدتُها تقول لي:

لم أتخيّلكَ أبدًا هكذا.. أنتَ.. أنتَ رائع!

رمقتُها بذهول وكدتُ أفقد سيطرتي على السيّارة..

- لا أعرف كيف أخبرتُكِ بكلّ هذا.. أنتِ الآن تعرفين عنّي أشياء لا تعرفها المرحومة أمّي نفسها!

فوجئتُ بها تضع يدها على يدي المستقرّة فوق ذراع السرعات، وهي تقول برقّة:

أتمنى أن أكون على قدر هذه الثقة.

سحبتُ يدي بارتباك وتظاهرتُ أنّني أُحاول السيطرة على عجلة القيادة جيّدًا، بينما أكملت هي:

أنتَ شخص طيب.. تُحاول إحاطة نفسكَ بالكثير من الأسوار وتتظاهر بما ليس فيكَ.. لأنّكَ خائف.. مثلي!

في موقف آخر كنتُ سأُفكّر أنّها بحركة كهذه ربما تسعى لإغوائي، لكنّني في هذا الموقف لم يتبادر إلى ذهني سوى أنّها تُحاول طمأنتي، تبثّني شعورًا بالأمان تُدرك أنّني أفتقده.

obeikan.com

خطر على بالي أن أرمق هالتها في تلك اللحظة. فدقّقتُ النظر إليها في مرآة السيّارة الجانبيّة متظاهرًا بأنّني أُتابع الطريق. بدأت هالتها تتشكّل أمامي، ففوجئتُ بأنّ البثور الحمراء التي كانت منتشرة عليها خَفَتَ لونها وأصبحت باهتة أو شارفت على الاختفاء.. هذه الفتاة تشعر بالأمان الآن!

لم أستطع التعليق على كلامها، كنتُ مذعورًا من ارتباكي وعدم قدرتي على اتّخاذ ردّ فعل مناسب، متفاجئًا من اكتشافي أنّها تشعر بالأمان بجواري.

أمّا هي فلم تعد تتكلّم معي بتحفّظ، لم تعد تُعاملني برسميّة.. لأوّل مرّة أكتشف أنّ إظهار ضعفي بإمكانه أن يُقرّبني من الآخرين هكذا.

تنحنحتُ وسألتُها مغيّرًا دفّة الحديث بعيدًا عنّي:

وأنتِ.. ما الشيء الذي تخافين منه؟

- النّاس!

استوضحتُها أكثر فابتسمتْ وطلبتْ تأجيل الكلام في هذا الأمر لمرّة أخرى لأنّ بيتها اقترب.

وصفت لي الطريق، وحينما وصلنا التفتت إليّ ورمقتني بنفس نظرة الامتنان التي أذابتني، شكرتني على كلّ ما فعلتُه، ثمّ غادرت وتركتني لنشوتي.

ومنذ تلك الليلة لم تعد تتأخّر في الردّ على رسائلي.

في تلك الليلة التي التقيتُكَ فيها لأوّل مرّة يا (عزيز) لم أرتح لكَ، بل إنّني خفتُكَ حينما وجدتُكَ تترك الميكروباص لتتبعني.. جئتني راكضًا وبخار الماء يخرج مع أنفاسكَ اللاهثة.. وحينما مددتَ لي يدكَ مصافحًا وأنتَ تقول بودّ:

(عزيز الرحماني).. وأنتَ؟

تسمّرتُ في مكاني بعد سماع الاسم.. أليس هذا اسم مؤسس جماعة أفاتار أم إنّه تشابه أسماء؟ ودون أن أدري غمغمتُ بدهشة:

أفاتار؟!

فوجدتُكَ تعقد حاجبيكَ وترمقني باهتمام:

ما أدراكَ بأفاتار؟

رمقتُكَ حينها بقلق وتلفّتُ حولي.. شعرتُ أنّني ضحية عملية نصب ما.. هناك شيء ما ليس طبيعيًا في كلّ هذا.. أن ألتقي بمؤسس أفاتار المختفي في ميكروباص ركبتُه بالخطأ.. أهي حقًا مصادفة؟!

- أنتَ (عزيز الرحماني) أحد مؤسسي جماعة أفاتار!

وحينما وجدتُكَ ترمقني بدهشة زالت من رأسي أيّ وساوس حول أنّكَ مدسوس عليّ من الجماعة، فأسرعتُ أُوضّح لك:

أنا عضو في الجماعة.

مططتَ شفتيكَ وقلتَ بضيق:

من سوء حظّكَ!

كنتُ قد خمّنتُ أنكَ على خلاف معهم، فقلتُ وكأنّني أُدافع عن نفسي:

لقد تركتُ الجماعة منذ فترة.. أو على الأقل أوضحتُ لهم أنّني لا أرغب في الاستمرار معهم.. لكن أنتَ.. أين كنتَ مختفيًا؟

أنساني الموقف ما أنا فيه.. نسيتُ البرد والكدمات في وجهي، وأصبحتُ مهتمًّا باستكشافكَ، بدوتَ لي وقتها مخلوقًا غريبًا يستحقّ التأمّل والدراسة.. الرجل الذي صنع جماعة سرّية كبيرة ساعدتني على الوصول إلى مكانة لم أكن أحلم بها، لكنّه رغم ذلك ترك كلّ شيء واختفى.

تمشّينا سويًّا في الطريق المظلم والعربات السريعة تمرّ بنا.. وبدلاً من أن تُجيب سؤالي وجدتُكَ تسألني باهتمام:

هل أنتَ متزوّج؟ هل لديكَ أولاد؟

- لديّ (أدهم).

- أنا لديّ ستة أبناء.. هدى ودعاء وحافظ وإيمان وجمال ومُحب .. الأسرة أهمّ شيء في الحياة يا بني.

تنحنحتُ وعدتُ أسألك:

حفظهم الله لكَ.. لكنّكَ لم تخبرني لماذا تركتَ أفاتار!

توقّفتَ وسألتني بغضب:

ما الذي يهمّكَ في هذا الأمر؟ لا تجعل ذكرى هؤلاء القوم تُسيطر على حديثنا، هناك أشياء أهمّ في الحياة لنتحدّث عنها ونبجّلها.

قلتَ هذا وأنتَ تملأ صدركَ بهواء الليل وتستطرد:

الهواء، أعظم نِعم ذي النّعم!

ثم سألتني مندهشًا:

لماذا لا تتنسّم هذا الهواء؟ هيّا تنفّسه! استطعمه!

كنتَ تتحدّث بسرعة وجدّية وأنتَ ترمقني منتظرًا أن أفعل، فلم أجد أمامي بُدًّا.. أخذتُ نفسًا باردًا ملأتُ به رئتي فشعرتُ بقشعريرة البرد تجتاحني.

- هل تُحبّ؟

رمقتُكَ متسائلاً فأكملتَ وكأنّكَ تشرح لطفل صغير:

أنتَ.. هل ينبض قلبكَ بالحبّ؟

هززتُ رأسي مجيبًا وقد بدأ الخوف يُعاودني منكَ.. فكّرتُ أنكَ قد تكون مجنونًا وبدأتُ أتساءل: لماذا تركتَ الميكروباص وتبعتني وما الذي تُريده منّي.

- كاذب! من يُحبّ يعبّ الهواء هكذا.

وتوقّفتَ وأغمضتَ عينيكَ وأنتَ تأخذ نفسًا عميقًا بطيئًا وعلى وجهكَ ابتسامة منتشية.

- هكذا.. أنتَ لا تُحبّ يا مسكين!

رمقتُكَ مستغربًا وسألتُك:

لماذا هبطتَ من الميكروباص خلفي؟

- لأنّكَ تحتاجني وأنا بإمكاني مساعدتكَ.

سألتُكَ بدهشة:

كيف علمتَ أنّني بحاجة للمساعدة؟

كان أوّل ما تبادر لذهنّي أنّكَ تقصد مساعدتي في إصلاح الفوضى التي صارت إليها حياتي بسبب (رِهام)، لكنّني أدركتُ خطأي حينما وجدتُكَ تُجيبني:

نظرتكَ وطريقة تصرّفكَ تدلّ على أنّكَ لا تملك مالاً سوى هذا الجنيه ونصف.. ومظهركَ المزري يقول إنكَ مررتَ بلحظات عصيبة.. ألا ترى

obeikan.com

شكل وجهكَ؟ لا يمكنني أن أترك من يحتاج مساعدتي.. أنا مُسخّر لخدمة العباد!

هممتُ أن أردّ عليكَ لكنّني وجدتُكَ تتلفّتُ حولكَ وكأنّكَ تبحث عن شيء ما، أشرتَ نحو محل مضيء من بعيد وسألتني:

ما رأيكَ أن أدعوكَ إلى طبق كشري؟ ستكون فرصة مناسبة لتغسل وجهكَ وتُهندم نفسكَ قليلاً!

- لكن يا أستاذ (عزيز)، يجب أن أعود إلى...

قاطعتني حينها بغلظة:

اسمي (عزيز) فقط.. ما سيجلب الاحترام لاسمي هو نبرة الحبّ في نطقكَ له وليس الألقاب!

اندهشتُ لعصبيّتكَ المفاجئة، لكنّني تبعتُكَ صامتًا إلى محل الكشري.. كنتَ تمدّ في خطوك وأنتَ تقول لي:

أُحبّ رياضة المشي، المشي بالنسبة لي كغسيل الأسنان لكَ، لا يمكن أن يمضي يوم دون أن أمشي ساعة على الأقل.. يجب أن نمشي كثيرًا لنشكر ذا الجلال على نعمة الصحّة.

لم يكن هناك حمّام في المحل، بل حوض ماء في ركن قصي.. وقفتُ أمامه ورمقتُ نفسي في المرآة لأوّل مرّة منذ فترة طويلة.. عيناي محمرّتان، وخدّي الأيمن متورّم من أثر لكمة أخذتُها على حين غرّة حينما نظرتُ إليها ونسيتُ نفسي، وهناك خدوش متفرّقة في وجهي.. بقعة دم صغيرة أعلى

ياقة قميصي، أما الكرافتة فلن يُمكنني استخدامها مرّة أخرى.. خلعتُها فأحسستُ براحة مع الهواء الذي تدفّق بحرّية عبر عنقي.

عدتُ إليكَ فوجدتُكَ قد بدأتَ الأكل، جلستُ أمامكَ ولم ألمس طبقي، فرفعتَ رأسكَ نحوي وقلتَ:

كلّ لتستعيد نشاطكَ!

كنتَ تتحرك وتتكلّم وتأكل بحيويّة شاب في العشرين، تأمّلتُ وجهكَ المشرق وجلدكَ المشدود وعينيكَ اللامعتين وسألتُكَ:

ماذا تعمل يا أستا.. يا (عزيز)؟

أجبتني بفمٍ ممتلئ بينما تُمسك زجاجة "الدّقة" وتصبّ منها في طبقكَ:

أنا مهندس استشاري، لديّ مكتب هندسي، لكنّني تركتُ إدارته الآن لابني الأكبر حافظ.

- وماذا تفعل الآن؟

رمقتني بابتسامة رقيقة ثم أجبتني:

أُبجّل الحياة.. الحياة منحة عظيمة منحها لنا صاحب المِنح.

ثم رفعتَ كوب الماء الذي أمامكَ مستطردًا:

هل فكّرتَ قبلاً في الماء.. انظر إليه، ارمق شفافيته، تذوّق طعمه، اشربه ببطء واشعر بملمسه على لسانكَ وسريانه داخل جسدكَ.. هذا الماء

يُشكّل ثلثي جسمكَ، كوب الماء هذا سيصير أنتَ بعد قليل، أي إنكَ أنتَ وهو واحد.

وأتبعتَ كلامكَ بأن ارتشفتَ كوب الماء مغمض العينين بتلذّذ وبطء.

- هذه الملعقة التي آكل بها، انظر إلى تعرّجاتها ودقّة صنعها، هناك عقل ابتكرها وهناك من خلق هذا العقل وخلق المعدن الذي تشكّلت منه.. كلّ شيء في النهاية أصله ومنتهاه إليه.

وتوقّفتَ عن المضغ وأغمضتَ عينيكَ وأنتَ تُتمتم بشيء لم أسمعه.

شعرتُ أنّنا نُضيّع الوقت بأحاديث جانبيّة، فعدتُ أسألكَ سؤالي الأول:

لم تخبرني بعد عن أفاتار.. ما الذي حدث وجعلكَ تتركهم؟

- حينما أنشأتُ الجماعة مع (فهمي ناظم) منذ سنوات لم أعد أذكر عددها كان هدفنا واضحًا: تغيير العالم إلى الأفضل.. لكنّ الأمور لم تسر كما كنتُ أتوقّع!

سألتُكَ باهتمام:

كيف؟

- كانت فكرتي عن رفع وعي المجتمع أن نتعاون مع كلّ المؤسسات والجمعيّات التي تقبل التعاون معنا وتؤمن بفكرنا: جمعيّات خيريّة ومؤسسات حكوميّة وأحزاب سياسيّة إلخ.. لكنّ (فهمي) كانت لديه أفكار أخرى، أراد أن يكون المتحكّم في كلّ شيء من خلال ضمّ أفضل العناصر

في المجتمع ليكونوا تحت إمرته، سياسيين وفنّانيين وأدباء ورجال أعمال وأصحاب نفوذ.. قلتُ له إنّنا هكذا سنتحوّل إلى جمعيّة ماسونيّة تقوم على عضويّة أصحاب النفوذ والتأثير وتبادل المنافع فيما بينهم، لكنّه لم يُصغِ لي.. كان واثقًا من أفكاره ويراها صوابًا، قال لي: سترى أنّ رؤيتي صحيحة!

هنا انتبهتُ إلى أنّنا وقعنا في نفس المرض الذي نحاول علاج المجتمع منه!

بدأتُ أُحرّك الملعقة في طبقي وقد شدّني حديثكَ، وتساءلتُ حينما صمتَّ:

مرض؟!

اتسعت عيناك بخطورة وأنتَ تقول لي بلهجة حاسمة:

الإيجو!

ثمّ أسرعتَ تُكمل قبل أن أقوم بأيّ ردّ فعل:

لابدّ أنّهم درّسوكَ مراحل الوعي.. ما هي مرحلة الوعي الفارقة بين الإنسان العادي المدمّر نفسيًا وذلك المؤثّر الذي بدأ وعيه في الارتفاع؟

فكّرتُ قليلاً ثمّ أجبتُك:

أعتقد أنّها المرحلة عند درجة وعي 175، مرحلة الكبرياء.. إن تجاوزها المرء يدخل في مرحلة الشجاعة، عند درجة 200.

وفكّرتُ أن أُخبركَ ضاحكًا أنّها مرحلتي حسب كلام دكتور (فريد)، لكنّكَ كنتَ تتكلّم بجدّية وحماس، فلم أرغب في مقاطعتكَ.

- جماعة أفاتار تسعى لرفع وعي المجتمع إلى ما فوق درجة 200، إلى ما فوق الإيجو، لكنّهم هم أنفسهم منغمسون حتّى شعر رؤوسهم في الإيجو، يُسيطر عليهم ويتحكّم في تصرّفاتهم، بإمكانكَ أن تشمّ الإيجو تحت جلودهم من مسافة أمتار! يعتقدون أنّهم أفضل من الآخرين لأنّهم أعلى وعيًا، أنّهم سيقودون عملية تغيير العالم إلى الأفضل وبدونهم سينهار كلّ شيء!

في تلك الفترة بدأتُ أُعدّ بحثًا حول الإيجو، كنتُ أنوي تقديمه إلى مجلس إدارة الجماعة لأُطلعهم على النتيجة التي توصّلتُ إليها في نهايته: عدوّ البشريّة الأوّل هو الإيجو.. إذا أردنا أن نرفع وعي النّاس فعلينا أن نجعلهم واعين به أوّلاً!

وجدتُ أنّ عليّ أن أُقاطعكَ هنا قبل أن تسترسل في كلامكَ فلا أفهم ما تعنيه:

ما أعرفه أنّ الإيجو أو الأنا هو الكبرياء أو الغرور، أليس كذلك؟ أنتَ تقصد أنّ غرور البشر هو عدوّهم الأول؟

لوّحتَ بيدكَ قائلاً بضيق:

هذا كلام فيه تبسيط مخلّ، أنا لا أتكلّم هنا عن معنى فلسفي، بل عن كيان نفسي متكامل الأركان يعبث بنا طوال الوقت.. الإيجو، الأنا، الكِبر، تضخّم الذات، النفس الأمّارة بالسوء.. سمّه ما شئتَ، لكنّه مرض

البشريّة الأوّل.. إنّه شيء خبيث قذر يقبع بين جنباتنا، يُلصق نفسه بنفوسنا، يُوسوس في آذاننا وكأنّه نحن، يُلقي بكلماته في عقولنا وكأنّها أفكارنا.. نولد ونحن لا نعرفه، لكن بطريقة ما يبدأ في التكوّن معنا كلّما كبرنا.. يعمل بلا كلل ولا ملل ليبثّ في روعنا فكرة أنّنا أفضل من الآخرين.. يوهمنا أنّنا منفصلين عن كلّ شيء آخر سوانا، هناك نحن وهناك الآخرون.. والآخرون في الغالب يُريدون النيل منّا أو التقليل من شأننا، وهو سيحمينا منهم.

يحمينا بعالم كامل من الهراء الذي يختلقه ويحيطنا به.. ممتلكات وآراء وتصرّفات.

مع الوقت تستسلم له وتُصبح أنتَ في نظر نفسكَ السيّارة التي تمتلكها، "الموبايل" الذي تُمسك به في يدكَ، المنزل الذي تقطن فيه، الملابس التي ترتديها، المهنة التي تمتهنها، سمعتكَ بين النّاس، الآراء التي تعتنقها.. نحن أفضل من الآخرين لأنّنا نمتلك أشياء أكثر منهم، وسنعمل طوال الوقت على الحصول على المزيد.. نحن على صواب في آرائنا ومعتقداتنا وما ندين به، نحن الفرقة الناجية، فريق كرة القدم الذي نشجّعه هو الأفضل، الأمّة التي ننتمي لها هي الأعظم.. نُطابق بين ذاتنا، بين فكرتنا عن "من نحن حقًا"، وبين كلّ هذه الأشياء، فتُصبح في نظرنا هي نحن، وندافع عنها بشراسة دفاعنا عن بقائنا ووجودنا.. لهذا تجد هناك من يُجادلون عن آرائهم باستماتة لأنّهم يشعرون أنّهم مهدّدون في وجودهم إن لم يُثبتوا للآخرين أنّهم على حق.. إن اتّضح لهم أنّهم على خطأ فوجودهم نفسه يُصبح بلا معنى.. لهذا تجد من قد يقتل إذا شعر أنّه أُهين أو تمّ التقليل

من قدره.. لهذا تجد من يشجّع فريقه بشراسة ولديه الاستعداد للعراك حتّى الموت مع مشجعي الفريق المنافس.. لهذا تجد أديانًا وطوائف ومذاهب دينيّة يكره أتباعها من ليسوا على معتقدهم ويرون في وجودهم تهديدًا لهم.. نعم، الإيجو لا يعمل فقط مع الأفراد، بل هو أشدّ وطأة مع الجماعات والطوائف والأمم.. ستجد دائمًا لدى هؤلاء أعداء يعتبرونهم خطرًا يجب عليهم الانتصار عليه.. ثمّ تنشأ الحروب والصراعات وتسيل الدماء، فقط لنُثبت لأنفسنا أنّنا أفضل من الآخرين.. أتدري؟ أحيانًا أعتقد أنّ الشيطان ليس كيانًا ماديًا كما نعتقد، هو فقط الأفكار التي يبثّها الإيجو داخل نفوسنا طوال الوقت.

جماعة أفاتار كان هدفها الأوّل رفع الوعي لدى الجميع، لكن مع الوقت سيطر عليهم الإيجو وجعلهم يعتقدون أنّهم وحدهم من يجب أن يأتي التغيير على أيديهم، لو حاول آخرون صُنع التغيير فسيحاربونه!

هؤلاء في الحقيقة يعبدون ذواتهم دون أن يدروا، يعتقدون أنّهم يسعون لأهداف نبيلة، لكنّهم في الواقع يسعون فقط لإرضاء أنفسهم بأنّهم مختلفون وأنّهم الأفضل!

سأقول لكَ شيئًا صادمًا، هل تعتقد أنّ من يدعون الناس لاعتناق دينهم ويناظرون أتباع الديانات الأخرى محاولين إثبات أنّ دينهم هو الحق؛ أتعتقد أنّهم في قرارتهم، في أعماق أعماقهم، يُريدون فعلاً الهداية لبقيّة البشر؟ إطلاقًا يا بني، أكثرهم يحاولون فقط إثبات أنّهم الأفضل، يريدون المزيد من الأتباع لدينهم ليشعروا أنّهم على صواب، ليشمتوا في أتباع الديانات الأخرى، نحن أكثر منكم عددًا وما نؤمن به هو الحق، نحن

Obeikan.com

انتصرنا عليكم وأذقناكم مرارة الهزيمة! لم يكن صوابًا أن تأخذوا جانبًا غير جانبنا!

هل تعتقد أنّ الصراع بين السنّة والشيعة فقط لأنّ كلّ فريق يحاول أن ينتصر لله؟ الله لا وجود له في معادلة الصراع الطائفي هذه، الوجود الحقيقي في تلك المعادلة للخوف والكراهية وإثبات الذات.. للإيجو.. هؤلاء غاضبون لأجل أنفسهم لا لله، كلّ فريق يغتاظ من الفريق الآخر لأنّه آخر، لأنّه لم يدرك بعد أنّه على خطأ، لأنّ مجرّد وجوده يُوحي بأنّهم ليسوا على صواب.

أتدري من أين يجيء العنف؟ الغضب؟ الكراهية؟ الغيرة والحقد والحسد؟ كلّها تأتي من الكِبر، من الإيجو، النفس المتواضعة لا تُقارن نفسها بالآخرين فتغار منهم أو تحقد عليهم وتحسدهم.. النفس المتواضعة لا تشعر برغبة في الانتقام والنيل من الآخر الذي تعتقد أنّه نال منها، النفس المتواضعة لا تشعر أنّها يجب أن تكون على حق طوال الوقت ومن يُحاول إشعارها أنّها على خطأ يجب أن يذوق مرارة الفشل.

الكِبر، نقطة الحبر السوداء القادرة على تعكير أكثر السوائل نقاءً.

ثمّ توقّفتَ فجأة لتُتابع بعينيكَ شيئًا على الطاولة أمامكَ.. دقّقتُ النظر فوجدتُكَ تتأمّل نملة صغيرة تدور حول حبّة مكرونة سقطت على الطاولة.. كنتَ تتأمّلها بشغف طفلٍ يرى العالم لأوّل مرّة، ثمّ التفتَّ إليّ فجأة وأخبرتني بحماس:

ستذهب الآن لتستدعي أخواتها ليساعدنها في حملها!

هززتُ رأسي لأنفض عن نفسي دهشتي من تصرّفاتكَ، وسألتُك:

لأجل كلّ هذا فضّلتَ الابتعاد عن أفاتار؟

تنهّدتَ وأجبتني بحزن:

حاولتُ إقناعهم بوجهة نظري بشتّى الطرق، ولمّا وجدتُ أنّني فشلتُ انتبهتُ إلى شيء أفزعني! أنا نفسي يحركّني الإيجو! أُحاول أن أُثبت لهم أنّني على صواب وهم مخطئون، وأغضب إن لم يقتنعوا بذلك.. لا تفهمني خطأ، لا أعني أنّني ما كان عليّ أن أُنبهم لخطئهم أو أُوضّح لهم ما أعتقد أنّه الحق، لكنّني انتبهتُ إلى أنّني لا أفعل ذلك لوجه الله، من أجل الحقيقة، كنتُ أتحرك بدافع أنّني صواب لأنّني أنا أنا، كان بداخلي غضب وغيظ من عدم التفاتهم إليّ.. هنا أدركتُ أنّني لن أُقنعهم بعلاج مرض أنا نفسي مصاب به.. وهكذا قرّرتُ ذات صباح أن أُغادر عالمي تمامًا لأقتل الإيجو ثمّ أعود حينما أُصبح نفسًا متواضعة.

سألتُكَ متّسع العينين:

تقتل الإيجو.. كيف؟!

فسألتني بدورك:

هل تعرف الإمام أبو حامد الغزالي؟

وقبل أن أُجيبكَ أسرعتَ تقول:

الإمام الغزالي كان أكبر علماء عصره، لم يكن هناك من يوازيه في الذكاء وسعة العلم وقوّة الحجّة، كانت لديه القدرة على الإطاحة بأيّ خصم يجادله، كان عبقريًا لا مثيل له.. وهو في سنّ مبكّرة استطاع أن يرأس المدرسة النظاميّة التي أنشأها الوزير نظام الملك المتحكّم في الخلافة العبّاسيّة في تلك الفترة، وكانت أكبر جامعة علميّة في وقتها.. أي إنّ الغزالي اجتمعت له كلّ أطراف المجد، العلم والشهرة والنفوذ والوضع الاجتماعي المميّز.. لكنّه ذات يوم وجد أنّه انغمس في كلّ هذا حتّى كاد يخسر نفسه.. أتدري ماذا فعل؟ ترك كلّ شيء فجأة، ترك زوجته وبناته وبيته وممتلكاته ومعارفه والمكانة الاجتماعيّة والعلميّة التي كانت لديه، وهام على وجهه في الأرض.. لمدة عشر سنوات ظلّ متخفّيًا يتنقّل من بلد لأخرى، ليس معه من متاع الدنيا شيء، لا يفعل سوى التفكّر والتأمّل.. كان يدخل إلى المراحيض في المساجد فينظّفها ليقتل الكِبر في نفسه، وإذا تعرّف عليه أحد كان يُسارع بالهرب إلى بلد جديد لا يعرفه فيه أحد.. وفجأة وبدون مقدّمات عاد إلى أسرته، لكنّه عاد شخصًا جديدًا، متواضعًا زاهدًا في كلّ شيء.. وفي تلك الفترة كتب أهمّ مؤلفاته وأخلدها، وسجّل تجربته في كتاب رائع أسماه "المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال".. لطالما ألهمتني هذه القصّة وأثّرت فيّ.

- تعني أنّكَ تركتَ كلّ شيء وهِمتَ على وجهكَ في الأرض طوال الفترة الماضية؟!

- ليس تمامًا، قضيتُ بضع سنوات أتنقّل من مدينة لأخرى، أُخالط البسطاء وأبناء الشوارع.. كنتُ أُحاول كسر نفسي وتعليمها التواضع.. قتل الإيجو.. وحينما شعرتُ أنّ صوت الإيجو أصبح خافتًا بداخلي عدتُ.

هززتُ رأسي غير مصدّق:

لا يُمكنني تخيّل أن يترك شخص كلّ ما لديه لأجل أيّ شيء!

ثمّ استدركتُ باهتمام:

ولماذا لم تعد إلى أفاتار لتُخبرهم عن تجربتكَ وتُقنعهم بأفكاركَ من جديد؟

ابتسمتَ حينها وأجبتني:

ما تعلّمتُه في تلك الفترة أنّ الإيجو لا يُمكن القضاء عليه بشكل كامل، سيظلّ كامنًا داخلنا ويظهر عند أيّ فرصة، لكن بإمكاننا فقط أن نقلّل من حجمه، نحجّمه، نجعله صغيرًا لا تأثير له، نتجاهل همسه ووساوسه.. اكتشفتُ في تلك الفترة أنّ علاج الإيجو هو الحبّ!

- الحبّ؟!

- نعم، الإيجو يذوب في وجود الحبّ ذوبان القذارة أمام الصابون.. لذلك بعد أن عدتُ قمتُ بإنشاء طريقة صوفيّة!

obeikan.com

في الصباح التالي لتلك الليلة التي أخبرتُ فيها (رِهام) بكلّ شيء عنّي؛ بدأ العذاب الحقيقي.

ما وقع بيننا جعلني أوقن أنّها تُبادلني نفس المشاعر، فاعتبرتُ أنّني تجاوزتُ مرحلة لفت انتباهها، وأصبحتُ أعتبرها ملكًا لي، وبدأ قلبي يُحاسبها على كلّ شيء.. ظننتُ السعادة ستكون عنوان هذه المرحلة، لكنّني منذ بداية اليوم، من اللحظة التي فتحتُ فيها "الفيس بوك" وأسرعتُ إلى صفحتها لأرى إن كانت كتبت شيئًا جديدًا؛ بدأ الألم ينهش صدري ويعبث داخله كوحش ينتزع أحشاء ضحيّته.. كانت قد كتبت:

"النسيان نعمة قد لا ننالها"

أهذا هو تعبيرها عمّا حدث بالأمس؟ انتظرتُ أن تكتب شيئًا على غرار: بجواره أشعر بالأمان – ما ألذّ لمسة يده – سأكون له للأبد!

هل نست اللحظة الشعوريّة التي توحّدنا خلالها؟ ألا يُسيطر عليها نفس الشعور الرائع الذي يملأني من الأمس؟

ثمّ هناك تلك الجوقة اللعينة.. مجموعة من الأشخاص ينتظرون أن تكتب أيّ شيء ليُعلّقوا عليه بأيّ هراء يتبدّى لهم، وكأنّهم يُقدّمون فروض الطاعة للملكة!

Obeikan.com

منذ أسابيع وأنا أُتابعهم، لكنّهم لم يشغلوا بالي طويلاً، كنتُ أعتبرهم منافسين يحاولون الفوز بإعجابها مثلي، وكنتُ أثق أنّهم ليسوا أندادًا لي.. لكنّني الآن أصبحتُ أنظر لهم كلصوص يُحاولون سرقة شيء صار لي.. مشاعر (رِهام) وإعجابها يجب أن يكون كلّه لي وحدي، قد يثير أحد هؤلاء المهرّجين نقطة للنقاش فتضطرّ للردّ عليه، الزمن الذي ستستغرقه في كتابة ردّها، انشغال عقلها باسم الشخص –أو صورته إن كانت تعرف شكله- بينما ترمق كلماته لتردّ على جمله جملة جملة، كلّ هذه أشياء كان يجب أن تكون لي أنا!

فتحتُ صفحة الرسائل وراودتني أصابعي أن أُرسل لها رسالة عنيفة بخصوص من تتركهم يُعلّقون على "البوستات" التي تنشرها، لكنّني تراجعتُ قبل أن أبدأ.. هناك أشياء يجب أن تُفهم دون أن تُقال.. يجب أن تمنحني كلّ تركيزها واهتمامها دون أن أطلب منها.. ثمّ إنّنا.. ثمّ إنّنا لم نعترف لبعضنا بأيّ شيء.. نعم هناك حالة من التواطؤ اللذيذ بيننا، لكن عند الجدّ يُمكنها أن تتنصّل من أيّ شيء، ستقول إنّني أسأتُ الفهم وأنّ ما وقع بالأمس ليس أكثر من لحظة تعاطف إنسانيّة انتهت بانتهاء الليلة، أنتم دائمًا أيّها الرجال تُفسّرون ردّات أفعالنا على هواكم!

اللعنة يا (رِهام)!

شعرتُ أنّ الغيظ سيقتلني فدخلتُ وكتبتُ تعليقًا على "البوست" يقول:

"قد لا نحتاج للنسيان إذا كان معنا الشخص المناسب الذي ننسى معه كلّ مشاكل العالم"

وأرسلتُ الردّ منتظرًا احتفاءها بي.. وصلني إشعار بأنّها ردّت بعد ردّي، فدخلتُ متهيّبًا.. كانت تردّ على شخص وضع "كومنت" قبلي، فتوقّعتُ أن تردّ عليّ بعدها.. لكنّ ذلك الشخص أرسل ردًّا على ردّها، فإذا بها تستمرّ في الردّ عليه، ويتبادلان الردود وكأنّها لم ترَ كلامي!

تجاهلتني!

شعرتُ بغضبٍ عاتٍ، كتبتُ على صفحتي والدنيا متلوّنة أمام عينيّ باللون الأحمر:

"هنك أشخاض نعتقد أنّهم صاروا جزءًا منّا، لكنّهم في الحيقيقة لا يستحقّون اهتمامنا"

ثمّ انتبهتُ بعد نشر "البوست" إلى أنّني أخطأتُ في بعض الكلمات بسبب تشوّش رؤية أزرار "الكي بورد" أمام عينيّ.. عدّلتُه، وغيّرتُ "هنك" إلى "هناك"، و"أشخاض" إلى "أشخاص"، و"الحيقيقة" إلى "الحقيقة".

سترى ما كتبتُ وستصلها الرسالة المخفيّة بين السطور!

مضت ساعة دون جديد، "البوست" الذي نشرتُه حصد مئات "اللايكات" كالعادة، بينما استمرّت هي في نقاشها مع أصدقائها حول أهمّية النسيان على صفحتها.

أدركتُ أنّني سأكره نفسي على ما سأفعله، لكنّني لم أستطع مقاومة الرغبة الجامحة التي أخذت تُحرّكني، يجب أن أُذكّرها بوجودي، يجب أن تُبدي أيّ شيء بخصوص الليلة الماضية!

فتحتُ صفحة الرسائل وأخذتُ أكتب وأمسح وأُعدّل وأُضيف.. وبعد عشر دقائق أرسلتُ لها رسالة تقول:

"صباح الأنوار..

أتمنّى أنكِ بخير بعد ليلة الأمس.. طمئنيني عليكِ حينما تجدين وقتًا لذلك!"

كانت "أولان لاين" كما توقّعتُ، إذ وجدتُ ردّها يصلني سريعًا:

"صباح الروعة يا (نادر) :)

أنا بخير، الحمد لله، شكرًا على كلّ ما فعلتَه بالأمس، لا أدري ماذا كان سيحدث لو لم تكن موجودًا!"

أهذا كلّ شيء؟!

أرسلتُ لها:

"مازلتِ تدينين لي بتوضيح حول خوفكِ من الناس.. أنا لم أنسَ أنكِ أجّلتِ الكلام في هذا الأمر :)"

وصلني ردّها بعد ثوانٍ:

"لا أُريد إزعاجكَ بمشاكلي الخاصة وعُقدي.. كما أنّني أخشى أن تتغيّر نظرتكَ لي بعد أن تعرف"

Obeikan.com

تبخّر من صدري كلّ حنقي عليها.. كلامها يعني أنّها تنوي أن تُخبرني لكنّها تخشى اهتزاز صورتها أمامي لأنّها تحترمني.. أو تُحبّني!

"صورتكِ راسخة أمام ناظري ولا شيء بمقدوره النيل منها.. ثمّ لا تنسي أنّني أخبرتُكِ بكلّ شيء عن نفسي ولم تنزعجي"

وصلني ردّها على الفور:

"أنا بالفعل أُجهّز منذ وصلتُ إلى البيت بالأمس رسالة طويلة أشرح لكَ فيها كلّ شيء بخصوص مخاوفي.. سأنتهي منها بعد قليل وأُرسلها لكَ، وحينها لا تلومنّ إلا نفسكَ، أنتَ من أصررتَ أن تعرف D: "

ما أجمل الدنيا، ما أجمل العالم، ما أجمل الانتصار بعد طول انتظار!

منذ الأمس وهي تُفكّر فيّ وتكتب لي رسالة طويلة، منذ الأمس وأنا في بالها.. ما رأيكم الآن يا جوقة الأغبياء؟ أقصى ما تنتظرونه منها "لايك" أو ردّ مجامل أو وجه مبتسم، لتحصلوا على عَظْمَتكم وتعودوا وأنتم تهزّون ذيولكم!

سأنتظركِ أيّتها الملكة.. فقط لو أخبرتِني منذ بداية اليوم، لوفّرتِ على أعصابي الكثير من الإنهاك!

لم أعد أستطيع فعل شيء، مضى اليوم وأنا أذرع مكتبي بالطول والعرض، وأرمق شاشة "اللاب توب" كلّ بضع ثوانٍ في انتظار وصول الرسالة المرتقبة.. ألغيتُ كلّ اتّصالاتي ومواعيدي، وصرختُ في (مها) حينما حاولتْ محادثتي.. وقبل أن يأتي وقت مغادرتي للمكتب بساعة، في

تمام الرابعة عصرًا يا (عزيز)، وصلتني الرسالة الفارقة في علاقتي بـ(رِهام).. رمقتُ شاشة "اللاب توب" فغزاني التوتّر وشعرتُ برغبة في الذهاب للحمّام.. فتحتُها فهالني كبرها.. تسمّرتُ أمامها وأخذتْ عيناي تجريان على سطورها مبهور الأنفاس.. أذكر كلّ حرفٍ فيها.. كانت تقول:

منذ فترة طويلة أكتم بداخلي ما سأخبركَ به الآن، أعرف أنّ صورتي قد تتغيّر في عينيكَ بعدها، ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا، لكنّني أثق فيكَ الآن وأودّ أن تعرفني كما أنا على الحقيقة، تمامًا كما عرفتُكَ.

تعرف أنّي كنتُ أعيش مع أسرتي في الإسكندريّة قبل أن أنتقل وحدي إلى القاهرة، في الحقيقة لسنا من أهل الإسكندريّة، أصولنا تعود إلى الصعيد، نزح أبي في شبابه إلى هناك وتزوّج أمّي وأنجباني أنا وأختي، فنشأنا ونحن لا نعرف لنا بلدًا سوى الإسكندريّة.. حتّى الزيارات التي كان يقوم بها أبي إلى الصعيد كلّ بضع سنوات؛ لم نكن نذهب فيها معه، وحينما كان يأتينا أقرباؤنا من هناك كانوا يبيتون ليالٍ معدودة ويذهبون دون أن نشعر بهم.. لكنّ صلتنا لم تكن مقطوعة تمامًا بالصعيد، أدركتُ ذلك حينما دخلتُ كلّية الآداب.. حينها تعرّفتُ بأيمن، كان في دفعة تسبقني، لكنّه كان شاعرًا مثقّفًا، أسرني بشخصيته وثقافته وطيبته.. كان شهمًا مثلكَ، لم يكن يسمح لأحد بإيذائي.. نسج الحبّ خيوطه الورديّة بين قلبينا، ولحسن الحظ كان من أسرة ميسورة الحال فلم تكن هناك مشكلة في أن يتقدّم لخطبتي قبل حتّى أن يتخرج ويعمل.. لكنّني فوجئتُ بردّة فعل أبي العنيفة!

عرفتُ حينها أنا وأختي أنّ أسرتنا تنتمي إلى قبيلة الهوّارة، وهي قبيلة كبيرة يعيش أفرادها في الصعيد وأماكن أخرى متفرّقة في مصر، ولديها مبدأ مقدّس في عدم تزويج بناتها خارج القبيلة.. إذا كنتَ هوّاريًا فبإمكانكَ أن تتزوّج من أيّ فتاة، لكن ابنتكَ أو أختكَ لن تتزوّج إلا هوّاريًا مثلها، وإلا فهو العار! قد لا يمكنكَ تخيّل أبعاد الأمر، لكن فلنقل إنّه عند الهوّارة شبيه بأن تتزوّج فتاة مسلمة بفتى على غير دينها!

أعتقد أنّ الأمر بدأ منذ مئات السنين، حينما رأى الأبناء الأوائل للقبيلة أنّ الأفضل أن تتزوّج بناتهم من أبناء عمومتهنّ كي لا يذهب ميراثهنّ لأغراب يتفاخرون بأنّهم حصلوا على أجزاء من أراضي أو أموال القبيلة.. لكن مع تقادم الزمن وزيادة عدد أفراد القبيلة وانتشارهم أصبح الأمر بلا معنى.. هل تذكر قصّة القرود الخمسة؟

يُقال إنّهم وضعوا خمسة قرود في قفص به سلّم أعلاه سباطة موز، وكلّما حاول أحدهم صعود السلّم للوصول للموز يُلقون على رؤوس جميع القرود بدلو ماء مثلّج.. مع الوقت توقّفت القرود عن المحاولة.. ثمّ جاءت الخطوة التالية في التجربة حينما استبدلوا قردًا جديدًا بأحد القرود في القفص، طبعًا لم يكن يعرف شيئًا عن موضوع دلو الماء المثلّج، فكان أوّل ما فعله أن حاول صعود السلّم للحصول على الموز.. لكنّ القرود الأربعة أسرعت إليه ومنعته.. وكلّما حاول الصعود كانت القرود تمنعه.. بعد فترة تمّ استبدال قرد جديد بقرد آخر داخل القفص، وحينما حاول القرد الجديد صعود السلم أسرعت القرود الأربعة –ومعها القرد الذي لم يُجرّب سقوط الماء المثلّج- لمنعه.. مع الوقت تمّ استبدال

قرود جديدة بكلّ القرود الموجودة في القفص، ومع ذلك استمرّت القرود في الابتعاد عن السلّم ومنع أيّ قرد جديد من محاولة صعوده.. رغم أنّها لم تمرّ بتجربة سقوط الماء المثلّج فوق رؤوسها، ولا تعرف السبب الذي كان يتمّ منعها من صعود السلّم بسببه، لكنّها حملت التقليد الذي تعلّمته من القرود الأولى.. هكذا تنشأ العادات والتقاليد ونستمرّ في تنفيذها بشكل أعمى.

رفض أبي أيمن، واعتبر مجرّد تفكيري في الزواج به إهانة لنا.. سألني باحتقار عن أصله وفصله، وصفه بالفلاح الذي لا يجوز له أن يناسب أبناء القبائل العريقة مثلنا.

لكنّني بالطبع لم أستسلم. ثرتُ وهجتُ ومجتُ وهدّدتُ.. ناقشتُه بالحسنى تارة وانفجرتُ في وجهه تارة أخرى، صارحتُه أنّ كلّ ما يقوله ليس سوى هراء وأنّنا تجاوزنا ذلك الجهل منذ سنين.. نحن في بداية القرن الحادي والعشرين فكيف نفكّر بطريقة العصور الوسطى؟! لم يُلقِ لي بالاً، فهدّدتُ بالهرب من البيت وامتنعتُ عن الطعام.. أمّي لم تستطع أن تفعل شيئًا، وأختي كانت مذهولة وهي ترى فيما يحدث معي إرهاصة لما سيصير إليه مستقبلها.

لم يجد أبي بُدًا من التنكيل بي، ضربني وأهانني ومنعني من الخروج حتّى إلى الجامعة.

كان لديّ أمل أنّهم سيرقّون لحالي حينما يرونني أذوي أمامهم، كنتُ أرى في المرآة عينيّ الغائرتين ووجهي الذي صار ممصوصًا وكأنّني مريضة.. لكن

obeikan.com

لم يأتِ الأمر بفائدة، كان أبي مصرًّا.. تسللت رضوى أختي إلى محبسي ذات مرّة وأسرّت إليّ بأنّها سمعت أبي يُخبر أمّي أنّ أيمن جاءه في المحل الذي يعمل فيه.. كان يبحث عنّي كالمجنون، ولما انقطعت أخباري تمامًا ولم أعد آتي إلى الكلّية؛ اضطرّ أن يذهب بنفسه إلى أبي.. كانت ردّة فعل أبي عنيفة، ضربه وأهانه أمام الجميع، ثمّ أخذه مع مجموعة من أصدقائه الصعايدة وذهبوا إلى أبيه فهدّدوه وحذّروه من أن يحاول ابنه مرّة أخرى التفكير في ابنتهم.

هكذا ابتعد أيمن عن حياتي تمامًا ولم أسمع عنه بعدها.

ضاعت عليّ السنة والسنة التي تليها.. قطع عنّي كلّ الاتّصالات كي لا أتواصل مع أيمن بأيّ شكل، ومرت عليّ شهور طويلة وأنا محبوسة في غرفتي لا أرى أحدًا سوى أمّي حينما تأتيني بالطعام، الذي كنتُ في أغلب الأحيان لا أمسّه.

مع الوقت بدأتُ أستسلم وبدأ أبي يُرخي قبضته عليّ.. أصبح بإمكاني مغادرة غرفتي والجلوس معهم، وإن لم يسمح لي أبدًا بالخروج من البيت إلا حينما جاء زوجي ليأخذني لبيته!

نعم يا (نادر)، لقد زوّجني أبي لابن صديقٍ له كان قد سبقه في القدوم من الصعيد، وربما هو من شجّعه على شدّ الرحال إلى الإسكندريّة.. في الغالب اجتمعا واتّفقا على وضع زيتهما في دقيقهما، فجاءني ذات يوم وأبلغني بأنّه سيُزوّجني لفلان.. اعترضتُ وبكيتُ وتوسّلتُه ألّا يفعل بي

هذا، حتّى في الصعيد لا يُزوّجون الفتيات بهذه الطريقة وكأنّهنّ لا رأي لهنّ..

أبي لم يكن هكذا، كان طيّبًا متفهّمًا لا يُحيطنا بالقيود، لكنّه تغيّر تمامًا منذ ظهور أيمن في حياتنا.. أحيانًا أُفكّر أنّ هذا الأمر جعله يُعيد حساباته ويتمسّك بما يعتقد أنّه هويّته وجذوره.. ربما شعر أنّه أخطأ حينما ابتعد بنا عن أرض الآباء والأجداد وجاء بنا إلى أرض لا تعترف بما يدين به من عادات وتقاليد، ربما هو ليس مقتنعًا بكلّ هذا لكنّه يخشى نظرة الآخرين له، أن يقال إنّه زوّج ابنته لفلاح لا أصل له، ربما سمع كلّ هذا الكلام من أصدقائه الصعايدة الذين يُجالسهم في أماكن تجمّعاتهم.

قلتُ له باكية:

لكنّني لا أعرفه، لم أرَ شكله ولا أعرف طباعه.. كيف سأقضي بقيّة عمري مع شخص لم ألتقه من قبل؟!

- ستعرفينه جيّدًا بعد الزواج.. يكفي أنّه هوّاري مثلكِ، يعرف أصلكِ وفصلكِ وسيصونكِ.. بدلاً من أن تتزوجي فلاحًا وتجلبي العار لنا!

هل تُصدّق هذا؟ جلب العار لا يكون خارج الزواج دائمًا، أحيانًا يكون بالزواج!

أنا لا أعرف إن كانت لديكَ أخوات بنات أم لا، لكن إن لم يكن فاحمد الله.. فلن تظلمهنّ فتحمل إثمهنّ، ولن يظلمهنّ المجتمع فتحمل في قلبكَ الحزن على مصيرهنّ.

لا يُمكنكَ أن تتخيّل حجم الظلم والإجحاف الذي تُلاقيه المرأة في مجتمعاتنا إلا لو كنتَ أنتَ نفسكَ امرأة! سيتظاهر الجميع بالتفتّح والعدل لكن وقت الجدّ ستتعاملون معنا كمتاع من متاع البيت تُسنّ القوانين وتُبتكر العادات والتقاليد ليكون مناسبًا لصاحبه، كي لا يحمل له العار أو يُفسد نظرة الآخرين له.. أنتم الرجال تحتاجوننا فقط لنحمل أبناءكم ونُرضي غروركم وكبرياءكم، لكن لو كانت هناك وسيلة أخرى لإنجاب الأطفال سوانا ستبدأون على الفور حملة تطهير عرقي ضدّنا، وبهذا تتخلّصون من أكبر صداع لازمكم منذ بدء الخليقة!

تزوّجتُ دون أن أُتمّ تعليمي، لم أرَ زوجي سوى عدّة مرّات في فترة الخطوبة التي لم تزد عن شهر، كان شكله لا بأس به، لكنّني لم أعرف طبعه سوى بعد أن انغلق علينا باب منزلنا.

ماذا أقول لكَ؟

كنتُ فتاة ساذجة لا خبرة لي في أمور الزواج، وأمّي لم تُخبرني شيئًا.. لذلك لم أُدرك أنّ زوجي كان ضعيفًا في الفراش لأنّني لم أكن أعرف كيف تتمّ الأمور، لكنّه لم يُدرك ذلك، فكان يضربني ويُهينني بعد كلّ لقاء ويتّهمني بأنّني باردة ولا أُساعده، ويحذّرني من إخبار أهلي.. وأنا أستغرب: أُخبرهم بماذا؟!

أصبح يتعامل معي بعصبيّة، وينتقد أيّ تصرف أقوم به، ويتّهمني طوال الوقت بأنّني مدلّلة لا أصلح للزواج.

أمّا أمام أهلي، حينما نذهب لزيارتهم أو يأتون هم إلينا، فكان يتحوّل 180 درجة! تلتصق الابتسامة بوجهه ولا يكفّ عن الكلام بمرح ومداعبة الجميع، حتّى أنا.

أحيانًا كان يختلي بوالدتي فيُصارحها بضيق أنّني زوجة مُتعِبة، ويأخذ في تعديد عيوبي أمامها، وهي مطرقة ترمقه بخجل.. تأتيني بعدها وتنصحني أن أهتمّ أكثر بزوجي وبيتي، فأُصارحها أنّه يُهينني ويضربني، فتُقاطعني قبل أن أُكمل وتُخبرني بالأكليشيهات المعتادة: المرأة ليس لها إلا زوجها وبيتها، رضا الزوج من رضا الله، الرجال مثل الأطفال يُمكن كسبهم بسهولة، إلى آخر هذا الكلام..

رغم كلّ هذا لم أثر أو أتمرّد كعادتي.. صدّق أو لا تُصدّق، عزمتُ النيّة على أن أُصلح من حياتي معه مهما كلّفني الأمر.. إن كانت هذه حياتي فلا أقلّ من أن أبذل ما أستطيعه لتكون جنّة.. حاولتُ بصدق أن أُحبّه وأُعامله برقّة ودلال، وأخذتُ انتقاداته لي بجدّية رغم معرفتي أنّ أغلبها مصطنع.. قلتُ لنفسي: سيكون نَفَسي طويلاً، سأكون زوجة محبّة طيّبة معه إلى النهاية.. لن يُحبطني عدم وجود نتيجة، فثمرة معاملتي الطيّبة لن أجنيها إلا بعد شهور.. سأُضحّي باحتياجاتي الآن في سبيل أن أكسبه.

تعاملتُ معه بصبر، مهما عاملني بعصبيّة أو أساء إليّ.. حاولتُ بشتّى الطرق أن أوصل له أنّني غير مهتمّة بعلاقتنا في الفراش، وأنّني لا أطلب منه أكثر ممّا يستطيع.. لم أطالبه حتّى بمراجعة طبيب.. تعمّدتُ أن أُفهمه أنّني لا رغبة لي في أطفال سواه، سيكون هو ابني وزوجي وحبيبي وكلّ شيء في حياتي.. لكن ما لم أفطن إليه وقتها أنّه كان يُسقط عليّ فشله في

obeikan.com

الفراش، كان يكره أن أشهد محاولاته المستمرّة التي بلا طائل.. كان يعتبرني عدوّته.

لم أستطع يومًا أن أفهم لماذا قد يعامل زوجٌ زوجته بغلظة، لماذا يضطهدها ويُسيء معاملتها ويسعى لتسويد عيشتها؟ لماذا لا يُراعي الله فيها؟ ماذا سيستفيد من ذلك؟! لماذا يتزوّج أصلاً إذا كانت نفسيته بهذا الشكل؟ لماذا لا يحاول العمل كجلاد في السجون والمعتقلات ليُخرج طاقة العنف والغضب التي بداخله، لماذا لا يعرض نفسه على طبيب نفسي أوّلاً ويقطع أشواطًا في العلاج قبل أن يأخذ فتاة مسكينة من بين أهلها، فقط ليُعذّبها ويُخرج عُقده عليها؟!

أثق أنّ زوجتكَ سعيدة راضية، فمثلكَ من الرجال يعرفون جيّدًا كيف يصونون نساءهم ويتّقون الله فيهنّ.

ربما كانت حياتي الزوجيّة ستمضي كما هي إلى آخر العمر لولا ظهور (ماهر).

(ماهر) صديق زوجي منذ الطفولة، كان كثيرًا ما يزورنا فيجلس إلى زوجي، وآتي أنا من آن لآخر لأُقدّم لهما شيئًا يشربانه أو يأكلانه.. لكنّني بعد شهور من زواجي بدأتُ أُلاحظ نظراته لي.. كان يرمقني باهتمام في البداية، فسّرتُه بأنّه اهتمام طبيعي من شخص اعتاد اقتحام النساء بنظراته حتّى لو كانت زوجة صديقه.. لكنّني مع الوقت انتبهتُ إلى أنّ نظرته تتّخذ طابعًا عابثًا، نظرات وقحة يختلسها إليّ حينما لا يكون زوجي منتبهًا، نظرات لم أكن ألحظها في البداية، لكنّني مرّة بعد أخرى انتبهتُ إلى أنّه

يتعمّد أن أراه وهو يرمقني.. وكأنّه يُرسل لي رسالة صامتة: أنا قادم خلفكِ!

خمّنتُ حينها أنّ زوجي الغبي في الغالب صارحه بمشكلتنا في الفراش، ربما كان يسأله عن أدوية أو حلول.. أنا لستُ ساذجة لتلك الدرجة يا (نادر)، وأدركتُ على الفور أنّ (ماهر) يعتقد أنّ بإمكانه الحصول عليّ.. أنّني أعاني من كبت سيجعل الوصول إليّ سهلاً.. لذلك أصبحتُ أتجاهله وأتعمّد عدم الظهور حين يكون موجودًا، حينما أصنع لهما شيئًا كنتُ أُنادي زوجي ليأتي إليّ في المطبخ ويأخذ ما صنعتُ.. ولم أكتفِ بذلك، صارحتُ زوجي بأنّني لا أرتاح لوجود (ماهر) في بيتي، وطلبتُ منه أن يلتقيه في المقهى أو أيّ مكان آخر. فكانت ردّة فعله أن عنّفني وانفجر في وجهي.. هذا بيتي وليس بيتكِ، إن لم يعجبكِ الأمر يمكنكِ أن تذهبي في ستين داهية إلى أهلكِ.. ملأني الغضب فصارحتُه بأنّ نظرات (ماهر) لي لا تُعجبني، وأنّه يجب أن يغار عليّ أكثر من هذا. فما كان منه إلا أن صفعني وهو يصرخ بي أنّ (ماهر) أكثر من أخيه وأنّه يثق به أكثر مما يثق في نفسه!

تجرّعتُ غباءه بصبر ولم أُصعّد الأمر أكثر من هذا.

ثمّ جاء اليوم الفارق في حياتي حينما رنّ جرس الباب ذات صباح.. كان زوجي في عمله، ولم أكن أتلقّى زيارات من أحد في ذلك الوقت.. فتحتُ الباب فإذا به (ماهر)، أخبرتُه باقتضاب أنّ صديقه ليس هنا، يمكنه أن يذهب إليه في مقرّ عمله، وهممتُ بإغلاق الباب قبل انتظار ردّه، لكنّه مدّ يده بسرعة ليوقف ضلفة الباب، وهو يقول لي:

أعرف أنّه ليس هنا، لهذا جئتُ.. أُريد الحديث معكِ أنتِ.

شعرتُ بالغضب من وقاحته، رددتُ عليه بحنق:

لا يوجد حديث بيننا، ومن العيب أن تأتي لبيت صديقكَ وأنتَ تعرف أنّه غير موجود!

قال لي بوقاحة أطارت صوابي غضبًا:

أنا أعرف أنّه لا يكفيكِ وأنّكِ بحاجة لرجل حقيقي.. فلنختصر الطريق على أنفسنا، أنا أعرف أنّكِ معجبة بي، هل تعتقدين أنّني لم ألحظ نظراتكِ المختلسة لي وأنتِ تقدّمين الشاي؟

فقدتُ السيطرة على أعصابي فهتفتُ به والدموع تطفر من عينيّ:

أنتَ سافل منحط وغد حقير! اذهب من هنا وإلا طلبتُ لكَ الشرطة، وحينما سيعود زوجي سأُخبره بما قلتَ وسيكون حسابه معكَ عسيرًا!

سمع كلماتي وأدرك أنّه وقع في شرّ أعماله، فبدأ حينها الكابوس!

دفعني بعنف فسقطتُ داخل الشقّة، فدخل وأغلق الباب خلفه، ثمّ هجم عليّ.. قاومتُه بكلّ ما أوتيتُ من قوّة، ركلتُه وخمشتُ وجهه ووجهتُ اللكمات لكلّ منطقة استطعتُ أن أصل إليها في جسده، لكنّه كان مصرًّا.. ضربني عدّة مرّات على وجهي وكتم فمي بيده حينما بدأتُ أصرخ بهستيريّة، بينما يده الأخرى تُحاول السيطرة على يديّ كي أتوقّف عن ضربه، وفي نفس الوقت تُحاول تمزيق ملابسي.. يتكرّر هذا المشهد بشكل مستمرّ في كوابيسي.. كانت هناك مرآة جداريّة بجوار الباب سقطنا

بجوارها، فكنتُ أرى فيها المشهد كلّه بينما أُقاومه، خنزير حقير يعتليني وأنا أُقاومه بهستيريّة شبه عارية.. وجهي يختلط فيه العرق بدموع القهر في عينيّ بسواد الكحل الذي سال على خديّ المتورّمين من صفعاته.. وجه امرأة تُنتهك.. كرهتُ وجهي، لم أعد أُطيق ملامحي، ومنذ ذلك اليوم أصبحتُ أغمر وجهي بالألوان والمساحيق الثقيلة وأضع عدسات ملوّنة في عينيّ، لا عن رغبة في التزين وإظهار جمالي، بل لأُخفي ملامح وجهي، لا أُريد أن أراه في المرآة، أو ألمحه منعكسًا في عيون من أقابلهم.

تحوّلتُ إلى آلة تُقاوم (ماهر) بلا هوادة، أصبح كلّ ما أرغبه في الحياة ألّا أسمح له بالانتصار عليّ، انتهكني وامتدّت يده لكلّ جزء في جسدي، لكنّني لم أستسلم.. بعد دقائق نهض من فوقي وهو يلهث وعيناه تقدحان شررًا، بصق عليّ وهو يهتف:

أنتِ لديكِ عشيق آخر، لهذا ترفضينني.. لكنّكِ ستندمين!

وأسرع يغادر الشقّة ويصفق الباب خلفه بعنف، وتركني أنهار باكية بجوار المرآة.

بعد أن استجمعتُ قواي ونهضتُ كان أوّل ما فعلتُه أن أسرعتُ إلى الحمّام فأخذتُ دُشًّا وأنا أدعك جسدي بقوّة، شعرتُ أنّ بشرتي تلوّثت بلمسات (ماهر) والماء وحده لن يكفي لإزالة قذارته.

حينما خرجتُ من الحمّام وجدتُ زوجي يفتح باب الشقّة، أسرعتُ إليه لأُخبره بما وقع في غيابه، لكنّه استقبلني بصفعة أسقطتني أرضًا.. وقبل أن أفهم ما حدث أخذ يركلني في بطني وصدري وهو يصرخ بجنون:

فااااااااااجرة! (ماهر) أخبرني بكلّ شيء!

حاولتُ أن أنطق وأُخبره أنّه جاءني وحاول اغتصابي، فتلقّى فمي ركلة من قدمه وشعرتُ بطعم الدماء فيه.

- لم أعد أكفيكِ فحاولتِ إغواء أعزّ أصدقائي يا أسفل خلق الله! كنتُ أعرف من البداية أنكِ ستجلبين لي العار كما حاولتِ جلبه لأبيكِ!

ظلّ يضربني حتّى فقدتُ الوعي، وأنا أُحاول أن أخبره الحقيقة.

استيقظتُ فإذا أبي وأمّي قد وصلا.. كانا يجلسان مطأطئي الرأس، وشعرتُ أنّ أبي قد كبر عشرة أعوام مرّة واحدة.. كان يتحرّك ويتكلّم بضعف وألم ويرمقني بكراهية.. حاولتُ أن أتكلّم، أن أشرح أيّ شيء، لكنّ أمّي صرخت بي أن أصمت الآن، وساعدتني في النهوض والذهاب لغرفتي.. رمقتُ وجهي في المرآة فهالني حجم الكدمات المنتشرة فيه، ضاعت الخدوش التي صنعها (ماهر) في وجهي بين الكدمات التي ألحقها بي زوجي.

حاولتُ أن أشرح لأمّي ما حدث، لكنّها كانت تُردّد بآليّة والدموع تطفر من عينيها:

لماذا يا (رِهام)، لماذا؟! ماذا فعلنا لكِ لتفعلي بنا كلّ هذا؟!

لم تكن هناك فائدة من الحديث.. ساعدتني أمّي في جمع ملابسي في حقيبة، ثمّ هبطنا إلى سيّارة الأجرة التي أحضرها لنا والدي.. لم يُحدّثني أو حتّى ينظر إليّ، بينما اختفى زوجي تمامًا.

أعطتني أمّي نقابًا لأرتديه كي لا ينتبه أحد من الجيران إلى ما في وجهي حينما نصل إلى بيتنا، وأخبرتني أنّ زوجي أخبرهما أنّه سيرسل إليّ ورقة طلاقي خلال أيام.

لم يصدّقني أحد، تعاطفت معي أمّي قليلاً، وإن سألتني:

طيب لماذا سيدّعي (ماهر) كذبًا أنكِ حاولتِ إدخاله الشقّة وإقامة علاقة معه؟ وكيف سيجرؤ على أن يعتدي على زوجة صديقه الصدوق؟!

- يا أمّي وما الذي جاء به أصلاً في هذا الوقت وهو يعرف أنّ زوجي في عمله؟!

لكنّ أحدًا لم يُحاول أن يفكّر أو يُعمِل المنطق.. (رِهام) فتاة متمرّدة وتخلّقت بأخلاق نساء بحري وخلعت برقع الحياء منذ حاولت الزواج بفلاح، فماذا سننتظر منها؟

عادوا يُعاملونني بمنتهى القسوة ويحبسونني في إحدى الغرف.. ضاقت بي الدنيا فحاولتُ الانتحار!

لم أفكّر كثيرًا، كانت صحفة الطعام أمامي، وبها تفّاحة مع سكين صغير، فتناولتُه وقطعتُ شرايين يدي.. إذا كنتُ أنا مشكلة حياتهم وحياتي فلأذهب وليعش الجميع في سعادة وهناء!

أسرعوا بي إلى المستشفى وخاطوا لي يدي، أنقذوني وأدركوا في نفس الوقت أنّني بلغتُ حدّ تحمّلي، فبدأوا يُخفّفون من قبضتهم حولي.. صحيح أنّهم لم يعودوا يتحدّثون معي –حتّى أختي- لكنّهم كفّوا عن توجيه

obeikan.com

النظرات الكارهة نحوي، ولم يعد أبي يُصرّ على أن ألزم غرفتي لا أخرج منها.

انتهزتُ هذا الأمر وجمعتُ ملابسي ذات ليلة، وغادرتُ البيت إلى الأبد بينما هم نائمون.

شددتُ الرحال إلى القاهرة، بعد أن تركتُ لهم رسالة أُخبرهم فيها أنّني سأُقيم عند أقارب أمّي هناك، وسأُكمل تعليمي الذي انقطع، ولا أُريد منهم أن يتبعوني أو يحاولوا إرجاعي وإلا قتلتُ نفسي، وفي هذه المرّة لن يلحق بي أحد!

وهكذا انتهى الأمر.. أذعنوا لرغبتي في الابتعاد، أو تنفّسوا الصعداء لأنّهم تخلّصوا منّي.. أقمتُ في القاهرة وقدّمتُ أوراقي في كلّية الآداب بجامعة القاهرة، وأكملتُ من حيث انتهيتُ.. وجدتُ عملاً كسكرتيرة في شركة أوراق ماليّة في 6 أكتوبر فأصبحتُ أُنفق على نفسي، وانتقلتُ إلى شقة صغيرة بجوار عملي أقمتُ فيها وحدي.

كنتُ على اتّصال بأختي دون علم أبي وأمّي، وحينما عرفتُ أنّ تنسيقها جاء بها إلى جامعة عين شمس، وأنّ أبي وجد لها سكن طالبات قرب الجامعة، شجّعتُها على أن تتركه وتأتي لتُقيم معي.. بعد فترة عرف والدي بالأمر، لكنّه لم يتّخذ أيّ ردّة فعل.. على الأقل سيُمكنه أن يعرف أخباري من أختي.

هل انتهت قصّتي عند هذا الحدّ؟

لا..

منذ عدّة سنوات بدأتُ التدوين، وتعرّفتُ على الكثير من الأشخاص.. لكنّ واحدًا منهم فقط هو من توطدت علاقتي به.. بدأ الأمر كصداقة وتشارك في الكثير من الاهتمامات، ثمّ التقيتُه أكثر من مرّة مع مجموعة من المدوّنين في مناسبات مختلفة.. أدهشني أنّه استطاع الحصول على ثقتي بسرعة، يبدو أنّني سأظلّ ساذجة طوال عمري.. بعد أن كرهتُ كلّ الرجال واعتبرتُهم مخلوقات كريهة لا يحملون لنا سوى الألم، إذا به يخترق حصوني ويلمس قلبي بأنامل حانية.. أحببتُه، ربما كان هو الحبّ الحقيقي الوحيد في حياتي، إذا اعتبرنا أيمن مجرّد محاولة مراهقة.. كنّا نختلق الأعذار لنتحدّث أو نلتقي، شعرتُ أنّه التعويض الذي أرسلتُه لي الدنيا عن كلّ ما مررتُ به.

لابدّ أنكَ خمّنت يا (نادر) أنّ الأمر انتهى بدوره بكارثة، لكن كيف تمّ الأمر؟ هذا هو السؤال.

في تلك الفترة كنتُ السعادة مجسّدة في شكلٍ آدمي، كتاباتي وأسلوبي كانا ينضحان بالمرح وحبّ الحياة.. من العجيب أنّ وجود شخص في حياتكَ قد يُغيّرها بهذا الشكل، وغيابه قد يقضي على كلّ شيء.

بعد شهور من معرفتي به.. بالتحديد قبل سنتين من الآن.. بدأ يُلمّح برغبته في الارتباط بي، أنّه لن يستطيع الاستمرار بدوني، إلى آخر هذا الكلام المكرّر الذي يقال في تلك المناسبات.

كان عليّ هنا أن أُصارحه ببعض الأمور.. أمور حاولتُ تناسيها طويلاً، لكن لا يُمكن ألّا أخبر بها شريك حياتي المرتقب.. أخبرتُه أنّني مُطلّقة، فصُدِم!

كان يظنّ نفسه الرجل الأوّل في حياتي، وأنّني لم يسبق لي الزواج.. حكيتُ له كلّ شيء، رفض أبي لأيمن لأنّنا هوّارة، زواجي بذلك الشخص الذي لا أُطيق حتّى ذكر اسمه، (ماهر) وما فعله، موقف أهلي منّي وهربي منهم.

ظننتُ أنّه سيُطيّب خاطري ويُعوّضني عن كلّ ذلك، لكنّني فوجئتُ به متردّدًا حائرًا.. قال إنّه لم يكن يضع في حسابه الزواج بامرأة كانت متزوّجة بغيره، أتُصدّق هذا؟! أخبرني بصراحة أنّه لا يستطيع تقبّل أنّ رجلاً آخر غيره قد لمسني! ثمّ إنّه فوق ذلك يخشى ردّة فعل أبي إذا عرف أنّني تزوجتُ من وراء علمه بشخص غير هوّاري!

لكنّ ما ذبحني ذبحًا أنّه سألني بسذاجة وتسرّع عمّا فعله (ماهر) معي، هل اغتصبني بشكل كامل أم إنّه حاول فقط؟ وهل استسلمتُ له لأنّني كنتُ أفتقد لهذه الأمور بسبب ضعف زوجي؟ أخبرني أنّه يُقدّر الضعف البشري، وأنّ زوجي –كما صارحتُه- لم يُكمل علاقة كاملة معي، فبالتأكيد كان بداخلي شوق وشبق يمكن تفهّمهما لمن هنّ في مثل حالتي، و(ماهر) في النهاية رجل!

أصابتني حالة من الغضب الهستيري لم أشعر بها حتّى حينما كان (ماهر) ينتهكني، زوجي و(ماهر) وحتّى أبي، كلّهم لم يحبّوني فعلاً، كلّهم كنتُ بالنسبة لهم عبئًا، غرضًا وليس إنسانًا من لحم ودم.. أمّا هو.. هو، كيف يجرؤ على التفكير في كلّ هذه الأفكار فضلاً عن أن يقولها، وهو يُحبّني؟!

اكتشفتُ أنّني بالنسبة له أيضًا لستُ سوى غرض، جهاز يهمّه أن يكون جديدًا غير مستعمل.

شتمتُه بكلّ أنواع الشتائم التي استطعتُ تذكّرها وسط غضبي، وقطعتُ صلتي به.. حذفتُ كلّ رسائله، ووضعتُ "بلوك" لـ"إيميله" وحسابه على "الفيس بوك". تأكّدتُ من ألّا أرى أيّ شيء يمتُّ له بصلة.

لكنّ علاقتي به تحوّلت لشيء معقّد لا يُمكن وصفه، بعد أسابيع استطاع الوصول إليّ من خلال صديقة مشتركة، واعتذر كثيرًا.. فوجئتُ بقلبي يلين له، فعدنا كأصدقاء فقط.. من آن لآخر نتعارك على شيء ما نُفرغ فيه طاقة غضبنا من وضعنا، فنقطع صلتنا ببعضنا، ثمّ لا نلبث بعد فترة أن نعود أصدقاء من جديد.. علاقة معقّدة لا يُمكن أن يتفهّمها سوى أصحابها فقط.

وهذه أنا الآن.. إنسانة تكره الرجال، تحتقر تكبّرهم وسطحيّتهم ونظرتهم الدونيّة للمرأة.. تخشى وجودها بجوارهم وترتعش غضبًا إذا مسّها أحدهم ولو بحسن نيّة.. تتوقّع الاعتداء والانتهاك في أيّ لحظة.. خوف مستمر، لا أدري متى ستنطفئ جذوته لأرتاح.. ربما حين يأتي الموت، فهو علاج ما لا علاج له.. ألا تتّفق معي؟

أطلتُ عليكَ، اعذرني.. ربما الصداقة الناشئة بيننا لا تسمح بأن أُصارحكَ بكلّ ما صارحتُكَ به، لكنّني كما أخبرتُك: أثق بكَ لأنّكَ مختلف.. الشخص الذي يتعارك لأجل الذود عن شرف فتاة لا تربطه بها صلة دم، ويُصدّقها دون أن يشهد الموقف الذي تدّعي أنّه تمّ الاعتداء عليها فيه، ويُخاطر بسمعته من أجلها، لهو شخص جدير بالثقة والاحترام.

يُمكنكَ أيضًا أن تقول إنّني كتمتُ بداخلي كلّ ذلك فترة طويلة جدًّا، فلمّا وجدتُ من يرغب في الاستماع انهارت سدودي وانطلقت ذكرياتي.. أكتبها مرّة وحيدة وللأبد كي أتخلّص من وطأتها على نفسي.

والآن.. هل تغيّرت نظرتكَ لي؟"

ظللتُ أرمق السطر الأخير لوهلة وأنا لا أدري ماذا أقول بعد كلّ ما قالته.. مددتُ أصابعي بتردّد إلى أزرار "الكي بورد"، ثمّ كتبتُ لها بحماس:

"هل تعرفين أنّ بإمكاني رؤية هالات النّاس؟"

obeikan.com

حينما ذكرتَ في تلك الليلة أمر إنشائكَ لطريقة صوفيّة يا (عزيز)؛ توقّفتُ بالملعقة قبل وصولها لفمي، وسألتُكَ ضاحكًا باستغراب:

طريقة صوفيّة؟!

رددتَ عليّ مبتسمًا:

لو سنبحث عن الحبّ فأين سنجده سوى في الصوفيّة؟

التصوّف يقوم على حبّ من خلق الحبّ وتقبّل كلّ مخلوقاته، تقبّل التفاوت والاختلاف بينهم.. وهذه أمور تقتل الإيجو قتلاً.

أكره أن أقول ما سأقوله الآن لكنّني سأقوله على أيّة حال، وأتمنّى أن تفهم مقصدي دون تأويل.. أكثر من نجح الإيجو في السيطرة عليهم كانوا المتدينين! في كلّ العصور وكلّ الأزمان، استطاع الإيجو أن يتسلّل إلى مظاهر التدين لدى النّاس وتأويلهم لمعاني الدين، فكانت أكبر كارثة ابتُليت بها البشريّة.. حروب دينيّة وتعصّب مذهبي ودماء لا أوّل لها ولا آخر، حرّف البشر أديانهم وغيّروا المعاني السامية التي تُنادي بها باسم الإيجو.. وحدهم الصوفيّون من استطاعوا أن يتجاوزوا دنس نفوسهم ويتغلّبوا على الإيجو الذي يُغريهم باستخدام الدين وسيلة لإرضاء ذواتهم والتجبّر على غيرهم.. هل سمعتَ من قبل عن صوفيين يدّعون أنّهم على الحق وغيرهم على ضلال، أو أنّ النّاس يجب أن يتّبعوا آراءهم وأفكارهم

لأنّها سبيل الرشاد الوحيد؟ الصوفيّة بالنسبة لي هي القراءة الأكثر اعتدالاً لأيّ دين.

وضعتُ الملعقة في الطبق وأنا أُغمغم بحيرة:

لكنّ ما أسمعه وأعرفه من قراءاتي أنّ الصوفيّة مذهب مغالٍ في شطحاته.. يعبدون القبور ويقدّسون الأولياء ويقولون في الدين ما لم يُنزّل به الله من سلطان!

ضربتَ بيدكَ على الطاولة وهتفتَ بي:

أنتَ الآن تجرّني للحديث عن التصوّف الإسلامي بينما أُحدّثكَ أنا عن التصوّف في السياق الإنساني.. لكن لا بأس، سأمضي معكَ في الطريق وأسألكَ سؤالاً.. هل تعرف كيف نجا العالم من اجتياح المغول في العصور الوسطى؟

- لا أدري ما علاقة السؤال بما نقول.. لكن حسب علمي فجيش المماليك في موقعة عين جالوت هزم الجيش المغولي وأوقف تقدّمه، ولولا ذلك لاستمرّ في اجتياح العالم.

- غير صحيح.. جيش المماليك لم يواجه جيش المغول في عين جالوت، بل واجه وحدة عسكريّة صغيرة منه لا تزيد عن عشرين ألف جندي، بينما جيش المغول الذي اجتاح بغداد كان في حدود نصف مليون جندي!

سألتُكَ بحيرة:

ما الذي حدث إذن؟

- ما حدث أنّ هولاكو القائد المغولي وصلته أخبار أنّ أخاه مونكو خان، الخاقان الأعظم، قد تُوفّي وبدأت النزاعات مع أبناء عمومته، أحفاد جنكيز خان، حول من يخلفه.. فانسحب بجيشه الضخم وقفل عائدًا إلى منغوليا وترك خلفه تلك الوحدة العسكريّة الصغيرة التي أبادها جيش بيبرس وقطز.

- ولماذا لم يعد بعد ذلك ليستكمل حملته؟

أجبتَني بابتسامة واسعة:

لأنّه اضطرّ لخوض حرب أهليّة طويلة مع ابن عمّه بركة خان حاكم القبيلة الذهبيّة –إحدى قبائل المغول- الذي دخل الإسلام على يد صوفي يُدعى سيف الدين الباخرزي، كان من تلاميذ المُحدّث والفقيه الشافعي نجم الدين كُبرى، مؤسس الطريقة الكُبرويّة الصوفيّة. بركة خان كان أوّل حاكم مغولي يدخل الإسلام، وبعده أسلم كثيرون منهم وتوقّفت هجمتهم على العالم الإسلامي.. وبالمناسبة، بركة خان هزم هولاكو!

- أتقصد أنّ بركة خان حاول أن يحمي العالم الإسلامي من هجمة هولاكو؟

- ليس بالضبط، كان الخلاف بين بركة وهولاكو بسبب تقسيم الغنائم، ولأنّه لم يكن راضيًا عن إسراف هولاكو في قتل المسلمين، رغم أنّه يعرف أنّه مسلم.. المهم في هذا الأمر أنّ الصوفيّة في المشرق كانوا سببًا في إسلام المغول وإنقاذ العالم الإسلامي، وهو ما لا تُخبرنا به كتب التاريخ!

ساد الصمت بيننا لحظات، ثمّ وجدتُكَ تُكمل:

التصوّف ليس دراويش يهزّون رؤوسهم يمينًا ويسارًا ويتمسّحون بقبور الأولياء.. هذه نظرة ضيّقة جدًا يا بني!

التصوّف في الأساس مدرسة ومنهج وليس مذهبًا، ستجد في كلّ دين وكلّ مذهب تصوّفًا، في المسيحيّة واليهوديّة والإسلام هناك تصوّف في السياق الخاص بكلّ منها، حتّى في الفلسفات والأديان الشرقيّة هناك تصوّف.. في الهندوسيّة والبوذيّة والطاويّة والكونفشيوسيّة.. لدى السنّة والشيعة هناك تصوّف.. التصوّف مدرسة تقوم على البحث عن البُعد الروحي في التجربة الدينيّة.. التصوّف هو الحبّ، عشق كلّ شيء لأنّ كلّ شيء خلقه من خلق العشق، فهو أثر المحبوب.. الله.. الله..

وجدتُكَ فجأة تُغمض عينيكَ وتُكرّر الكلمة بخفوت متلذّذًا، فشعرتُ بالحرج وتلفّتُ حولي لأتأكّد أنّ أحدًا من عمّال المحل لا يتابعنا.

فتحتَ عينيكَ فجأة واستطردتَ:

حاول أن تُفرّق بين التصوّف كتجربة روحيّة تقوم على التربية والزهد ومعرفة الله، وبين المظاهر الشعبيّة التي يمارسها البسطاء والعامّة.. نحن نعرف تواريخ وفاة أغلب الأولياء لكنّنا لا نعرف تحديدًا تواريخ ميلادهم، فجاء العامّة وجعلوا تواريخ ميلادهم موافقة لأعياد الحصاد -التي يحتفلون بها منذ آلاف السنين- ليجدوا مبرّرًا للاحتفال.. الأمر شبيه بما فعله الإمبراطور قسطنطين حينما جعل المسيحيّة الدين الرسمي للإمبراطوريّة الرومانيّة ثم حوّل الأعياد الوثنيّة إلى أعياد مسيحيّة،

ليتمكّن البسطاء من ممارسة احتفالاتهم التي لن يستغنوا عنها ولكن في إطار الدين الجديد.

الكلام في الطرق الصوفيّة يطول، لكنّ ما أود إيصاله لكَ أنّ وجود شطحات لدى بعض المتصوّفة لا يعني أنّهم كلّهم هكذا.. كلّ مذهب فيه الغلاة، وهذا لا يعني أنّ المذهب كلّه على خطأ ويجب إقصاؤه.

لن تجدَ بسهولة من يخبركَ عن التصوّف ما أخبرتُكَ به، ستجد فقط من يتكلّم عنه بازدراء ويسفّه أصحابه، أتدري لماذا؟ لأنّ كثيرًا من المذاهب يهمّها تشويه التصوّف كي لا يعرف الناس طريقه.. لأنّ الإيجو هو من يُحرّكهم!

قلتُ لكَ ضاحكًا:

لم أكن أعلم أنّكَ ستأخذ انتقاداتي البسيطة بهذه الحساسية.. اعتبرني لم أقل شيئًا ضد التصوّف ولنعد لأصل الموضوع.

قلتَ كأنّكَ لم تسمعني:

كلّ شخص لديه تجربته الروحيّة الخاصة، شخص مثلكَ –مثلاً- تجربته الروحيّة صفر! روح خاوية خاضعة بشكل كامل للإيجو.. لا ترمقني هكذا، أستطيع شمّ رائحة الإيجو المنبعثة من جلدكَ كالعرق، منذ فترة طويلة لم ألتقِ شخصًا مثلكَ!

المهم، هناك أشخاص قطعوا شوطًا أطول في تجربتهم الروحيّة وتعلّموا الكثير.. بمبدأ التكافل الاجتماعي أليس في استطاعة هؤلاء أن يأخذوا بيد

من هم مثلكَ، يساعدونهم في علاج قلوبهم وإزالة الأدران التي أحاطت بأرواحهم والصعود إلى السماء.. إليه..

وأشرتَ بإصبعكَ لأعلى في خشوع.

- من هنا نشأت فكرة الشيخ المُعلِّم في الصوفيّة.. شيخ خاض الطريق من أوله لآخره ووصل، يأتيه المُريدون فيأخذ بيدهم ويقوّمهم، ويُعلّمهم المعاني الروحيّة بطريقته الخاصة.. يوجّههم ويرشدهم في المقامات والأحوال التي يمرّون بها، حتّى يصلوا مثله ويأخذوا بدورهم بقلوب الآخرين.. كثير من هؤلاء الشيوخ وصلوا لدرجة الولاية ثم أصبحوا أقطابًا، فأحاط بهم التلاميذ واهتمّوا بتجربتهم الروحيّة وطريقتهم في الوصول وتبعوها وعمّموها، فصارت طريقتهم تُسمّى باسمهم.. القادريّة والرفاعيّة والشاذُليّة والبدويّة والدسوقيّة والنقشبنديّة والمولويّة والأكبريّة وغيرها..

بعض هذه الطرق يقوم على الذكر، يطلب الشيخ من المُريد أن يذكر الله كثيرًا جدًّا، يستغفر الله مائة ألف مرّة، يسبّحه مائة ألف مرّة، يحمده مائة ألف مرّة، حتّى يتأكّد أنّ قلب المُريد قد صفا وعادت روحه إلى نقائها الأول.. يعرف ذلك بسؤاله عن علامات معينة، حالة شعوريّة معينة لو استطاع المُريد وصفها فهذا يعني أنّ الذكر أتى بمفعوله في قلبه، وحينها يرتقي به الشيخ درجة أخرى فيطلب منه أن يذكر أذكارًا أخرى تُنقّي جزءًا آخر من قلبه.

وبعض الطرق يعتمد على تعليم المُريد المعاني الإيمانيّة التي تُسمّى بالمقامات.. مقام الصبر، مقام الرضى، مقام التوكّل، إلخ.. يطلب الشيخ من المُريد القيام ببعض التمارين الروحيّة التي تُؤهّله للوصول للمقام.

سألتُكَ من جديد لأقطع محاضرتكَ الطويلة حول التصوّف:

ولماذا قرّرتَ عمل طريقة صوفيّة خاصة بكَ؟ لماذا لم تنخرط في طريقة صوفيّة موجودة بالفعل؟ أليس هذا في حدّ ذاته إيجو؟!

عادت ابتسامتُكَ تضيء وجهكَ وأنتَ تردّ عليّ:

في الحقيقة لم أكن راضيًا عن كثير من الطرق الصوفيّة الموجودة الآن.. الإيجو عرف كيف يتسلّل إلى أصحابها على نقائهم، فأصبحوا ينتقدون المذاهب والمدارس التي تنتقدهم ويهاجمونها كما تُهاجمهم.. وفقدتْ فكرة الشيخ المُعلِّم كثيرًا من رونقها حينما أصبح الأمر وراثة، صار الابن يخلف أبيه في المشيخة دون أن يملكَ مقوّمات المُعلِّم التقيّ والمُربّي العالِم، يأخذ المكان لمجرّد أنّه ابن الشيخ وبقية من بركته.. تحوّل الأمر إلى زعامة دينيّة تأتي بالوراثة.. وأصبح الانتماء للاسم مهمًا، أنا شاذُليّ، أنا بدويّ، أنا دسوقيّ، إلخ.. ناهيك عن أنّ العوام –كما أخبرتُكَ منذ قليل- ملأوا الطرق الصوفيّة بجهلهم وتعلّقهم الطفولي بقصص كرامات الأولياء المبالغ فيها، وتقديسهم لكلّ شيء يتعلق بهم حتّى جاوزوا الحد.. حوّلوا التصوّف إلى مظهر فلوكلوري شعبي يمتلئ بالاحتفالات والموالد التي تُرضي نزعتهم.

لهذا قرّرتُ أن أضع طريقة جديدة لا تقوم على الانتماء إلا إلى الروح، ولا يقوم بالمشيخة والتربية فيها إلا من يستطيع حِمل الأمر لأنّه الأجدر به.

بعيدة عن جهل الجهلاء والعوام.. طريقة روحانيّة خالصة لا علاقة لها بالصراعات بين المدارس والمذاهب ولا تُقدّس أحدًا سواه.

وأشرتَ بيدكَ لأعلى في خشوع.

- لا أدري يا سي.. يا (عزيز).. اعذرني، لكنّني أعتقد أنّ الأمر سيصبح فوضى لو قام كلّ شخص باختلاق طريقة جديدة على مزاجه الخاص!

قطّبتَ حاجبيكَ وأنتَ تقول:

يقولون إنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، لكنّكَ مصيب فيما تقول، والأمر ليس هكذا.. أنا لم أبدأ طريقتي إلا بعد أن أُذن لي!

سألتُكَ مبتسمًا:

سمعتَ صوتًا من السماء يأمركَ بذلك؟

أخذتَ تضحك ورمقتني كما ترمق طفلاً صغيرًا ساذجًا:

أنا أنتمي في الأساس إلى عائلة متصوّفة يا بني، والدي كان يتبع طريقة شاذُليّة، وكنتُ أحضر معه مجالس الذكر وأعيش في تلك الأجواء الروحانيّة.. وحينما تركتُ أفاتار وعشتُ فترة طويلة في الشارع كنتُ أتردّد على الزوايا وحلقات الذكر، واتّصلتُ ببعض المشايخ وأخذتُ العهد على يد أحدهم.. بعد فترة من اتّصالي به أذِن لي بأن أقوم بدور الشيخ المُربّي.

- وهل نجح الأمر؟

عدتَ تضحك وأنتَ تقول لي:

لا أعرف، لأنّني تركتُ الطريقة التي أنشأتُها بعد فترة!

- هم أيضًا؟! لماذا؟!

مططتَ شفتيكَ وأنتَ تُجيبني:

لا أُحبّ أن يعتمد الأمر عليّ وحدي.. الإيجو يُلحّ عليّ أن أكون أنا المسؤول والمسيطر على كلّ شيء، أن أظلّ في الصدارة لأتلقى التهاني والتبريكات على نجاحي وعبقريتي، لكنّني أُعانده فأبتعد.. لا يجب أن يعتمد الأمر عليّ، ماذا سيفعلون لو أنّني متُّ؟ لذلك تركتُ الأمر لنائبي الشيخ (خيري) ليكون هو المُربّي والمُعلِّم، ويخلفه من بعده أنجب مُريديه، وهكذا.

في البداية حاول البعض أن يُسمّوا طريقتنا بالطريقة العزيزيّة، لكنّني نهرتُهم.. اسمها الطريقة وكفى.

صمتَّ وهلة وأنتَ ترمقني، ثمّ لم تلبث أن سألتني برقّة:

ما رأيكَ أن تنضمّ إلى الطريقة؟

obeikan.com

توطّدت علاقتي بـ(رِهام) بأكثر مما حلمتُ يومًا.. أصبحنا كالتوأم، من يستيقظ منّا أوّلاً يُرسل للآخر رسالة يطمئنّ فيها عليه ويتمنّى له صباحًا مبهجًا.. صرتُ أرسل لها الرسالة فتردّ عليها بعدها بدقائق أو ثوانٍ.. ردودها أصبحت تنضح بالحيويّة، لم تعد تردُّ عليّ وكأنّها تنتزع الحروف من "الكي بورد" انتزاعًا.. أحيانًا أجدها تُرسل لي من نفسها لتفتح كلامًا في موضوع ما.

تحدّثنا طويلاً عن قصّتها، حلّلناها وفنّدناها واستخلصنا الدروس والعبر منها، ظللتُ بالساعات أواسيها وأُطيّب خاطرها، أخبرتُها أنّها تحمّلت همًّا كالجبال، أظهرتُ لها تعاطفي بلا حدود.. صارحتُها بكلّ الأسرار التي لم أُخبر أحدًا بها، صارت تعرف عنّي كما أعرف عن نفسي بالضبط.

الشيء الوحيد الذي لم نجرؤ على مكاشفة بعضنا به هو كلمة الحبّ المقدّسة.. اخترنا التواطؤ بديلاً عنها.. كلانا يعرف أنّه في مكانة مميزة لدى الآخر، كلانا يُدرك أنّ ما بيننا ليس مجرّد صداقة أو إعجاب، هذا الانسجام وهذه اللهفة لا يصدران إلا عن عِشق.. لكنّ كلانا لم يجرؤ على المصارحة، شعرنا أنّ ذِكر الكلمة السحريّة سيُحمّلنا أعباءً نحن في غنى عنها الآن.. إن صارحتُها بأنّني أُحبّها، فسيزول كلّ العالم الوردي الذي ننسجه كلّ يوم سويًّا، وسيجثم علينا ذلك السؤال الفظّ: وماذا بعد؟ ماذا عن (أدهم) و(إيناس)؟ ماذا عن أسرتها؟ هل سترضى أن تتزوّجني

سرًّا؟ هل سترضى أن تكون أمام الناس المرأة الثانية في حياتي؟ أم عليّ أن أُطلّق (إيناس)؟

أسئلة نحن في غنى عنها، على الأقل في هذه المرحلة.

تقبّلي لها كما هي غيّر من نفسيتها كثيرًا، لم تعد تكتب عن النسيان والخذلان والألم كما كانت في السابق، أصبحت "البوستات" التي تضعها أكثر مرحًا وسعادة بشكل لاحظه كلّ متابعيها.. ماذا سيفعلون لو عرفوا أنّني أنا السبب في كلّ هذا؟

لكن لم يخلُ الأمر من مشاكل كانت تأتي أغلب الوقت من جهتي.. كنتُ أثور من بعض التعليقات في صفحتها، وتزداد ثورتي من تفاعلها مع أصحابها، فأُرسل لها رسالة غاضبة أُعنّفها فيها ثمّ ما ألبث أن أعتذر عن تجاوزي حين تهدأ نفسي.. وفي كلّ الأحوال كانت هي تتلقّى ثورتي بهدوء وتمتصّها وكأنّها تعرف أنّ الأمر سينتهي حين أهدأ.

وحينما جاء الشتاء أصبح لصباحاتنا معنى مختلف، حينما أستيقظ فأتسلّل من جوار (أدهم) و(إيناس) وأترك غطائي الدافئ لأجلس أمام "اللاب توب" فأتحسّس ملمسه البارد وأفتح "الفيس بوك" وأجد رسالة منها كما كنتُ أتوقّع.. في الشتاء تختلف معاني الكلمات عمّا هي عليه في الصيف، يصير لكلّ شيء سحرًا وبهجة.

بدأ معرض الكتاب فأدركتُ أنّنا سنقضي أيامًا رائعة، سنلتقي يوميًا ونتمشى معًا بين أجنحة المعرض ونحضر فعالياته.. سنكون أروع ثنائي، سنتفحّص الكتب سويًّا، وسترى كيف يحترمني النّاس ويستوقفونني في

الطريق للحصول على توقيعي وصورٍ معي، سترى احتفاء الناشرين بي كلّما زرتُ أجنحتهم.. ستكون أيامًا خالصة من النشوة والانتصارات.

لم أكن أنوي تضييع يومٍ واحد، لكنّها أرسلت تعتذر عن لقائي في اليوم الأوّل الذي فُتح للجمهور لأنّ أختها تحتاجها في شيء ما.. شعرتُ بالغيظ، كيف يمنعها أيّ شيء مهما كان عن لقائي؟

ظللتُ متعكّر المزاج بقيّة اليوم، وزاد من ضيقي ما بدأت الأخبار في تناقله عن وقوع حالات تحرّش في المعرض.. يبدو أنّ بعض شباب المناطق العشوائيّة سمعوا أنّ معرض الكتاب مكانٌ مزدحم وتتجمّع فيه الفتيات فلم يرغبوا في تفويت الفرصة! ذكّرني الأمر بما وقع لـ(رِهام) في ندوة الشعر، فشعرتُ برغبة في لقاء أحد هؤلاء الفتية لأُلقّنه درسًا لن ينساه!

جاءتني (مها) تُخبرني أنّ لديّ موعدًا مع الكاتبة (ميّ شاكر) لتوقيع عقد روايتها التي وافقنا عليها.. لم أكن أذكر شيئًا.

- أيّ رواية؟ ومن (ميّ شاكر)؟

رمقتني بدهشة وهي تُجيبني:

قدّمنا لحضرتكَ ملخصًا لروايتها الشهر الماضي، ثمّ اطّلعتَ بنفسكَ على الرواية وقررتَ أنّها مناسبة للنشر، وتناقشتَ في الأمر مع أستاذ (كمال) وأستاذ (إبراهيم) في اجتماعكم الأسبوع الماضي.. أستاذ (كمال) وقّع العقد بناءً على توصية حضرتكَ، ولم يبقَ إلا أن تُوقّع هي!

مؤخّرًا لم أعد أهتمّ بالعمل كما يجب، لم أعد أقرأ الأعمال وصرتُ أعتمد على الملخّصات التي يتمّ تقديمها لي.

طلبتُ منها أن تسمح لـ(ميّ) بالدخول، وانهمكتُ في إرسال رسالة لـ(رِهام) أُخبرها عمّا سمعتُ بوقوعه في المعرض اليوم.

شعرتُ بحركة قرب الباب فرفعتُ عينيّ ورأيتُ (ميّ) لأوّل مرّة.. جذبتني عيناها الخضراوان وملامحها الأوروبيّة، فانتزعتُ عينيّ عنها بصعوبة.. ثمّ إنّها لم تكتفِ بسطوة ملامحها، فارتدت جيبة قصيرة فوق الركبة وبلوزة بلا أكمام، رغم برد الشتاء، ليصبح التأثير مضاعفًا.

كلّما كانت الفتاة ساحرة كلّما حاولتُ تجاهلها قدر الإمكان، كي تدرك أنّني مختلف عن أولئك الذين يقعون تحت تأثيرها.. لكنّني لم أحتج لبذل جهد في تجاهلها، لأنّني تلقّيتُ في تلك اللحظة رسالة من (رِهام) تقول:

"ليتكَ كنتَ هناك لتدافع عن تلك الفتيات المسكينات!"

فاغتبطتُ.. أنا "السوبر هيرو" الخاص بها!

عدتُ لـ(ميّ) وتلقّيتُها بابتسامة متّسعة بعد أن تركتُها تنتظر، وطلبتُ من (مها) الانصراف.

لم يأخذ الأمر أكثر من بضع دقائق، رحّبتُ بها معنا في الدار، وأثنيتُ على روايتها التي لم أقرأها، ثمّ ناولتُها العقد الذي وقّعه (كمال) لتطّلع عليه وتُذيّله بتوقيعها.

سألتني عن بعض التفاصيل في العقد، فأجبتُها إجابات لم أعد أذكرها.. الحقيقة يا (عزيز) أنّني لم أعد أذكر كثيرًا من تفاصيل ذلك اللقاء رغم أهمّيته التي اكتشفتُها لاحقًا.. كنتُ أودّ أن أفرغ منه سريعًا لأركّز في ردّي على (رِهام).. وكثيرًا ما فكّرتُ لاحقًا: ماذا كان سيُضيرني لو أنّني فتحتُ ملف الرواية وألقيتُ نظرة سريعة عليه؟ كنتُ حينها سأوفّر على نفسي الكثير.

لكنّ الحكمة بأثر رجعي لن تُفيدني الآن، وموضوع (ميّ شاكر) لم يشغل بالي طويلاً، لأنّ اليوم التالي كان من أشقّ الأيام في حياتي، على عكس ما تصوّرتُ.

بدأ اليوم باتّصالات مُلحّة من (إسلام) ابن عمّي، لم أُجبها لأنّني لم أُرد تعكير مزاجي.. كنتُ أستعد ليوم حافل في المعرض، بعد العصر هناك ندوة سأُشارك فيها حول أدب الشباب، ستكون (رِهام) موجودة، ستستمع إليّ وتنبهر بي، بعدها سأصحبها في جولة في المعرض.

اتّصلت بي (إيناس) قبل نزولي من المكتب بدقائق:

وجدتُ على "الفيس بوك" "إيفنت" يقول إنكَ ستُلقي كلمة في ندوة بالمعرض اليوم!

رددتُ عليها ببرود:

وماذا في ذلك؟

- هل بإمكاني جلب (أدهم) وحضور الندوة؟ نريد أن نراكَ وأنتَ تتكلّم وقضاء بقيّة اليوم معكَ.

- ابحثي على اليوتيوب عن "نادر منصور" وستجدين عدّة حلقات لي مع محمود سعد ومنى الشاذلي.. شاهديها أنتِ و(أدهم)!

- لكن...

هتفتُ بها أن تتركني في حالي ولا تفسد عليّ اليوم، ثمّ أغلقتُ المكالمة في وجهها.. يبدو أنّني أخطأتُ حينما ابتعتُ لها "لاب توب" لتنشغل به وتتركني في حالي قليلاً.

ولم أعرف لاحقًا هل مكالمتها هي ما وتّرني طوال اليوم في المعرض أم انتظاري لظهور (رِهام).. حتّى ذلك الوقت لم تأتِ فرصة لتبادل أرقام الهواتف، انتظرتُ أن تأتي المبادرة منها لكنّها لم تفعل.. وهكذا ظللتُ طوال الوقت قبل الندوة أنتظر أن أراها في أيّ لحظة. لم أستطع التركيز مع من يكلّمونني أو يستوقفونني.. وحينما بدأت الندوة ولم تأتِ بدأتُ أشعر بمغص في أمعائي.. هل هي بخير؟ هل وقع لها شيء؟

كان (صلاح) و(مصطفى) قد حضرا قبل الجميع وجلسا في الصف الأوّل، بدأتُ أتكلّم بلا روح عن أدب الشباب والإنجازات التي حقّقها الشباب، وعيناي لا تُفارقان مدخل الخيمة في انتظارها.

فجأة وجدتُ (كريم) يعبر المدخل بثقة وهي بجواره، فشعرتُ بدوار وتحركت العصارة في معدتي.. كانا يتحرّكان كثنائي، من الواضح أنّهما أتيا معًا، ربما اتّفقا على المجيء سويًّا وقضاء بقيّة اليوم معًا!

obeikan.com

وقف (كريم) يتلفّتُ حوله بحثًا عن مكان مناسب للجلوس، وهي خلفه تنتظر إشارة منه.. قفزت الفكرة فجأة إلى رأسي: هل (كريم) هو حبيبها الذي تخلّى عنها؟!

- أستاذ (نادر).. لماذا توقّفتَ فجأة عن الكلام؟

التفتُّ إلى المتحدّث فوجدتُه يرمقني باهتمام، وانتبهتُ إلى أنّ كثيرين من الحضور بدأوا يلتفتون خلفهم ليروا ما الذي جذب انتباهي هكذا فجأة.. رمقني (كريم) ولوّح لي، ولوّحت هي لي، فرفعتُ كفّي بصعوبة وفشلتُ في انتزاع ابتسامة من وجهي.

أشار لها إلى مقعدين شاغرين واتجها إليهما.

حاولتُ أن أُكمل كلامي لكنّني نسيتُ أين توقّفتُ، فطلبتُ كوب ماء بصوتٍ مبحوحٍ، وحينما رأيتُ التساؤل في عيون الحاضرين، قلتُ لهم بابتسامة مرتبكة:

شعرتُ فجأة بدوار.

كانوا يرمقونني بأسى، هل علائم المرض ظهرت فجأة على وجهي أم إنّهم قرأوا أفكاري وأدركوا مأساتي؟

لم أستطع قول المزيد، قلتُ كلمات بلا معنى، ثمّ أنهيتُ كلمتي وشكرتُ الحاضرين، وبدأ جاري في الحديث.. لم أستطع تمييز حرف، ظللتُ أُتابعهما بعينيّ، كان رأساهما يتقاربان من آن لآخر فيتبادلان بعض الهمس، وأحيانًا يضحكان.

ما الذي أصابني؟ ألا أعلم أنّهما صديقان قديمان؟ (كريم) هو الذي عرّفنا على (رِهام) أصلاً، فما الذي تغيّر الآن؟!

لا، هذه المرارة في صدري لم تأتِ من فراغ، هناك شيء غير طبيعي، شيء أدركه حدسي فنبّه مكامن الألم داخلي.. المفروض أن تأتي معي أنا، بعد كلّ ما تكلّمنا فيه، بعد كلّ اللحظات الشعوريّة التي جمعتنا، بعد كلّ الرسائل التي تبادلناها؛ لا يوجد من هو أقرب إليها منّي، كان يجب أن تجلس بجواري أنا وتتبادل الحديث الهامس معي أنا وتضحك لكلماتي أنا!

لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث، كانت تجلس مسترخية بجوار (كريم)، لم أُفكّر من قبل في حجم العلاقة بينهما، لم أسألها عن شخصيّة الحبيب الذي تخلّى عنها، لم أستفسر منها أصلاً إن كانت ماتزال تحمل له مشاعر أم لا.. أخذتُ الأمور كلّها كمسلّمات، اعتبرتُ نفسي انتصرتُ ووضعتُ رايتي على قلبها فأصبح ملكي، كم كنتُ أحمق!

فجأة نهضا أمام عينيّ وأشارا لي مبتسمين، ثمّ غادرا الخيمة!

لم أدرِ حينها ماذا أفعل يا (عزيز)، جلستُ مرتبكًا في مكاني شاعرًا أنّني خارج الزمن.. لو أنّ هذا فيلم أو مسلسل فأنا الآن خارج الكادر، المشهد الذي يُعرض الآن هو مشهدهما وهما يتمشّيان سويًّا ويتكلّمان.. المُشاهِد يعرف ماذا يقولان وإن كان قد أمسك يدها أم لا، وشكل النظرة التي ترمقه بها.. هل ستضع يدها على يده مواسية كما فعلت معي؟!

انقضّت عليّ الوساوس بلا رحمة، شعرتُ أنّني لو جلستُ في مكاني أكثر فسأُجهش فجأة في البكاء أمام الحضور.. وبدون تفكير نهضتُ وسط دهشة الجميع، وأسرعتُ أُغادر الخيمة.

أخذتُ أتجوّل في المعرض كالمجنون، أبحث عنهما.. حاول أكثر من شخص استيقافي لمصافحتي لكنّني لم أتوقف، لم أُلقِ بالاً لأحد.. لم أكن أستطيع رؤية أحد أصلاً، هناك غمامة رقيقة من الدموع تُغلّف عينيّ فأصبحت الرؤية مشوّشة أمامي.. ربما مررتُ بهما ولم أنتبه إليهما، لكن لا.. لو حدث كنتُ سأشعر بوجودها.. لماذا تفعل بي هذا؟!

لمحتُ تجمهرًا من بعيد.. قبل أن أصل أدركتُ كلّ شيء، شيء ما ألقى في روعي أنّها (رِهام)، وكأنّ حواسي ارتفعت فجأة وصار بإمكاني معرفة ما سأراه سلفًا، هناك مجموعة شباب حاولوا التحرّش بها، وسآتي أنا كالعادة وأُلقّنهم درسًا لن ينسوه.. لكن هل ستُغادر معي هذه المرّة أم ستُغادر مع (كريم)؟!

بعد ذلك بأيام، وبعد أن التقيتُ بكَ لأوّل مرّة، حينما أصبح تفكيري أكثر صفاءً فكّرت: لماذا تتعرّض بعض الفتيات للتحرش والمضايقات بشكل متكرّر؟ لماذا في آخر مرّتين رأيتُ فيهما (رِهام) كان هناك من يضايقها؟ أعتقد أنّ ذلك بسبب الخوف.. المتحرّش يستطيع أن يشمّ رائحة الخوف المنبعثة من الفتاة تمامًا كما تفعل الكلاب.. يعتقد المراقبون أنّ هناك شيئًا ما خاطئًا في الفتاة، أنّها تتصرّف بطريقة معيّنة أو ترتدي شيئًا فاضحًا يجعل الشباب يتحرّشون بها المرة تلو الأخرى، لكنّ الحقيقة غير

ذلك.. هم فقط يشعرون بخوفها ويُدركون أنّها فريسة سهلة فيُسرعون إليها كالضباع.

وفي ذلك اليوم ألقيتُ نفسي وسط الجموع وأنا أُريد الوصول بلهفة إلى ما يحيطون به، إلى (رِهام) التي تحتاجني.. كنتُ أتحرّك بآليّة، كلّما تذكّرتُ الموقف أتخيّل أنّني كنتُ أُراقب نفسي من أعلى، أرى جسمي يتحرّك ويتصرّف منفصلاً عن إرادتي.

كان هناك شابان يقفان بتحدٍّ في مواجهة (رِهام)، بينما (كريم) يُحاول أن يدفع أحدهما بعيدًا.. وتمامًا كما يحدث في الأفلام يا (عزيز)، كان الشاب يرفع يده ليلكم (كريم) في وجهه، فإذا بي أُسرع لأتلقّف قبضته على ساعدي ثمّ أناوله بالأخرى نفس اللكمة في أنفه فأُلقيه أرضًا.. كان كلّ شيء يمرّ أمامي بالتصوير البطيء، حتّى الأصوات المحيطة لم أعد أسمعها، فقط صوت أنفاسي الثقيلة، إن كنتُ مازلتُ أتنفّس.. البطء الذي يدور به المشهد أتاح لي أن أُلقي نظرة على (رِهام)، فوجدتُها ترمق (كريم) بذعر، لعلّها نظرة تجمّدت على وجهها حينما كان الفتى على وشك ضربه.. أهي قلقة عليه لهذا الحدّ؟ كلّ هذا الخوف في عينيها من أجله؟

لكنّ المشهد لم يكن بالبطء الذي ظننتُه يا (عزيز)، لأنّني في اللحظة التي التفتُّ فيها إلى (رِهام) وجدتُ لكمة تنقضّ على وجهي وتقذفني إلى الخلف.. لم أسقط، تراجعتُ للخلف ووازنتُ نفسي بقدميّ، وأنا ألتفتُ إلى من ضربني.. لمحتُ في عينيه دهشة، لابدّ أنّ النظرة في عينيّ أرعبته، توتّر اليوم كلّه، نار الغيرة في صدري، ألم قلبي، كلّ هذا تجمّع في نظرة

غاضبة في عينيّ.. تدرّبتُ طويلاً لأستطيع ضرب خمسة رجال، وهذان اثنان فقط، فالويل لهما!

أسرعتُ إليهما، وقبل أن يفهما ما حدث كانا ملقيين على الأرض، جذبتهما بيديّ لأعلى ورفعتُهما من سقطتهما، ثمّ قفزتُ في الهواء ودرتُ حول نفسي ورفعتُ ساقيّ بشكل أفقي، فضربتُ وجهيهما بقدميّ، صرخ أحدهما مناديًا شخصًا ما، لكنّه شهق مع قبضتي التي استقرّت في بطنه.

وجدتُ شخصين آخرين يسرعان إلى الفتيين، ثمّ ينقضّان عليّ.. أهلاً، كلّما كثر العدد كلّما أفرغتُ شحنة غضب أكبر.. حاولوا تطويقي، لكنّ كلّ من اقترب منّي كان يُصيبه نصيب من الألم الذي بداخلي.. لم أكن أستقرّ مكاني، كلّ ما تعلّمتُه وتدرّبتُ عليه طوال حياتي مارستُه في تلك اللحظة، سترى (رِهام) رقصتي الأخيرة.

أتصدّق يا (عزيز) أنّ أحدهم انتزع من بين ثيابه مطواة؟ كيف استطاعوا إدخال هذا الشيء إلى المعرض رغم التفتيش على البوابة.. لم أهتمّ كثيرًا، لأنّه ما إن بدأ يُلوّح بها حتّى أطرتُها من بين أصابعه بركلة بسيطة من قدمي، أتبعتُها بأخرى ألقته أرضًا.. أنتم أربعة فقط وأنا باستطاعتي هزيمة خمسة، تمامًا كما يفعل أدهم صبري!

ألقيتُ نظرة سريعة على (رِهام) لأرى انطباعها، ثمّ لم أستطع انتزاع عينيّ عنها.. كانت ترمقني بقلق، تخشى أن يصيبني مكروه، كانت خائفة عليّ.. لكن أتدري بمن احتمت؟ كانت ترمق القتال بفزع وهي ملتصقة بجانب (كريم) وكأنّها تبحث عن الأمان في حضنه، وبشكل لا إرادي رفع هو ذراعه

وأحاط بكتفها فاندسّت أسفل إبطه وقبضت بأصابعها على أصابعه.. قاما بكلّ هذا وهما يرمقان ما يحدث بقلق، فعلاه بشكل تلقائي وكأنّه هو الوضع الطبيعي، أن تكون في حضنه هو وضعها الطبيعي يا (عزيز)، أدركتُ ذلك بفزع، قبل أن أتلقّى لكمتين في وجهي من شخصين مختلفين.. سقطتُ أرضًا وأنا مازلتُ أرمقهما، كنتُ أُحاول التركيز لأرى هالتها، هل تتلوّن باللون الوردي، لون الحبّ، وهي بجواره أم لا، لكنّ الضربات المتوالية كانت تُفقدني تركيزي.. مع كلّ ركلة تُصيبني على الأرض كانت تزداد نظرة الألم في عينيهما ويزدادان التصاقًا وتتشنّج أصابعهما المتعانقة.. لم أُحوّل عينيّ الدامعتين عنهما سوى حينما قام أحدهم بضرب وجهي بحذائه عدّة مرّات متتاليات.. شعرتُ بخيط من الدم ينساب من أنفي، وبدأتُ في النهوض.. استمرّت اللكمات والركلات تتساقط على جسدي محاولة إبقائي أرضًا، لكنّني لم أبالِ..

حتّى هذه النقطة كنتُ واعيًا إلى حدٍ بعيد بما يحدث حولي، لكن بعدها لم أعد أذكر ما حدث.. عرفتُ التفاصيل حينما شاهدتُ الفيديو على "اليوتيوب" لاحقًا.. نهضتُ ونظرة غريبة في عينيّ، وزمجرتُ بشكل غريب في وجه أعدائي، كأنّني أزأر أو أتألّم.. ثمّ انطلقتُ أضرب كلّ من أحاط بي بعشوائيّة وبلا هوادة، أسقطتُ الشباب الأربعة بعد عدّة ركلات.. كان هناك جمهور يتحلّقون حولنا وبعضهم يُصوّر المعركة بـ"موبايله"، لكنّهم أسرعوا بالابتعاد كي لا أُصيبهم، لأنّ شكلي بدا غريبًا ومرعبًا.. وبعد أن تأكّدتُ من سقوط الشباب الأربعة، انطلقتُ فجأة نحو (كريم) فألقيتُه أرضًا بلكمة محكمة في فكّه، ثمّ أخذتُ أركله في جنبه بغلّ.

أفقتُ هنا عندما وجدتُ (رِهام) تضربني بكلتا قبضتيها وتشتمني وهي تُطالبني بأن أتركه.

انتبهتُ ونظرتُ لها بدهشة، كانت عيناها الغاضبتان ترمقني بقسوة، وكأنّني عدوّها، وكأنّني واحد من الفتية الذين حاولوا إيذاءها.. رمقتُها كمن استيقظ من حلم، ورمقتُ (كريم) ثمّ أخذتُ أُتمتم بحيرة:

لم.. لم.. لم أنتبه إلى.. كنتُ أضرب هؤلاء الذين.. عندما.. لم أكن.. معذرة يا (كريم)...

وأسرعتُ مبتعدًا..

غادرتُ المعرض وأنا لا أرى أمامي، لم أشعر بالبرد ولا بآلام الكدمات والجروح في وجهي، لم آخذ سيّارتي، أخذتُ أمشي على غير هدى وأنا أُدرك أنّني قد مررتُ لتوّي بأسوأ يوم في حياتي.

لكنّني أدركتُ فيما بعد أنّه كان يوم سعدي، لأنّني بعد ساعات قليلة سأُقابلكَ يا (عزيز) وسأجلس أتحدّث معكَ في محل الكشري إلى آخر الليل.

بعد أن انتهيتُ من إخباركَ بحكايتي في تلك الليلة للمرّة الأولى، هززتَ رأسكَ ومططتَ شفتيكَ وعدتَ تُلقي عليّ نفس السؤال:

ما رأيكَ أن تنضمّ إلى الطريقة؟

- ولماذا أنضمّ إليكم؟ هل سأقضي حياتي أنضمّ إلى كيانات قمتَ بتأسيسها؟ أفاتار والآن الطريقة الصوفيّة؟

- انضمامكَ لأفاتار كان بسبب الإيجو؛ أردتَ أن تستفيد منهم وتصل إلى مكانة مميّزة من خلالهم.. والآن أنتَ بحاجة للشفاء من الإيجو!

قلتُ بتصميم:

الإيجو لا يَشكّل لي أيّ مشكلة!

- بالتأكيد، لأنكَ منغمس فيه حتّى الثمالة! لو كان للإيجو أن يتمثّل في شكل آدمي لكان أنتَ!

عدتُ أقول بإصرار:

ربما بداخلي شيء من الغرور والاعتداد بالنفس، لكنّه نابع من ثقتي بنفسي.. أمّا غير ذلك فلا يوجد تأثير للإيجو في حياتي!

فوجئتُ بكَ تضحك وكأنّكَ سمعتَ نكتة، ثمّ لم تلبث أن قلتَ لي:

انظر إلى أيّ شيء في حياتكَ لتجده ينضح بالإيجو.. أنتَ ترى نفسكَ إلهًا في صورة بشريّة، إله يُمكنه التحكّم في عقول الناس وما يقرأونه، تُحيط نفسكَ بالأجهزة الحديثة وترتدي أفخم الماركات وتضع العطور الثقيلة، كلّ هذا ليُلاحظكَ النّاس ويظنّوا أنكَ أفضل منهم.. حياتكَ كلّها مزيفة مفعمة بالادّعاء، مليئة بالخوف وعدم الأمان، ذلك أنّ الإيجو ليس سوى صورة من صور الخوف.. صدّقني يا بني، الإيجو هو ثالثنا على هذه الطاولة.. حتّى وأنتَ تُحدّثني الآن وترفض الاعتراف بأنّه يُحرّكك، إنما تفعل ذلك بتوجيه منه.. أنتَ على صواب ولا تُخطئ أبدًا، أليس هذا التفكير صورة من صور الإيجو؟

قرّرتُ إفحامه، فقلتُ له:

لكنّكَ قلتَ إنّ الإيجو يذوب في وجود الحبّ، وأنا أُحبّ (رِهام) رغم ما فعلته بي.. فكيف يصير الإيجو ثالثنا بينما الحبّ رابعنا؟!

رمقتَني حينها بنظرة غريبة ثمّ قلتَ:

أنتَ لم تُحبّ أحدًا سوى نفسكَ.. تعتقد أنّكَ تُحبّ (رِهام) لكنّكَ في الحقيقة تُحبّ صورتكَ في عينيها، تُريد أن ترى نفسكَ محبوبًا مقدّرًا.. (رِهام) لم تكن تُمثّل لكَ شيئًا سوى حينما بدأت تتجاهلكَ ولا تُبدي انبهارها بكَ كما اعتدتَ من الجميع، حينها فقط أصبحتَ تستميت لتنال إعجابها ومشاعرها.. هل تريد الحقيقة؟ أغلب النّاس حين يقعون في الحبّ يظنّون أنّهم يُحبّون محبوبهم لكنّهم في الواقع يُحبّون أنفسهم فقط، يحتاجون لرؤية أنفسهم بصورة أفضل في عيون من يحبّونهم.

توقفتَ قليلاً وأخذتَ نفسيًا عميقًا ثمّ تابعتَ بأسف:

في أوقات كثيرة، ربما في أغلب مراحل حياتنا، يلعب معنا الإيجو لعبة أخرى من ألعابه القذرة.. يجعلنا نتعلّق ببعض الأشخاص ونشعر بالاحتياج لهم، نحتاج لاهتمامهم، حنانهم، مشاعرهم تجاهنا.. كلّ ذلك لنشعر أنّنا أفضل.. لو تصرّفوا معنا بغير الطريقة التي نتوقّعها نتألّم، لو أهملونا نتألّم، لو تغيّروا تجاهنا نتألّم.. نعيش طوال الوقت في خوف دائم من أن يتركونا أو يتوقّفوا عن حبّنا، نتعذّب إذا أبدوا اهتمامًا بغيرنا، نشعر أنّنا غير مكتملين إذا لم يكونوا معنا؛ نراهم ونسمع صوتهم ونلمسهم بجوارنا.

نتوهّم أنّ هذا حبّ، عِشق، لكن في الحقيقة هذا هو الإيجو متنكّرًا في شكل جديد من أشكاله التي لا تنتهي.

لم أستطع ألّا أُقاطعكَ:

لكنّ كلّ النّاس يُحبّون هكذا!

- إذن كلّ الناس لا يُحبّون فعلاً! هذا ليس حبًّا حقيقيًا، يمكننا أن نسمّيه الحبّ المشروط، الذي يعتمد على ردّات الأفعال، تأتي السعادة فيه حينما يصِلُنا المحبوب، ويأتي الألم حينما يهجرنا.. لكنّه في النهاية ليس حبًّا حقيقيًا.

الحبّ الحقيقي ليس سوى سعادة خالصة خالية من الخوف، لا ينتظر المقابل، أنتَ تُحبّ محبوبكَ لأنّه هو هو، لا تتغيّر بتغيّره ولا تهتمّ إن كان يبادلكَ نفس الشعور أم لا.. تُحبّ لأجل الحبّ وكفى.. هل تنتظر الشمس

Opeikan.com

ردّات أفعالنا لترى إن كانت ستُرسل لنا ضياءها أم لا؟ هل تجلس مع نفسها لتُفكّر إن كان أهل الأرض يستحقّون بذلها وعطاءها؟ الشمس تُرسل لنا ضوءها في كلّ الأحوال لأنّها تستمتع بالإشعاع ولا تنتظر شيئًا في المقابل.. هكذا الحبّ الحقيقي، الحبّ الخالي من الإيجو.. سعادة وطمأنينة وراحة بال.. لا خوف وألم وعذاب.. الحبّ أصلاً لا يمكن أن يجتمع مع الخوف، في اللحظة التي تشعر فيها بالخوف فأنتَ حينها لا تُحبّ!

لم تلقَ كلماتكَ صدىً داخلي، وشعرتُ أنّكَ تتحدّاني، فامتلأت نفسي رغبة في أن أُثبتَ لكَ أنّكَ على خطأ.. قاطعتُ استرسالكَ قائلاً:

أغلب كلامكَ يبدو لي فلسفيًا لا معنى حقيقي له على أرض الواقع.. وبصراحة لا أجدني مختلفًا عن غيري.. أيّ إنسان بداخله درجة من الكبرياء والشعور بالتميّز والتفرّد، هذا أمر طبيعي وصحّي، ولا أجده مرضًا قاتلاً يحتاج للانخراط في طريقة صوفيّة لعلاجه.. لكن مع ذلك سأمضي معكَ إلى نهاية الطريق.. أشعر بحاجة لإعادة حساباتي، وقد تكون طريقتكَ الصوفيّة في الأيام القادمة سبيلاً للهدوء وصفاء الذهن الذي أفتقده!

اتسعت ابتسامتكَ وأنتَ تقول:

مازال الإيجو يتكلّم بالنيابة عنكَ، لكن لا بأس.. ستذهب إلى نائبي الشيخ (خيري) وتُخبره أنّكَ قادم من طرفي، وهو سيتولّى الأمر.

لم يردّ (كريم) على اتّصالاتي..

اتّصلتُ بـ(صلاح) وطلبتُ منه أن يُكلّمه ويُطمئنني.. أخبرني بعد عشر دقائق أنّه ردّ عليه وقال إنّه بخير.

أرسلتُ له "مسج" وقلتُ له إنّني بحاجة للكلام معه، ثمّ عاودتُ الاتّصال به فلم يردّ.

لم أستطع النوم في الليلة التي عدتُ فيها من لقائي بكَ يا (عزيز).. عدتُ إلى البيت متأخّرًا، ولحسن الحظ كانت (إيناس) قد نامت، لأنّني ما كنتُ لأتحمّل تساؤلاتها عن الحالة المزرية التي كنتُ عليها.

كنتُ قد نسيتُ "اللاب توب" في سيّارتي عند المعرض، فاضطررتُ لاستخدام "لاب توب" (إيناس) لأفتح صفحة (رِهام)، لم تكتب شيئًا منذ الصباح، وصفحة (كريم) لا توجد بها تحديثات منذ عدّة أيام.

كانت هناك عشرات الرسائل التي تسألني عن حالي بعد الذي وقع في المعرض، فكتبتُ على صفحتي:

"أشكر كلّ الأصدقاء الأعزاء الذين اهتمّوا بالسؤال عنّي.. أنا في خير حال، لا تقلقوا"

obeikan.com

ورغم الوقت المتأخّر وجدتُ "اللايكات" والردود تنهال على "البوست". وضع أحدهم في "كومنت" رابطًا لفيديو على "اليوتيوب"، فتحتُه فإذا به بعنوان "تحرّش وقتال في معرض الكتاب".. الفيديو مدّته ثلاث دقائق وسبعة وخمسون ثانية.. أكلّ ذلك وقع في ثلاث دقائق وسبعة وخمسون ثانية فقط؟!

ولأوّل مرّة أُشاهد ما حدث، لم أكن في حالتي الطبيعيّة، كانت عيناي حمراوين، وكنتُ أُقاتل بعنف شديد.. كانت كاميرا "الموبايل" تتحرّك قليلاً من آن لآخر فيظهر (رِهام) و(كريم) في طرف الكادر، فأُثبّتُ المشهد وأُعيده وأتأمّل في (رِهام) والتصاقها بـ(كريم).. توقّعتُ أنّني سأستعيد نفس مشاعر الألم والمرارة التي شعرتُ بها وقتها، لكنّني لدهشتي تابعتُ الأمر ببرود وكأنّه لا يعنيني.. هل صار ما حدث فوق استيعابي فما عاد يُحرّك مشاعري؟

الثواني الأخيرة من الفيديو أيقظت مكامن الألم داخلي، حينما انتهيتُ من الفتية فالتفتُّ نحو (رِهام) و(كريم)، وبدون تردّد أسرعتُ نحو الأخير فجذبتُه بعيدًا عن (رِهام) وانهلتُ عليه ضربًا وركلاً.

في ثوانٍ قليلة هدمت (رِهام) قصورًا من رمال وزجاج بنيتُها في خيالي، أسرعت جَزِعة نحو (كريم) الملُقى أرضًا، أسرعت كأمّ انتزعوا منها طفلها، أحاطته بذراعيها وهي ترمقني بغضب ممزوج بالفزع.. أكانت عيناها تُشعّ بالكراهية أم إنّني أتوهّم؟

أغلقتُ الفيديو وحذفتُ الكومنت الذي يحوي وصلته، وقمتُ بعمل "بلوك" للقارئ الذي وضعه.

فتحتُ صفحة الرسائل وبأصابع مرتعشة كتبتُ لـ(رِهام):

"ما رأيكِ في "العلقة" التي أخذتُها اليوم؟"

ووضعتُ وجهًا ضاحكًا ثمّ أرسلتُ الرسالة.

انتظرتُ قليلاً ثمّ أرسلتُ رسالة أخرى:

"تخيّلي أنّني نسيتُ سيّارتي عند المعرض؟ محفظتي أيضًا سقطت منّي أثناء القتال.. كان يومًا عصيبًا بحق"

ثمّ بعد خمس دقائق أخرى:

"هؤلاء الفتية أفقدوني صوابي.. لا يمكنني أن أرى أحدًا يحاول إيذاءكِ وأقف صامتًا"

ثمّ بعد دقيقة:

"(رِهام).. لم أقصد أن أضرب (كريم) ولا أدري كيف حدث هذا.. اعتقدتُه أحد من حاولوا مضايقتكِ.. لم أكن أرى أمامي"

نهضتُ لأذهب للحمّام لأنظّف نفسي وأُضمّد كدماتي، لكنّني قبل أن أخطو داخله أسرعتُ عائدًا إلى "اللاب توب" وكتبتُ لها بلا تفكير:

"هل (كريم) هو الشخص الذي أحببتيه وتخلّى عنكِ؟"

obeikan.com

شعرتُ ببعض الراحة بعد أن أخذتُ حمّامًا ساخنًا وفحصتُ الكدمات في وجهي.. لم يكن الوضع سيّئًا كما تخيّلتُ، هناك بعض الاحمرار في خدّي وبجوار عيني بسبب ركلاتهم بالإضافة لخدوش بسيطة ستختفي خلال يوم.

حاولتُ النوم قبل طلوع الصباح لكنّ الأفكار ظلّت تعبث في رأسي.. كنتُ أقوم كلّ بضع دقائق لأرى إن كانت (رِهام) قد ردّت على رسائلي أم لا..

في النهاية فتحتُ صفحتها وصفحة (كريم) وأخذتُ أعقد المقارنات.. في اليوم الذي كتبت فيه "الستيتوس" التي تقول: "يريدها بريئة.. بقدر دناءته".. كان (كريم) قد كتب قبلها على صفحته: "الحبّ لا يحتمل التنازلات.. لماذا علينا أن نتجاوز عن أخطاء الماضي؟"

كانت هناك "ستيتوس" كتبها (كريم) منذ بضعة أشهر تقول: "أعشق جنونها ومدّها وجذرها"، وفي نفس التوقيت تقريبًا كتبت (رِهام): "هو وحده من يرى في تمرّدي فضيلة ويعشق تجاوزاتي الصغيرة".

كانت هناك رسائل متبادلة بينهما بشكل غير مباشر، حوار مُلغّز ما كان لأحد أن ينتبه إليه ما لم يتابع الصفحتين ويربط بين الجملتين.

أو ربما أنا من أصابني الشك بجنون الارتياب!

سمعتُ حركة خلفي فإذا به (أدهم).. تناولتُه ورفعتُه إلى وجهي فقبّلتُه وأخذتُ أُداعب أنفه.

- بابا، ما به وجهكَ؟

فكّرتُ قليلاً ثمّ أجبته:

لا شيء.. ما المشكلة في وجهي؟

- شكلكَ غريب!

شردتُ بعينيّ في السقف وهلة.. ليس شكلي وحده الذي صار غريبًا يا بني، عمّكَ (عزيز) وصفني بالمادة الخام للإيجو.

أنزلتُه إلى الأرض وأنا أسأله بجدّية:

هل أنا متكبّر يا (أدهم)؟

فوجئتُ به يحتضن ساقيّ وهو يقول بحماس:

أنتَ حلو!

(أدهم) يا جوهرة حياتي، أعشق ملامحي التي في وجهكَ، يومًا ستكبر وستصير مثلي، ستحمي من تُحبّهم لكنّكَ لن تحمل خطاياي.. ستكون أفضل وأنقى لأنّكَ أهل لذلك يا صغيري.

فكّرتُ ألّا أذهب إلى الدار اليوم، لكنّني حينما وجدتُ النوم يُعاندني والأفكار تأبى أن تُطلق سراحي، و(إيناس) ستستيقظ في أيّ لحظة ثمّ تبدأ في طرح الأسئلة، و(أدهم) لن يتوقّف عن محاولات جرّي للعب معه؛ وجدتُ أنّ قضاء النهار وحدي في مكتبي قد يكون فكرة جيدة.

opeikan.com

فتحتُ التلفزيون لـ(أدهم) على قناة الأطفال التي يُحبّها.ثمّ تركتُه وغادرتُ.. أخذتُ سيّارة أجرة إلى معرض الكتاب، ومن هناك استعدتُ سيّارتي وانطلقتُ بها إلى مقر الدار.

من اللحظة الأولى التي خطوتُ فيها داخل المكان وكلّ من أقابله يهتف بي: الأستاذ (كمال) ينتظركَ – لماذا تأخّرتَ؟ لقد سأل عنكَ مرارًا.

يبدو أنّني نسيتُ "موبايلي" في جيب سترة البذلة التي خلعتُها.. ما وقع بالأمس بعثر عقلي تمامًا.. جلستُ على مكتبي وبدأتُ في إخراج "اللاب توب" من حقيبته، لكنّ (مها) وقفت على عتبة الباب وهي تُغمغم بقلق:

الأستاذ (كمال) ينتظركَ.. إنّه غاضب حقًّا هذه المرّة!

ملامح الذعر على وجهها أقلقتني، فنهضتُ ذاهبًا إليه.. لا أعرف ماذا يريد، فمن الصعب أن يكون قد عرف بما حدث في المعرض بهذه السرعة.. لم يكن يومًا من متابعي "اليوتيوب".

لكنّني كنتُ مخطئًا يا (عزيز)، كان جالسًا خلف مكتبه ويقف (إبراهيم) بجواره وعلى وجهه ابتسامة يحاول أن يئدها.. لسان حاله يقول: بعيدًا عن أفاتار أنتَ ستقع في المشاكل.

ما إن رآني (كمال) حتّى أدار لي "اللاب توب" الذي أمامه وهو يسألني بغيظ:

ما هذا يا (نادر)؟!

رمقتُ فيديو "اليوتيوب" الذي ملأ الشاشة.. كان هذه المرّة بعنوان "شباب يُلقّنون (نادر منصور) درسًا قاسيًا في معرض الكتاب".

رمقتُ (إبراهيم) بنظرة باردة، لا أستبعد أن يكون هو من أعاد نشر الفيديو بهذا العنوان المستفزّ.

- هناك خطأ يا أستاذ (كمال)، هؤلاء الشباب كانوا يتحرّشون بكاتبة صديقة فقمتُ أنا بـ...

قاطعني صارخًا:

فبدلاً من أن توقفهم بالحسنى وتبتعد بصديقتكَ عنهم أو تستدعي لهم حرس المعرض إذا بكَ تستعرض نفسكَ أمامهم وتضربهم ويضربونكَ كأيّ مراهق يدافع عن فتاته في الشارع أمام منافسيه!

حاولتُ أن أقول:

لكن يا سيّدي...

لكنّه لم يعطني فرصة:

أنتَ حتّى لم تنتظر بعد ضربكَ لهؤلاء وأسرعتَ بالفرار كأيّ مجرم! صباح اليوم اتّصل بي صديقي لواء الشرطة وأخبرني أنّ حرس المعرض تحفّظوا على أولئك الفتية وأرسلوهم إلى قسم الشرطة.. وظلّ الجميع يبحثون عنكَ لاستكمال المحضر والتحقيقات لكنّكَ اختفيتَ تمامًا.. ولم يعرف أحد شخصيتكَ سوى حينما ظهر الفيديو على "اليوتيوب".. الرجل أدرك

obeikan.com

أنكَ تعمل معي وأراد مجاملتي فطلب أن أرسلكَ إليهم بشكل ودّي بدلاً من أن يُحضروكَ بالقوّة!

صمت قليلاً ليأخذ أنفاسه، كان وجهه قد احمرّ وأصبحت الكلمات تخرج من فمه مختلطة.. لم أره من قبل بمثل هذا الغضب والانفجار.

- أنتَ أحمق! لا تدري مغبّة أفعالكَ، تتصرّف دون تفكير، تنسى دومًا أنّكَ إحدى واجهات الدار فتُسيء إلينا بتصرفاتكَ الرعناء.. مدير النشر لدي يتعارك في الشارع كأيّ بلطجي في منطقة عشوائيّة!

حاولتُ أن أُقاطعه:

يا سيّدي أنا كنتُ...

- ولا كلمة! سئمتُ تبريراتكَ.. لا يأتيني من ورائكَ سوى المشاكل، وأنا لا أريد المشاكل.. سمعتي هي رأس مالي.. هل تفهمني؟!

كنتُ سأردّ عليه وأشرح وأبرر لكنّني وجدتُ ألا فائدة من ذلك وهو في هذه الحال، ففضلتُ الصمت وهززتُ رأسي.. تناول كوب ماء أمامه وتجرعه، ثمّ أشار لي:

اذهب الآن إلى قسم شرطة العبّاسيّة للإدلاء بأقوالكَ واستكمال المحضر.. لقد أوصيتُ أصدقائي هناك بكَ، فلن يأخذ الأمر منكَ وقتًا.

غادرتُ الدار قبل أن أفتح "اللاب توب"، وأفزعني أنّ كلّ ما كان يشغل فكري وقتها أنّني لن أستطيع معرفة إن كانت (رِهام) قد ردّت عليّ أم لا.

اسمعني جيّدًا يا سيّدي ولا تُقاطعني، فقد استعددتُ جيّدًا لهذا اللقاء..

أعرف أنكم قومٌ أفاضل، وأنكم سادة القلوب والأرواح، لكنّني رجل عقلاني لا يمكنني أن أقوم بشيء عن غير اقتناع.

قضيتُ ليلة الأمس أتنقّل عبر الإنترنت وأقرأ عن التصوّف، وقد فهمتُ الكثير من الأمور، لذلك-اعذرني- لا تعتبرني غرًّا ساذجًا ستُلقي على مسامعه محاضرة تخلب لبّه فيصير طيّعًا بين يديكَ.

أعرف كلّ ما ستخبرني به.. التصوف في بدايته ولعدة قرون كان قائمًا على الخلاص الفردي، أفراد صوفيّون يتبعون الطريق ويتحاكى النّاس عن أقوالهم وأفعالهم، مجرّد تجارب فرديّة، كرابعة العدويّة وذي النون المصري وأبو يزيد البسطامي والحلّاج وغيرهم.. بعضهم كان معتدلاً وبعضهم كانت له شطحات تفسرونها بأنّه اقترب من النور أكثر من اللازم فاحترق وغُلب على عقله.. لكنّ هؤلاء ظلوا أفرادًا بلا أتباع.

أرجوكَ لا تُقاطعني، أنا أُحاول توفير الوقت عليكَ وعلى نفسي.

اختلف الأمر في القرن السابع الهجري، أثناء اجتياح المغول للعالم وسقوط الخلافة العبّاسيّة.. شعر الناس بالضياع بعد انهيار الكيان السياسي الذي كان يجمعهم، فتشبّثوا بعالم الروح والتفّوا حول مشايخ

Obeikan.com

الصوفيّة يطلبون منهم العون والإرشاد وسط حالة التخبّط التي سادت آنذاكَ.. وهكذا أصبح لدى عبد القادر الجيلاني والرفاعي في العراق والشاذّلي والبدوي والدسوقي في مصر ألوف الأتباع والمريدين.. أصبحت الأوارد الخاصة بهؤلاء المشايخ أورادًا عامّة يحرص تلاميذهم ومُريدوهم على تلاوتها، وصارت أقوالهم ونصائحهم دستورًا يرسم طريق الحياة الروحيّة لمن تبعهم، ولم يلبث الأمر أن اتّخذ شكل جماعة ونظام روحي سُمّي بالطريقة.. اتّخذت الطريقة شكلاً هرميًا، في قمّته "القطب"، وهو ولي الأولياء، وعادةً تُنسب الطريقة إلى اسمه، وتحته يأتي "البدلاء"، وهم فئة تفوق الأولياء مكانة، ثمّ "الأولياء"، وهم صفوة أتباع الطريقة، أولئك الذين قطعوا شوطًا بعيدًا في الطريق وأظهروا كرامات وخوارق.. وأخيرًا "المُريدون"، الذين هم عامّة أتباع الطريقة.. ومع الوقت زادت الطرق، وأصبحت كلّ واحدة تتفرّع عنها طرق أخرى تتبع الطريقة الأولى، فالشاذُليّة مثلاً في مصر وحدها لها ما يقرب من سبعين فرعًا.

أليست هذه المقدّمة التاريخيّة التي كنتَ ستُلقيها على مسامعي للتعريف بالتصوّف؟ نسيتُ صحيح، في كتبكم دائمًا ما تبدأون بالحديث عن معنى المصطلح والاختلافات حوله، بعضكم يُرجعه إلى الصوف الذي كان لباس الزهّاد في وقت من الأوقات، وبعضكم يُرجعه إلى الصفاء النفسي، أو أهل الصُفّة الذين كانوا منقطعين للعبادة في مسجد النبي، ومن اطّلع منكم على الثقافات الأخرى قد يُرجعه إلى الكلمة اليونانيّة "صوفيا" التي تعني الحكمة.. أليس هذا ما ستقوله لي؟

Obeikan.com

ستُخبرني أيضًا أنّ التصوّف هو المرحلة الثالثة والأهمّ من مراحل الاعتقاد، التي تبدأ بالإسلام ثمّ الإيمان ثمّ الإحسان.. فالتصوّف هو المدرسة التي يتعلّم المؤمن فيها كيف يكون محسنًا، أي يعبد الله كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنّ الله يراه..

لكن يا سيّدي لا تؤاخذني، أيّ طفل صغير يعرف أنكم أهل بدع، حتّى لو كانت نيّتكم حسنة وأردتم الخير، في صغري حضرتُ مع والدي أحد الموالد في الصعيد، وإلى الآن يُفزعني ما رأيتُ.. كان الأمر كالمهرجان، هذا يغني وهذا يرقص وهذا يأكل وهذا يتسامر مع أصدقائه.. فإذا تحدّث أحدكم تكلّم عن كرامات مشايخه –وربما كراماته هو شخصيًا- فذكر ما يستفزّ العقل السليم!

مثلاً أتباع الطريقة الدسوقيّة يبالغون في منزلة شيخهم الدسوقي، فيقولون إنّه صعد فوق الكعبة وقال إنّ أتباعه سيدخلون الجنّة بغير حساب.. ويذكرون أنّه حين كان عمره سنتين حفظ القرآن كاملاً، وحينما صار عمره ثلاث سنوات فعل كذا وكذا، ويذهب بهم الأمر إلى القول بأنّه أحد الأقطاب الذين يوكل إليهم تدبير أمور الكون.. ما هذه الأساطير يا سيّدي؟!

الرفاعيّة يأتون أمورًا لا يأتي بها إلا السحرة والحواة، كيف لصوفي أن يتخصّص في التعامل مع الثعابين؟

أنا لستُ هنا كي أنتقدكم، لكنّني حينما اتّصلتُ بكَ بعد أن أعطاني (عزيز) رقمكَ فوجئتُ بكَ تطلب لقائي في مكتبكَ لتُحدّثني عن التصوف

قبل أن تأخذني إلى الحضرة الخاصة بكم.. فأردتُ أن أُظهر لكَ أنّني على اطّلاع وأعرف أبعاد ما ستحدّثني عنه.. ليس لديّ مانع أن أحضر إلى زاويتكم وأشهد معكم طقوسكم، لكن أودّ أن يصلكَ أوّلاً أنّني لستُ مقتنعًا بكثير مما تفعلونه.. أنتم تُبالغون في الكثير من الأمور!

حينما اتّصلتُ برقم المهندس (خيري) كما طلب منّي (عزيز) رحّب بي الرجل كثيرًا.. صمت قليلاً حينما أخبرتُه أنّني من طرف (عزيز الرحماني) وأنّني أرغب في الانضمام إلى الطريقة.. طلب منّي أن ألتقيه في الغد بمكتبه في شركة آيكون.. كنتُ قد عرفتُ منكَ يا (عزيز) أنّه مهندس كمبيوتر ويشغل منصب العضو المنتدب في تلك الشركة العالميّة المتخصّصة في برامج الكمبيوتر.

استعددتُ جيّدًا للقاء، يجب أن أُبهره بثقافتي وفهمي، لستُ واحدًا من البسطاء الذين يتبعون طريقته.. لكنّ ثقتي بنفسي تزعزت حينما جلستُ أمامه.. لم تتزعزع حينما وصلتُ إلى مبنى الشركة الذي كان عبارة عن بناية ضخمة من ثمانية أدوار، ولا من غرفة الانتظار الواسعة التي أُلحقت بمكتبه، ولا من انتظاري له ثلث ساعة لحين انتهائه من اجتماع مجلس الإدارة المفاجئ حسبما أخبرني سكرتيره الشاب.. لكن كان هناك شيء في ملامحه الوديعة يُشعركَ بالهيبة كأنّكَ تجلس أمام أبيكَ.. ولا أُخفي عليكَ أنّني شعرتُ بإحباط حينما لم يتعرّف عليّ أو يُخبرني أنّه قرأ لي، بدا بعيدًا عن عالم الأدب.

ظلّ يرمقني مبتسمًا وهو يدعك فروة رأسه ذات الشعر القصير الأشيب ولم يقاطعني ولا مرّة رغم توقّعي لذلك.. أحيانًا كنتُ أتخيّل في عينيه نظرة إشفاق..

- هل انتهيتَ من كلامكَ؟

أجبتُه متحفّزًا:

أجل!

صمت قليلاً ثمّ قال:

لم أكن أنوي أن أُحاضركَ حول التصوّف، الطعام صُنع لنأكله لا لنتحدّث عنه.. لكنّني فقط أردتُ أن أسألكَ سؤالاً واحدًا: لماذا تودّ الانضمام إلينا؟

أربكني السؤال.. هل أُصارحه أنّ فكرة انضمامي إلى طريقة صوفيّة لأترقى فيها حتّى أصل لمرتبة الولاية وتجري الكرامات على يديّ؛ ذلك الأمر بدا لي سيُبهر (رِهام)؟ حينما يحاول بعضهم التحرّش بها آتي أنا فأنظر إليهم فيرون أسودًا ونيرانًا تشتعل في عينيّ، فيملأهم الذعر ويفرّون هاربين دون أن أضطر لقتالهم، فترمقني هي بإعجاب وتُمسك بيدي ممتنّة كما فعلت من قبل.

أجبتُه وأنا أبلع ريقي:

(عزيز) أخبرني أنّ الإيجو يملأني.. أنّني في حالة عِشق مع ذاتي.. وأنّني سأجد علاجي عندكم.

عاد يسألني:

وهل تريد العلاج؟

- لا أدري.. لأصدقكَ القول أنا لا أشعر أنّني مريض فعلاً.. ما أفعله يبدو لي طبيعيًّا جدًّا، جميع الناس يتصرّفون مثلي.. هل أعتقد في قرارتي أنّني إله يمشي على الأرض؟ نعم أفعل، لكن من منّا لا يعتقد في أعماقه أنّه الأفضل والأكمل؟ أنّ الحياة إنما خُلقت ليكون هو بطلها وبقيّة البشر ما هم إلا ممثّلون ثانويّون في فيلم حياته.. كلّنا يا سيّدي نعتقد أنّنا مركز الكون ونقطة ارتكازه.. أنا فقط من امتلكتُ الشجاعة لأُصارح نفسي وأتصرّف على حسب ما يدور في أعماقي!

تابعني مبتسمًا وحينما انتهيتُ ورمقتُه منتظرًا ما سيقول، إذا به يسألني آخر سؤال قد يطرأ على ذهني يا (عزيز).. سألني باهتمام:

هل شاهدتَ فيلم ماتريكس؟

Obeikan.com

حينما عرضوا عليّ الشباب الأربعة الذين قمتُ بضربهم في المعرض فوجئتُ بأنّني لا أذكر وجوههم، لم أهتمّ سوى بضربهم، لكنّني رأيتُ في عيونهم أنّهم تعرّفوا عليّ، فهززتُ رأسي للضابط الذي جلستُ أمام مكتبه:

أجل، إنّهم هم.

كان (كمال الألفي) على حق، الموضوع لم يأخذ وقتًا طويلاً.. شكرني الضابط على حضوري وأظهر لي أنّه يعرفني ورآني في التلفزيون من قبل، وإن كنتُ أشكّ في ذلك، فعيناه الزجاجيّتان لم تُظهرا أيّ تعبير أكثر من أنّه مضطر للتعامل معي باحترام تنفيذًا لأوامر رؤسائه، ولأنّ بذلتي من نوع Giorgio Armani ورائحة عطري أعطتْه انطباعًا أنّني لستُ مواطنًا عاديًا.

أخذ أقوالي وشكرني بآليّة على موقفي، ثمّ سألني بشكل عابر:

تلك الفتاة التي وقعت المشاجرة بسببها.. هل تعرفها؟ نحتاج لأخذ أقوالها.

هل أعرفها؟ تفكيري كلّه يا سيّدي لا يشغله أحدٌ سواها، إنّني أتحدّث إليكَ الآن وأنا أتخيّلها تجلس على المقعد المقابل وأتساءل عن كيف ستنظر إليّ وماذا ستقول لي حينما نغادر القسم سويًّا أو نجلس في كافيه هادئ خافت الإضاءة. أنا أُحدّثكَ الآن بينما أُقاوم رغبة ملحّة في أن أفتح

"الفيس بوك" من خلال "موبايلي" لأرى إن كانت قد ردّت على رسائلي أو على الأقل فتحتها.. هل اعتبرت ما فعلتُه بالأمس بطولة جديدة تُضاف لبطولاتي السابقة معها، أم إنّ ضربي لـ(كريم) جبّ كلّ ما قبله، هل مازالت تراني (نادر) الذي صارحته بمأساتها، أم (نادر) المتغطرس الذي التقته لأوّل مرّة منذ بضعة أسابيع في مكتبة خيال ووجدته لا يختلف كثيرًا عن زوجها الذي لا تُطيق نطق اسمه؟

أعاد عليّ الضابط السؤال، فأفقتُ من شرودي ورمقتُه بدهشة، ثمّ غمغمت:

لا، لا أعرفها!

بعد أن سألني المهندس (خيري) سؤاله الغريب رمقتُه بدهشة، فأكمل دون أن ينتظر جوابي:

في فيلم ماتريكس يكتشف البطل كيانو ريفز أنّ العالم كلّه ليس سوى وهم خادع، تجربة ذهنيّة يعيشها كلّ البشر، الذين هم في الواقع في حالة سبات صناعي وضعتهم فيها الآلات التي تحكم العالم، وأدخلتهم في حلم أو وهم طويل لتستطيع الحصول على طاقتهم.. يلتقي بجماعة من المقاومين ينجحون في الدخول إلى عالم الماتريكس الوهمي ويخرجونه منه ليساعدهم لاحقًا في القضاء على الآلات.. في مرحلة من المراحل ينجح ريفز في رؤية الأشياء على حقيقتها، فيرى "الكود" المصنوع منه العالم الوهمي داخل الماتريكس، يرى ما خلف الظاهر.. هذا ما نحاول نحن الوصول إليه، رؤية باطن الظاهر، ما خلف الأشياء، المعنى الحقيقي للأمور.. طريقتنا لها جناحان: الشريعة والحقيقة.. الإيمان والإحسان.. لا يمكننا الوصول للحقيقة دون الشريعة، ولا يمكننا أن نعيش بالشريعة دون الحقيقة.. من زعم أنّه مكتفٍ بالشريعة عن الحقيقة فهو قاسي القلب أجوف الروح.. ومن ادّعى أنّه وصل للحقيقة وترك الشريعة فهو زنديق.

ردّدتُ متسائلاً:

حقيقة؟!

obeikan.com

- هناك حقيقة في هذا العالم، ونحن نسعى للترقّي وصولاً إليها.

سألتُه بخبث:

تقصد وحدة الوجود؟ أنّ الله والكون هما نفس الشيء؟

ضحك وردّ عليّ:

لو كان الأمر بهذه البساطة لما كانت هذه هي الحقيقة.. أتذكر نكتة "محطة المطار السري" الشهيرة؟ لو كان هناك مطار والجميع يعرف أنّه مطار لما كان سريًّا.. أتفهم قصدي؟

- إذن ما هي الحقيقة؟

- الحقيقة تُحسّ ولا تُقال، لأنّه لا توجد كلمات يمكنها التعبير عنها.. الكلمات يُدركها العقل، بينما الحقيقة لا يُدركها سوى القلب.

في طريقتنا هناك سبعة مقامات للترقّي.. المقام الأوّل الذي على السالك الوصول إليه هو مقام التوبة.. مقام التراجع عن كلّ أخطاء الماضي والحاضر.. ثمّ يأتي بعده مقام الانكسار، المقام الذي نُذِلّ فيه نفوسنا لنقتل الكِبر داخلها، فإذا وصل السالك إليه ينتقل بعدها للمقام الثالث وهو مقام التواضع، فيشعر أنّه أقلّ من أيّ شخص آخر، وأنّ كلّ الناس خيرٌ منه.. ثمّ مقام الزهد الذي يقطع فيه السالك صلته بالروابط الدنيويّة، فإن فعل تحرّر وانطلق في السماوات.. وحينها يصل للمقام الخامس؛ الرضا.. اليقين بأن كلّ ما حدث ما كان ليقع بأفضل ممّا وقع به.. فإذا ترسّخ لديه ذلك انتقل لمقام الطمأنينة.. حيث رسوخ النفس

والقلب، حيث السلام والأمان من كلّ خوف.. بعدها يصل السالك للمقام السابع والأخير: مقام العشق، فلا يرى شيئًا أو أحدًا سواه.

ارتعش صوته عندها وترقرقت عيناه، فصمتُّ وتظاهرتُ بالنظر إلى النافذة.

سمعتُه يُتمتم بشيء لم أسمعه، ثمّ قال لي:

سنساعدكَ لتشفي قلبكَ ممّا اعتراه، فإذا انجلت مرآته صلح كلّ شيء.. نحن نجتمع في زاويتنا كلّ يوم بعد صلاة العشاء لمدة ساعة، نذكر الله ونُرقّق قلوبنا.. إن أردتَ أن تحضر فلكَ ذلك.

لكنّني فاجأتُه حينما سألتُه باهتمام:

هل هناك وسيلة للقفز مباشرة لمقام العشق دون المرور بالمقامات الأخرى؟

obeikan.com

تحلّقنا في دائرة حول المهندس (خيري)، الذي جلس في المركز ومعه ميكروفون أخذ يردّد فيه، ومن حولي يردّدون خلفه بصوتٍ عالٍ:

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من كِبره وضلاله وسائر أعماله.. بسم الله الذي به استفتاح كلّ شيء، وبه فرج كلّ شيء، وهداية كلّ شيء ورشاد كلّ شيء.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الفاتح لما أُغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطكَ المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

"وما تُقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، هو خيرًا وأعظم أجرًا، واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم".

وانطلق الجميع يردّدون بصوت مرتفع: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.. ويكررونها مرارًا، عددتُ وراءهم فوجدتُهم قد ردّدوها ثلاثًا وثلاثين مرّة.

ثمّ تلى المهندس (خيري): "إنّ الله وملائكته يُصلّون على النّبي، يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا".

وانطلقوا يردّدون: اللهمّ صلّ صلاةً كاملة وسلّم سلامًا تامًّا على سيّدنا محمد، الذي تنحلّ به العقد وتنفرج به الكرب، وتُقضى به الحوائج

وتُنال به الرغائب وحسن الخواتم، ويُستسقى الغمام بوجهه الكريم، وعلى آله وصحبه في كلّ لمحة ونفس بعدد كلّ معلوم لكَ.

وبعد أن ردّدوها ثلاثًا وثلاثين، عاد المهندس (خيري) ليتلو:

"فاعلم أنّه لا إله إلا الله".

وانطلقوا يردّدون ثلاثًا وثلاثين: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير.

ملتُ على الشاب ذي اللحية الخفيفة الجالس بجواري وهمستُ بقلق:

هل سنستمرّ هكذا طويلاً؟ ألا توجد استراحة؟

رمقني بابتسامة متفهّمة وهمس لي بدوره:

هل مللتَ يا سِيدي؟ نحن نستغفر الله أوّلاً لنطهّر قلوبنا، ثم نصلّي على النّبي لنملأها نورًا، ثم نجدّد إيماننا بلا إله إلا الله.

ولم ينتظر تعليقي، بل أخذ يدعو مع الجميع في صوتٍ واحد متنغّم:

يامن إلى رحمته المفرّ، ومن إليه يلجأ المُضطرّ.. ويا قريب العفو يا مولاه، ويا مغيث كلّ من دعاه.. بكَ استغثنا يا مغيث الضعفا، فحسبنا ياربّ أنتَ وكفى.. فلا أجلّ من عظيم قدرتكَ، ولا أعزّ من عزيز سطوتكَ.. لعزّ ملككَ الملوك تخضعُ، تخفض من تشاء وترفعُ.. والأمر كلّه إليكَ ردّهُ، وبيدكَ حلّه وعقدهُ.. وقد رفعنا أمرنا إليكَ، وقد شكونا ضعفنا عليكَ.. فارحمنا يا من لايزال عالمًا، بضعفنا ومن لايزال راحمًا.. انظر إلى ما مسّنا

obeikan.com

من الورى، فحالنا من بينهم كما ترى.. قد قلّ جمعنا وقلّ وفرنا، وانحطّ ما بين الجموع قدرنا.. واستضعفونا شوكة وشدّة، واستنقصونا عُدةً وعِدّة.. فنحن يا من ملكه لا يُسلبُ، لُذنا بجاهكَ الذي لا يُغلبُ.. إليكَ يا غوث الفقير نستند، عليكَ يا كهف الضعيف نعتمد..

اندهشتُ من قدرتهم على حفظ كلّ تلك النصوص، ربما سيأتي عليّ يوم وأحفظها أنا كذلك.

ثمّ دفع المهندس (خيري) بالميكروفون الذي بين يديه إلى أحد الجالسين، فأمسكه وتنحنح، ثمّ أنشد بصوتٍ رخيمٍ جميل:

متى يا كرام الحيّ عيني تراكمُ.. وأسمع من تلك الديار نداكمُ

ويجمعنا الدهر الذي حال بيننا.. ويحظى بكم قلبي وعيني تراكُمُ

أمرّ على الأبواب من غير حاجةٍ.. لعلّي أراكم أو أرى من يراكمُ

سقاني الهوى كأسًا من الحبّ صافيًا.. يا ليته لمّا سقاني سقاكمُ

فياليت قاضي الحبّ يحكم بيننا.. وداعي الهوى لما دعاني دعاكُمُ

أنا عبدكم، بل عبد عبدٍ لعبدكم.. ومملوككم من بيعكم وشُراكُمُ

كتبتُ لكم نفسي وما ملكت يدي.. وإن قلّت الأموال روحي فداكمُ

لساني يُمجّدكم وقلبي يُحبّكم.. وما نظرت عيني مليحًا سواكمُ

obeikan.com

مسّ الصوت الجميل شيئًا في قلبي فتحرّك، وكنتُ أظنّه لن يتحرّك طوال تلك الليلة.. ثمّ إنّني ضبطتُ دمعة تنساب من عيني حينما أخذ المُنشد يترنّم بقصيدة الحلّاج:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت.. إلا وحبّكَ مقرونٌ بأنفاسي

ولا خلوتُ إلى قومٍ أُحدّثهم.. إلا وأنتَ حديثي بين جلّاسي

ولا ذكرتُكَ محزوناً ولا فَرِحًا.. إلا وأنتَ بقلبي بين وسواسي

ولا هممتُ بشرب الماء من عطشٍ.. إلا رأيتُ خيالاً منكَ في الكأس

ولو قدرتُ على الإتيان جئتُكمُ.. سعيًا على الوجه أو مشيًا على الرأس

ويا فتى الحيّ إن غنّيتَ لي طربًا.. فغنّني وأسفًا من قلبكَ القاسي

ما لي وللنّاس كم يلحونني سفهًا.. ديني لنفسي ودين النّاس للنّاس

هذه كلمات صدرت من قلبٍ عاشقٍ فعلاً..

كانت الزاوية عبارة عن شقّة صغيرة في مدينة نصر، يلتقي فيها المُريدون يوميًا بعد صلاة العشاء.. لم أصعد مباشرة وفضّلتُ الانتظار أمام مدخل البناية حتّى يأتي المهندس (خيري) فأدخل معه.. بالتأكيد سيعطيني هذا هيبة في نظر المتواجدين.. طلبتُ كوب عصير قصب من محل العصير الموجود أسفل البناية، وبينما أرتشفه لمحتُ المهندس (خيري) يوقف سيّارته في مكان شاغر أمام البناية، فتركتُ كوبي وشكرتُ الرجل الصعيدي صاحب المحل، وأسرعتُ إليه..

دخلنا سويًّا وهو يقول لي مشيرًا للمصعد:

الزاوية في الدور السابع.

أسرع رجل عجوز محني الظهر يرتدي جلبابًا نحونا، فخمّنتُ أنّه حارس البناية، لكنّني فوجئتُ بالمهندس (خيري) يتناول يده فيُقبّلها بتبجيل!

للحظة ظننتُ أنّه شخص أعلى مقامًا منه في الطريقة، ربما أعلى مقامًا منكَ يا (عزيز)، لكنّني فوجئتُ بالعجوز يتناول يد المهندس (خيري) بسرعة ويقبّلها بدوره، بينما الأخير يسأله بودّ:

كيف حالكَ، سِيدي (حسنين)؟

- أسبح في نعمه، سِيدي (خيري).

سيّده ويتركه يقبّل يده؟! من سيّد من هنا؟!

التفت إليّ وقال يُعرّفني على الرجل:

سِيدي (حسنين)، حارس البناية!

لم أستطع أن أنطق بحرف حتّى أصبحنا سويًّا في المصعد وأغلق علينا (حسنين) الباب، فسألتُ (خيري) بذهول:

لماذا قبّلتَ يده؟

أجابني مبتسمًا:

هذه تحيّتنا.. نُقبّل أيدي بعضنا لنتذكّر أنّنا لسنا أفضل من أحد.. تذلّل لأخيكَ أفضل من أن تتذلّل للجبابرة.

غادرنا المصعد إلى شقة مفتوحة الباب.. كانت خالية من الأثاث، فقط مفروشة بالسجّاد، وهناك بعض الوسائد المعدّة للجلوس على طول حوائطها.. هناك شيء ما يشرح الصدر في جوّ المكان، ربما التوزيع الجيّد للإضاءة أو التهوية المناسبة أو رائحة البخور المنبعثة من حيث لا أدري، أو ربما هي اللوحة المُعلّقة في صدر المجلس ومكتوب عليها بخط جميل: تعال معنا لتُريح قلبكَ.

استقبلنا ما يقرب من عشرين شخصًا خمّنتُ أنّهم ربما هم كلّ أتباع الطريقة.. أسرعوا بوجوه باشّة يرحّبون بالمهندس (خيري)، ينحني أحدهم مقبّلاً يده، فيسرع المهندس (خيري) بتقبيل يده بدوره.. صافحتُ بعضهم دون تقبيل الأيدي بالطبع.. كنتُ أرمقهم منتظرًا أن يتعرّف أحدهم عليّ، لكنّهم كانوا يرمقونني بودّ وترحيب دون أن تلتمع عيونهم ببريق التعرّف الذي أنتظره، حتّى رائحة عطري النفّاذة لم تلفت انتباههم.. لا أُخفي عليكَ يا (عزيز)، كنتُ متهيّبًا من هذا اللقاء، فلابدّ أنّ من بين هؤلاء القوم من قطع أشواطًا طويلة في الطريق الروحي، وربما منهم من صار وليًّا.. وقد قرأتُ بعض الأبحاث عن هؤلاء القوم وما لديهم من قدرات تفوق بقيّة البشر.. بعضهم ترقّى روحيًا ففتح في عقله مناطق غير مطروقة، فصار بإمكانه قراءة أفكار الناس، يمكنه أن يرمقكَ فيعرف ماذا في جيبكَ أو يعرف ما تودّ قوله قبل أن تقوله.. في الغالب هم يستطيعون ضبط موجات دماغهم على موجات دماغ من يُركّزون عليه

فيحدث الاتّصال ويقرأون الأفكار.. بعضهم يمكنه الانتقال في ثانية من مكان لآخر حتّى لو كان يبعد آلاف الكيلومترات، أي إنّهم يقومون بتفكيك ذرّات أجسادهم ثمّ يعيدون تركيبها في المكان الجديد.. هناك مراجع تزعم أنّ بعضهم يمكنه الارتفاع عن الأرض والطيران أو السير فوق الماء أو تغيير طبيعة المادة وشفاء المرضى.. كلّها أشياء لن يمكنني تصديقها ما لم أرها رأي العين، وحسبما قرأتُ فهؤلاء القوم يُخفون قدراتهم هذه وينكرونها، ولا يظهرونها إلا مُرغمين، فحتّى لو كان بعضهم أولياء فلن يدعوني أعرف ذلك.. لذلك ظللتُ أنظر إلى كلّ واحدٍ منهم متهيّبًا.

كانوا متابيني الهيئة، بعضهم يرتدي بذلة كاملة مثلي، وبعضهم يرتدي ملابس عاديّة أو جلبابًا، بعضهم يبدو عليه علو القدر وبعضهم تظهر عليه البساطة.. لم يلفت انتباهي من بينهم سوى شاب بلحية خفيفة، قدّرتُ أنّه في بداية العشرينات، ظلّ يرمقني مبتسمًا فخمّنتُ أنّه تعرّف عليّ، وهززتُ رأسي له مُرحّبًا.. لم تمضِ دقائق حتّى انضمّ إلينا (حسنين) حارس البناية، ثمّ الرجل الصعيدي صاحب محل عصير القصب.

تحلّقنا في دائرة حول المهندس (خيري) الذي جلس في منتصف المكان على الأرض، وجلس الشاب ذو اللحية الخفيفة بجواري، ثم بدأ مجلس الذكر.

كنتُ أعتبر نفسي مجرّد سائح جاء ليشاهد ما يجري، لكنّني وجدتُني أنغمس في ذلك الجو الروحاني وأنسى نفسي.. عدوى الخشوع انتقلت من صدورهم إلى صدري، فأخذتُ أُردّد معهم ذكرهم وأدعيتهم وأناشيدهم، تركتُ نفسي تمامًا للتجربة لأرى إلى أين ستذهب بي.

وحينما انتهى المُنشد من إنشاده، رفع المهندس (خيري) يديه وأخذ يدعو والبقيّة يؤمّنون على دعائه:

اللهم إنّا نسألكَ إيمانًا دائمًا، ونسألكَ قلبًا خاشعًا، ونسألكَ علمًا نافعًا، ونسألكَ يقينًا صادقًا، ونسألكَ دينًا قيّمًا، ونسألكَ العافية من كلّ بليّة، ونسألكَ تمام العافية، ونسألكَ دوام العافية، ونسألكَ الشكر على العافية، ونسألكَ الغنى عن النّاس.. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ثمّ أشار نحوي وقال:

أخونا (نادر) مُريدٌ جديد سيأخذ عنّا الطريق.. تعالَ يا (نادر) لتأخذ العهد عنّي.

كان قد حدّثني عن العهد أثناء لقائي به في مكتبه، وأخبرني أنّه الركن الثالث في الطريق، الذي يتكوّن من الشيخ المُربِّي والمُريد والعهد الذي بينهما.

اقتربتُ منه وجلستُ أمامه، فقال لي:

اقترب وألصق ركبتيكَ بركبتيّ.

شعرتُ بالحرج والجميع ينظرون إليّ، لكنّني فعلتُ كما قال.. أمسكَ بيدي كأنّه يصافحني وقال لي:

ردّد ورائي: اللّه معي، ناظر إليّ، اللّه شاهد عليّ، في جميع حركاتي وسكناتي كلّها.

ردّدتُ كما قال، ثمّ سألني:

ما مرادكَ يا أخي؟

أخرجتُ من جيبي بيدي الطليقة ورقة صغيرة كان قد أملاها لي، وقرأتُ منها:

جئتُ إليكَ يا أستاذي لتعهد إليّ بالقدوة وتسلكني بتسليك العارفين.

فردّ عليّ بلهجة منغّمة:

أنتَ اخترتني من دون الناس لأكون دليلكَ على الخير. فأنا لا آمركَ إلا بالمعروف، ولا أنهاكَ إلا عن المنكر. وسأكون لكَ بعون اللّه تعالى عونًا على المعرفة والعلم الشريف النافع. لعلّ اللّه سبحانه وتعالى أن يُعلِّمنا وإيّاكَ علمًا نافعًا، وأن يجعل لنا من فضله قلبًا خاشعًا ونورًا فيه ساطعًا، وأن يرزقنا من بحر كرمه رزقًا واسعًا، وأن يفتح علينا فتحًا ربّانيًّا وإلهامًا صمدانيًّا، وأن يحفظنا من إبليس وجنوده وأعوانه: النفس والهوى والغرور والباطل، وأن يشفينا من كلّ داء لكي نحمده ونوحّده على الدوام، متوسّلين إليه بجاه حبيبه سيّدنا محمد، صاحب الجاه العظيم.

ثمّ أخذ نفسًا وقال لي:

أنتَ يا ولدي اخترتَ لنفسكَ الدخول في رقعة طريقتنا، وأن يكون أشياخنا الصحابة الكرام وتابعيهم، وكلّهم من رسول اللّه ملتمس، ورضيتَ أن تكون لي سميعًا مطيعًا محبًّا لي ولإخوانكَ.

فأجبتُه وأنا أرمق الورقة في يدي:

obeikan.com

نعم، نعم، نعم يا أستاذي وعمدتي وملاذي.

- قبلتكَ، قبلتكَ، قبلتكَ يا أخي في اللّه تعالى من الأحباب.

قرأنا بعدها الفاتحة ثمّ تركني أنهض، وأحاط الحاضرون بي يُهنّئونني.

انفضّ المجلس وبدأ بعض الحضور في الانصراف بعد أن ودّعوا المهندس (خيري).. اقتربتُ منه بدوري لأُصافحه قبل أن أمضي، لكنّه فاجأني بقوله:

مازال الوقت مبكّرًا للرحيل، انتظرني حتّى أفرغ لكَ.

وحينما انتهى من توديع آخر المغادرين، التفتَ إليّ وسألني:

في مجموعات العلاج الجماعيّة يُعيّنون لكلّ مبتدئ شخصًا قطع شوطًا أطول في العلاج ليكون راعيه.. هل سمعتَ عن ذلك الأمر؟

قلتُ لـ(عامر) ونحن نجلس في كوستا كافيه:

كنتُ أعتقد أنّ التصوّف مكانه في الزوايا والتكايا وسط الأبخرة وتمتمات الذكر، لكن أن يُصبح في الكافيهات بين أقداح القهوة، فهذا شيء لا قبل لي به!

أجابني مبتسمًا:

سِيدي (نادر)، القلب العاشق في الكافيه كما هو في التكيّة، لا يتغيّر.

تُزعجني طريقته في الكلام، تُشعرني أنّه أكثر حكمة وتجربة منّي!

سألني باهتمام وهو يرفع قدحه إلى شفتيه:

هل أحضرتَ ما طلبتُه منكَ المرّة الماضية؟

حينما استبقاني المهندس (خيري) بعد أن أخذتُ العهد عنه؛ أشار للشاب ذي اللحية الخفيفة الذي كان جالسًا بجواري في مجلس الذكر، فاقترب منّا.

- ابني (عامر).. طالب في السنة الخامسة بكلّية الطب، سيكون مرشدكَ.

هتفتُ باستنكار:

لكنّه يصغرني بكثير!

obeikan.com

- الطريق ليس بالسنّ، (عامر) نجح في الوصول إلى مقام الزهد، لذلك سيساعدكَ في الوصول إلى المقام الأوّل؛ مقام التوبة.

ثمّ استطرد شارحًا:

في طريقتنا نساعد بعضنا بعضًا على الوصول.. لذلك كلّ من يصل مقامًا يقوم بمساعدة من هم في المقامات السابقة.. يساعدهم بخبرته وتجربته ويأخذ بيدهم، هؤلاء هم المرشدون.. وكلّ شخص هنا لديه مرشد في مقامٍ أعلى منه، حتّى (عامر) لديه مرشده، وكلّ المرشدين في النهاية يعودون إليّ.

رمقتُ (عامر) وأنا لا أدري ما أقول.. لو صارحتُهما أنّني غير مقتنع بكلّ هذا الهراء، أنّ هذا الطفل لن يقدر على مساعدتي وأنّ بإمكاني مضغه وقرقشة عظامه إن أردتُ؛ فسأُعطيهما انطباعًا أنّني لستُ روحانيًّا مثلهما.. لذلك ضغطتُ على نفسي ولم أنطق بحرف.

قال لي (عامر) بودّ:

حدّثني سِيدي (خيري) عنكَ، سِيدي (نادر)، وبحثتُ عنكَ على الإنترنت.. نعمة عظيمة من ربّ العباد أن يتواجد بيننا كاتب كبير مثلكَ، لابدّ أنّني سأستفيد من تجربتكَ الحياتيّة والإبداعيّة، تمامًا كما ستستفيد من تجربتي الروحيّة التي ما كان لي أن أسبقكَ فيها إلا لأنّني بدأتُ الطريق قبلكَ، لكنّكَ أهلٌ للترقّي والصعود.

محاولة بائسة لكسب ودّي، لكن لا بأس.

Obeikan.com

- الآن سيكون تعاملكَ المباشر مع (عامر)، ستتبادلان أرقام الهواتف وستلتقيان مرارًا وتكرارًا وستُخبره بقصّتكَ وستُحدّثه عن أمراض قلبكَ، وسيساعدكَ على الوصول لمقام التوبة ثمّ تجاوزه إلى مقام الانكسار.. اعتبره طبيب قلبكَ.

واتّفق (عامر) معي على أن نلتقي غدًا..

- أحضر معكَ مسبحة بها مائة حبّة، لكن احرص أن يكون بها ثلاثة عدّادات.

- عدّادات؟!

- سيفهم البائع حينما تُخبره.. وسأشرح لكَ الأمر حينما نلتقي.

وهكذا انتهت تلك الليلة العجيبة.

وفي اليوم التالي حينما أخرجتُ المسبحة من جيبي وناولتُها لـ(عامر) حيث جلسنا في كوستا كافيه، تناولها منّي وهو يقول:

هذا النوع من المسابح مصمّم كي يُمكنكَ أن تذكر الله عليه مائة ألف مرّة!

ثمّ استطرد شارحًا أمام نظراتي المستفهمة:

المسبحة بها مائة حبّة، وهناك ثلاثة خيوط تخرج منها، في كلّ خيط عشر حبّات.. بعد أن تذكر مائة مرّة، تقوم بفصل حبّة من حبّات الخيط الأول، وهو عدّاد المئات، بعيدًا عن بقيّة الحبّات.. هكذا تعرف أنكَ ذكرتَ مائة

مرّة، ثمّ مائتين، ومع الحبّة الأخيرة تكون قد ذكرتَ ألف مرّة، فترفع حبّة من حبّات الخيط الثاني، وهو عدّاد الألوف، فتعرف أنكَ ذكرتَ ألف مرّة.. حينما تُكّرر الأمر حتّى ترفع حبّات عدّاد الألوف العشر، ترفع حبّة من حبّات الخيط الثالث، وهو عدّاد عشرات الألوف، فتعرف أنكَ ذكرتَ عشرة آلاف مرّة.. وحينما ترفع جميع حبّات ذلك الخيط تكون قد ذكرتَ مائة ألف مرّة.

رمقتُه متسائلاً:

ما المطلوب منّي بالضبط؟!

أجابني مبتسمًا:

أنتَ الآن على وشك الولوج إلى مقام التوبة، ستُصفّي قلبكَ وتندم على كلّ أخطاء الماضي، ولن يتأتّى لكَ ذلك سوى بالاستغفار، ستستغفر كثيرًا جدًّا وأنتَ تتذكّر أفعالكَ القبيحة وتتراجع عنها في قلبكَ وتندم على فعلها.. سيأتيكَ المدد فورًا إن كنتَ فعلاً تستغفر صادقًا من قلبكَ وليس بلسانكَ فقط.. لأنّ آثار أفعالكَ الملتصقة بكَ ستبدأ في الزوال حينما تجدكَ قد أدركتَ خطأكَ.. وكتل الطين التي أحطتَ بها روحكَ ستتساقط لتُتيح للأنوار أن تتجلّى بداخلكَ.. ستستغفر مائة وعشرين ألف مرّة!

انتفضتُ في مكاني واصطدمت كفّي بالطاولة فتحرّك القدحان عليها وكادا ينسكبان، وأنا أهتف مستنكرًا:

مائة وعشرين ألف مرّة؟ من أين سآتي بالوقت لكلّ هذا؟!

- الأمر عائد لكَ.. هناك من أنهوا استغفارهم في بضعة أسابيع، وهناك من فعلوها في بضع سنين.. وهناك من مازالوا حتّى الآن يُحاولون!

رمقتُ "تي شيرته" من نوع Adidas وبنطلونه الجينز الـ Kelvin Klein و"موبايله" الـ iPhone الذي اشتراه له والده، وسألتُه ببرود:

لا تبدو لي زاهدًا، فكيف وصلتَ لمقام الزهد؟

لاحظ نظراتي فأجابني:

الزهد ليس أن تتخلّى عن الأشياء، بل أن يتخلّى عنها قلبكَ.

هممتُ أن أردّ عليه ردًّا مفحمًا لكنّني وجدتُ ألّا فائدة من ذلك، فعدتُ أسأله:

هل كلّ المطلوب منّي في مقام التوبة هو الاستغفار مائة وعشرون ألف مرّة؟

- أجل.

فتحتُ الآلة الحاسبة في "موبايلي" وأخذتُ أضرب عليها وأنا أقول بصوتٍ مرتفع:

لا بأس، يمكنني الانتهاء في اثني عشر يومًا إذا استغفرتُ يوميًا عشرة آلاف مرّة.. لو افترضنا أنّ الاستغفار مائة مرّة سيأخذ مائة ثانية لإتمامه، فسأحتاج إلى دقيقة ونصف للمائة الواحدة، وربع ساعة لأُتمّ الألف.. العشرة آلاف تحتاج إلى ساعتين ونصف، فلنقل ساعتين إن كنتُ سريعًا

بدرجة كافية.. سأحتاج فقط إلى أقلّ من أسبوعين لأصل إلى مقام التوبة!

رأيتُ نظرة حزينة في عينيه وهو يقول:

الأمر راجع إليكَ.. لكنّكَ حين تنتهي ستظهر لكَ علامة معيّنة، وإلا فاستغفاركَ لن تكون له قيمة.

- أيّ علامة؟!

- شعور معيّن.. لو لم تصله فلن أُجيزكَ في مقام التوبة.

بدا لي الأمر أصعب مما تصوّرتُ، لكنّني قلتُ له بعناد:

سأصله!

obeikan.com

اختفت (رِهام) تمامًا، لم تعد تظهر على صفحتها ولا تفتح رسائلي.. اكتشفتُ حينها فزعًا أنّ (كريم) هو حلقة الوصل الوحيدة بيني وبينها، أرسلتُ له أكثر من مرّة أعتذر عن ضربي إيّاه، لكنّه كان يفتح رسائلي ويراها دون أن يردّ.

في تلك الأيام كدتُ أُجنّ، وربما كانت الأمور لتُصبح أسوأ لو لم أكن أحضر الليالي الصوفيّة التي كانت تُهدّئ كثيرًا من غلواء أفكاري ووطأة مشاعري.

أرسلتُ لـ(كريم):

"معذرة يا (كريم)، غلبني غضبي.. أنتَ أكثر من أخي، فلماذا تنقم عليّ؟ أعتذر لكَ ألف ألف مرّة على ما وقع منّي دون قصد، أتريدني أن أعتذر لكَ علنًا؟

أرجوكَ طمئني على نفسكَ.. وطمئني على (رِهام)، فهي مختفية منذ ذلك اليوم المشؤوم ولا أعرف عنها شيئًا.. لابدّ أنّكَ تعرف كيف تصل إليها.. أخبرها أنّ (نادر) يقول لكِ: سامحيني".

ثمّ عدتُ وأرسلتُ له:

"لا تقل لها إنّ (نادر) يقول "سامحيني"، فلم أفعل لها ما يستحقّ الاعتذار.. كنتُ أدافع عنكَ وعنها.. قل لها فقط إنّ (نادر) قلق ويود الاطمئنان عليكِ".

ثمّ أرسلتُ له:

"لا تقل لها شيئًا على لساني.. أودّ الحديث معها مباشرة، هلّا أرسلتَ لي رقمها؟ لقد أوصلتُها إلى بيتها في ذلك اليوم لكنّ الوقت كان ليلاً ونسيتُ المكان!"

وحينما وجدتُه يرى رسائلي دون أن يردّ، أرسلتُ له بحنق:

"اللعنة يا (كريم)! لم يحدث شيء لكلّ هذا!"

وأرسلتُ له بعدها:

"لعلمكَ.. سأقوم بتغيير الغلاف الذي صمّمتَه لروايتي.. لا أريد أن أرى اسمكَ على غلاف روايتي! سأوقف كلّ تعاملاتي معكَ.. سأوقف كلّ تعاملات دار أماندا معكَ!"

ثمّ أرسلتُ له:

"سأطلب من كلّ دور النشر التي أعرفها أن توقف تعاملها معكَ!"

ثمّ انتابني الجنون فكتبتُ له دون تفكير:

"أتدري؟ أنا أعرف العلاقة التي كانت بينكَ وبين (رِهام)، أعرف أنّكَ كنتَ وغدًا معها وتخلّيتَ عنها.. (رِهام) تثق فيّ أكثر مما تتصوّر وأخبرتني بكلّ شيء.. ربما لم أكن في وعيي في المعرض، لكنّني لو كنتُ أُدرك ما حولي لربما ضربتُكَ أكثر، لأنّكَ تستحقّ الجلد على ما فعلتَه بها!"

سألني (عامر) على الهاتف:

ولم تشعر بشيء؟

أجبتُه بلهجة قاطعة:

ولا أيّ شيء على الإطلاق! عشرون ألف مرّة على مدى الأيام الثلاثة الماضية ولا جديد! فقط تعبتُ وجفّ ريقي!

أتاني صوته يقول بتفهّم:

لو كنتَ تُردّد بلسانكَ فقط فطبيعي ألّا تشعر بشيء.. المطلوب أن تستغفر بقلبكَ!

هتفتُ بغيظ:

بقلبي أو بكبدي، أنا أشعر الآن أنّ كلّ هذا مضيعة للوقت.. حينما أتيتُكم كانت الآلام تملأني وكنتُ أطمح أن أشعر بتحسّن، لكنّ الأمر يزداد سوءًا!

- أتدري لماذا نحن الصوفيّة نهتم كثيرًا بالذكر ونعتبره الركن الأساسي في طرقنا؟

انتظر ردّي، فلمّا لم أردّ عليه أجاب بعد ثوانٍ:

obeikan.com

ألم تشعر ذات يوم بمشاعر حبٍّ تجاه فتاة؟ ألم تجد ذهنكَ يشرد إليها طوال الوقت بإرادتكَ أو رغمًا عنكَ؟ ألم تشعر بالراحة في تخيّل طيفها والحديث معه حتّى وأنتَ تُدرك أنّها لا تسمعكَ؟

تذكّرتُ (رِهام).

- نحن لأنّنا نحبّه نسعى دومًا لذكره.. إذا كنّا معًا نذكره بألسنتنا وإذا خلونا إليه نذكره بقلوبنا.. نعرف أنّ حبيبنا يسمعنا في كلّ وقت وحين، فنحدّثه بما يحبّ أن يسمع منّا، نسبّحه ونحمده وننزّهه.. بين البشر يحتاج الحبيب إلى لقاء حبيبه، يحتاج لأن يتكلّم كي يسمعه، يحتاج أن يُخبره بمكنون صدره.. لكن نحن لا نحتاج سوى للتفكير في حبيبنا فيسمعنا ونسمعه.. نحن محظوظون لأنّ حبيبنا دومًا بداخل قلوبنا.. تفيض نفوسنا بحبّه فنذكره..

ولنفس السبب نُكثر من الصلاة على النّبي، لأنّنا نعرف أنّه أحبّ هذا الرجل، فنحن نحبّ من أحبّه.. ونحبّ أولئك الذين أظهروا له الحبّ، فنحبّ الأولياء والعارفين.

نحن نحبّه، سِيدي (نادر)، وندرك أنّه هو من خلق حتّى الحبّ الذي تنبض به قلوبنا نحوه، ومنتهى أملنا أن يُفكّر فينا ويذكرنا ولو في نفسه، ونوصي المبتدئين بكثرة ذكره كي لا تغفل عنه قلوبهم.. إذا كان عليكَ أن تذكره في بضعة أسابيع مائة وعشرين ألف مرّة فهل ستجد لديكَ وقتًا لتذكر غيره؟ سينشأ بينكَ وبينه رباط، فرجة باب صغيرة.. استغِلّها سِيدي (نادر)، فلعلّ الفرجة تكبر، والباب يُفتح ذات يوم.

obeikan.com

ارتعش صوته مع كلماته الأخيرة، فلم أدرِ ماذا أقول..

- لكنّني ليست لدي ذنوب لأستغفر عنها مائة وعشرين ألف مرّة! أنا لم أؤذِ أحدًا ولم أرتكب كبيرة.. إن كان هناك شيء فكلّها صغائر ارتكبتُها دون قصد!

- الذنوب ليست كلّها كما تتصوّر؛ سرقة أو كذب أو أخذ حق.. أحيانًا أنتَ تُقصّر في حقّ نفسكَ فيكون هذا ذنبًا، إن لوّثتَ العالم بمشاعر الحقد والتعاسة والغضب، يكون ذنبًا.. إن تِهتَ بنفسكَ فخرًا وظننتَ أنّكَ أفضل من الآخرين أو قلّلتَ من شأنهم، حتّى لو بينكَ وبين نفسكّ؛ يكون ذنبًا.. إن لم تُساعد وأنتَ تقدر على المساعدة يكون ذنبًا.. إن تعلّقتَ بالأسباب ونسيتَ المُسبّب، أو تحرّك قلبكَ لشيءٍ سواه، يكون ذنبًا.. الذنوب كثيرة جدًّا، وغفلتُنا عنها في حدّ ذاتها ذنب يُثقل على أرواحنا فلا تستطيع التنفّس!

ربما المشكلة، سِيدي (نادر)، أنّكَ لا تستغفر كما يجب.. تذكر الكلمة دون أن يتحرّك معها قلبكَ، والذكر دون شعور مجرّد كلمات تتردّد بلا معنى.. أنا حينما أستغفر يُردّد قلبي مع لساني: سامحني يا رب، ارحم تقصيري وإسرافي على نفسي.. أُوجّه رسالة له بقلبي مع لساني.

سأُخبركَ شيئًا.. قرأتُ ذات مرّة أنّ أهل هاواي لديهم طقس يمارسونه ليتخلّصوا من آثار أفعالهم السيّئة.. يجلسون ويفكّرون في الشخص أو الشيء الذي أخطأوا في حقّه ويُردّدون من قلوبهم: أنا أُحبّكَ، أنا آسف، أرجوكَ سامحني، شكرًا.. يُسمّون هذا الطقس بالتظيف الذاتي.. يُنظّفون ما علق بأرواحهم أو ما تسبّبوا به لأرواح الآخرين وحياتهم.. يظلّون

Obeikan.com

يردّدون هذه الجمل لساعات طويلة إلى أن يشعروا بالراحة.. ألا يشبه هذا ما نفعله في الاستغفار؟ ستجد شيئًا مشابهًا في كلّ الثقافات والحضارات، عبارات أو أفعال يقوم بها المرء ليُعبّر عن ندمه ويُعلن تراجعه عن أخطائه، يتطهّر ليعود كما كان.

أنتَ يجب أن تتطهّر بالاستغفار، لكنّكَ لا تقوم به كما يجب، لأنّكَ لا تشعر في قلبكَ بالندم بينما تستغفر، الكِبر بداخلكَ يمنعكَ من ذلك، فيتحوّل الأمر إلى مجرّد كلمات تُتعب لسانكَ بترديدها! اشعر في قلبكَ بالندم بينما تستغفر، خاطبه بقلبكَ واطلب منه أن يُسامحكَ لأنّك نسيتَ نفسكَ وانغمستَ فيما هو زائل.. وحينما تفعل سيُسامحكَ في التوّ واللحظة.. ستتحرّر ويمتلئ صدركَ بنوره.

تمتمتُ بصوتٍ خافت:

أنتَ لم تخبرني بكلّ هذا الكلام قبل أن أبدأ!

شعرتُ برنّة الحماس في صوته:

ابدأ من جديد، واذكر من قلبكَ، اترك كِبركَ عند عتبة بابه وتخيّل أنّكَ تخاطبه مباشرة وأنّه يرمقكَ بإشفاق وانتظار.. قلّ له بقلبكَ إنّكَ نادم وتطلب السماح.. صدّقني، سِيدي (نادر)، هو في انتظاركَ، فقط خذ خطوة تجاهه.

ردّدتُ بصوتٍ مرتعش:

هو.. بانتظاري أنا؟!

obeikan.com

أُحبّكَ حبّين، حبّ الهوى.. وحبًّا لأنّكَ أهلٌ لذاكَ

فأمّا الذي هو حبّ الهوى.. فشغلي بذاتكَ عمّن سواكَ

وأمّا الذي أنتَ أهلٌ له.. فكشفكَ لي الحُجُب حتّى أراكَ

فلا الحمد في ذا ولا ذاكَ لي.. ولكن لكَ الحمد في ذا وذاكَ

انتهى المُنشد من الترنّم بالقصيدة، فتناول منه سِيدي (خيري) الميكروفون وقال موجّهًا الحديث لنا:

درسنا الليلة يا سادتي سيكون عن الخضوع له.

نحن في تعاملنا معه نُنشئ له في أذهاننا دون أن نشعر صورة ما، نتخيّله شيخًا حكيمًا أو كيانًا نورانيًا، وبالتالي نتعامل معه وكأنّه شخص محدود.. شخص أحكم وأعلم وأقدر منّا ألف مرّة، لكنّه في النهاية ليس سوى شخص يريد أن يتحكّم بنا ويُسيّرنا كيف شاء، كأبّ يحاول أن يفرض حكمته على أبنائه.. يطالبنا باتّباع أوامره التي قد تكون صحيحة وصالحة في نظره لكنّها ليست بالضرورة كذلك بالنسبة لنا.. وإن لم نفعل سيُعاقبنا!

هكذا نراه دون أن نشعر.

obeikan.com

لكنّه، يا سادتي، ليس شخصًا حكيمًا أو جميلاً أو عادلاً، بل هو الحكمة والجمال والعدل.. ليس كيانًا له حدود معيّنة أو طريقة تفكير معيّنة.. أتدرون كيف ندرك عظمته وجلاله؟ أرأيتم الكون؟ الكون نشأ منذ ما يقرب من أربعة عشر مليار عام.. يحتوي فيما نعرف على مليارات المجرات، كلّ مجرة منها فيها مليارات المجموعات الشمسيّة.. مجموعتنا الشمسيّة كي تقطعها من مركزها عند الشمس إلى أطرافها قد تحتاج لأكثر من خمسين عامًا في صاروخ سريع.. هل يمكنكم تخيّل حجم الكون؟ حجمه يفوق قدرة عقولنا على التصوّر.. وهذا مجرّد كون واحد من الأكوان التي خلقها في عوالمه.. هو أكبر وأعظم وأجلّ من كلّ هذه الأكوان وتلك العوالم، كلّها قد لا تعدو في مُلكه ذرّة رمل في صحراء.. أيمكنكم تخيّل حجم العظمة؟

هو ليس شخصًا ولا ندًّا لنا، وليس حتّى شخصًا خارجًا عنّا، هو المطلق، هو كلّ جميل، ليس مطلوبًا منّا أن ندرك ماهيّته وما هو عليه فعلاً لأنّ هذا أمر يفوق عقولنا، ومن حاول أن يفعله احترق لأنّه لم يتحمّل شدّة الأنوار، ليس مطلوبًا منّا سوى التعرّف على صفاته وجلاله من خلال آثاره، من خلال مخلوقاته، من خلال الجمال الذي بثّه في العالم، من خلال الجمال الذي بثّه في أرواحنا.

نحن مشتاقون له طوال الوقت، كلّ ما نفعله يهدف في النهاية إلى غاية واحدة، الوصول إليه، لكنّنا لا ندرك ذلك.. نعشق جمال النّساء لأنّنا نرى فيه قبسًا من جماله، نسعى لكنز الأموال لنصبح أغنياء لأنّ الغنى والاستغناء من صفاته.. نطمح للنجاح لنصل إلى العظمة لأنّه العظيم

الجليل.. نحن مجرّد بوصلة تنجذب نحو الشمال وهي لا تدري لماذا.. هو الغاية العظمى خلف كلّ غاية، لكنّنا لا ندرك ذلك.

كنتُ أستمع لهذا الكلام بقلب غير القلب الذي جئتُهم به أوّل مرّة.

مضى أسبوع منذ عدتُ أستغفر بقلبي، في البداية حاولتُ اتّباع نصائح (عامر) لكنّني فشلتُ، لم يكن بإمكاني تخيّل أنّ بإمكان قلبي مخاطبته والحديث معه.. استغفرتُ كثيرًا وأنا أُحاول جعل قلبي يُردّد "سامحني" لكنّني شعرتُ أنّني أُخاطب شخصًا بعيدًا جدًّا وغير موجود، شعرتُ باليأس وتوقّفتُ بعد ثلاثمائة استغفارة.

اتّصلتُ بـ(عامر) فقال لي:

كلّ شيء يلين بالحبّ.. اجعل الحبّ مدخلكَ إليه.. ألستَ تُحبّه؟

هزّني السؤال، هل أنا أُحبّه فعلاً؟

صمتُّ قليلاً ثم سألتُ (عامر):

هل تريد الصراحة أم كلامًا مُجمّلا؟

ولمّا لم تأتني إجابته انطلقتُ أقول بانفعال:

أريد أن أُحبّه لكنّه لا يترك لي فرصة! هناك ندوب في حياتي لم تندمل حتّى الآن.. ندوب تركت أثرًا فوق روحي، وهو.. هو السبب فيها.. لم يكن سيُضيره شيئًا لو بقي أبي معنا قليلاً أو تركني أتزوّج (سلمى).. لكنّه لم يفعل، قد تكون هناك حكمة عظيمة وراء كلّ هذا، لكنّني لا أستطيع

إدراكها، ولو أدركتُها فلن ينفي هذا أنّني أتألّم منذ سنين.. هل أخطأتُ في حقّه فعاقبني؟ لماذا وهو المُتعالي فوق كلّ شيء يهتمّ بما نفعله ويُعاقبنا عليه، ويكون علينا أن نستغفره ليغفر لنا؟ لماذا يُعذّبنا وهو الرحمن الرحيم؟!

ساد الصمتُ بيننا بعد انفجاري، ثمّ أتاني صوتُه هامسًا:

هو لا يُعذّبنا يا سِيدي، هو فقط يُطهّرنا من الأوحال التي نغمس أنفسنا فيها.. لقد أعطانا الإرادة لنختار ونفعل ما نشاء، فإذا ظلمنا أنفسنا أو آذينا الآخرين تسري علينا القوانين التي سنّها في الكون، تلك القوانين تقضي بأنّ من أخطأ تمتلئ نفسه بالسواد بقدر خطئه، وليزول هذا السواد يجب أن يندم ويتراجع عمّا فعله، ويُصلحه إن كان في الإمكان ذلك.. إن لم يفعل يظلّ السواد في داخله يزداد، وتتحرّك قوانين أخرى في العالم ضدّه، فيُبتلى ويُعاني بالقدر الذي يمحو سواده.. فإن مات ومازال بداخله سوادٌ لم يُمحَ يكتوي بالنيران بعد موته حتى يُصبح نظيفًا معافى ويستعيد صفاءه.

لم أستطع أن أردّ عليه، شعرتُ أنّني لو تكلّمتُ الآن فسأبكي.. لذلك أغلقتُ الخط دون كلمة.

كانت (إيناس) و(أدهم) قد ناما منذ فترة، وجلستُ وحدي في الصالة وسط الظلام.. رفعتُ يديّ وهمستُ دامعًا:

أريدكَ أن تساعدني وتأخذ بيدي، لا أعرف كيف، لكنّكَ بالتأكيد تعلم.. أنتَ ألقيتَ بي في هذا العالم ولم تُكلّمني بعدها.. لكنّ (عامر) يدّعي أنّكَ

تهمس في قلبي كما يهمس لكَ، وأنا أُصدّقه، أو أرغب في أن أُصدّقه.. يقول أيضًا إنّ هناك سوادًا بداخلي وأنّ كلّ ما تفعله يهدف لإزالة هذا السواد، لأنّكَ تُحبّني وتُريد أن تُطهّرني وتُزكّيني.. أرني حبّكَ الآن، أريد أن أراه في قلبي.. العالم مليء بغلاظ القلوب الذين يدّعون أنّهم يعلمون مرادكَ، والنّاس يظنّونكَ غليظ القلب مثلهم.. لكنّني وثقتُ في (عامر) و(خيري) و(عزيز)، وهم يدّعون أنّكَ لستَ هكذا.. أنر قلبي بنوركَ لأراكَ كما يقولون عنكَ!

وفي اليوم التالي أيقظتني (إيناس)، فتحتُ عينيّ فوجدتُها ترمقني بقلق وهي تسألني:

لماذا نمتَ على كرسي الصالة؟

واندهشت حينما وجدتني أرمقها مبتسمًا، فتساءلت:

ماذا بكَ؟ هل حدث شيء؟

أجبتُها بانفعال:

أشعر به في قلبي!

سألتني عمّا أعنيه لكنّني لم أستطع أن أُجيبها.

بدأتُ يومي في ذلك الصباح بوِرد الاستغفار الذي حدّدتُه لنفسي، حاولتُ أن أقول له بقلبي "سامحني" فوجدتُني أشعر بالكلمة، أشعر به قريبًا يسمعني.

لم أعد أُردّد الكلمات ما لم يُردّدها قلبي معي، وأصبحتُ أُراقب بدهشة التأثير الذي يحدث داخلي.. هناك شيء تغيّر.. أصبحت أقلّ الأشياء تدفعني للتأثّر فتدمع عيناي.

بعد أن تجاوزتُ الألف الثانية استيقظ (أدهم) ومرّ أمامي، فوجدتُ نفسي أرمقه بتأثّر وتدمع عيناي.. يالها من معجزة أن تأتي بمخلوق جديد إلى هذا العالم.. (أدهم) لم يكن موجودًا من قبل ثمّ رُزقتُ به.. رأيتُ بطن (إيناس) تتكوّر به وتكبر يومًا بعد الآخر، ثمّ جاءتني الممرّضة به قطعة من اللحم الأحمر غير واضحة المعالم، لكنّها تعوي بصوتٍ رفيع.. ثمّ رأيتُه يكبر أمام عيني يومًا بعد الآخر وتتشكّل ملامحه لتأخذ شكلي في صغري.. أنا جئتُ بكَ إلى هذا العالم يا ولدي، فأيّ معجزة تلك!

استغفرتُ وأنا أتذكّر حياتي، أتذكّر ما أستطيعه من مواقف شعرتُ فيها أنّني أفضل من غيري، الأوقات التي تِهتُ فيها إعجابًا بنفسي، اللحظات التي تملّكتني فيها الرغبة في امتلاك الأشياء أو التحكّم في النّاس أو التفوّق عليهم لأقهرهم.. الأوقات التي غمرتني فيها شهوة التحدّي، حبّ الظهور، الاهتمام بالمظاهر والشكليات، منافسة الآخرين ومقارنة نفسي بهم، حرصي على صورتي أمام النّاس، اعتقادي أنّني على صواب دومًا، الجدل، الغضب وتمنّي الانتقام، الحكم على الآخرين وأخذ مواقف منهم.. الشعور بالثقة والأمان بسبب وظيفتي ومكانتي وقائمة معارفي..

واستغفرتُ طويلاً جدًا بسبب (رِهام)، ذنبي الأعظم وخطيئتي الكبرى.. حتّى (إيناس) استغفرتُ كثيرًا وأنا أتذكّر معاملتي السيّئة لها.

طوال عمري كان هناك اختناق في صدري، اعتبرتُه أمرًا طبيعيًا لدرجة أنّني لم أعد ألحظه، ولم أُدركه إلا حينما بدأ يزول في تلك الأيام، فأصبحتُ أشعر بالراحة، بالانتعاش، بجلاء قلبي، بشيء يشتعل في صدري، كأنّني صرتُ أتنفّس أفضل، كأنّ قطعًا من الظلام داخلي تزول مع كلّ استغفارة، كأنّني أقوم بمساج لروحي من الداخل.. هل تلك هي العلامة التي عناها (عامر)؟ التطهّر؟

حدّثتُ (عامر) بما أشعر به حينما وصلتُ إلى عشرة الآلاف الثالثة، فجاءني صوته عبر الهاتف مبتهجًا:

جميل، سِيدي (نادر)، استمرّ.. تلك هي العلامة.

- هل أستمرّ بعد ظهور العلامة؟

- في الطبّ نَصِف الدواء للمريض بمقادير دقيقة، إن زادت قد تأتي بعكس مفعولها، لكن في طبّ القلوب كلّما زاد الدواء زاد الشفاء.. استمرّ، سِيدي (نادر)، أنتَ الآن في مقام التوبة، لكن استمرّ..

ولم أكن أنوي التوقّف، لأنّني أحببتُ الاستغفار وأدركتُ أنّه سيكون رفيق دربي من الآن فصاعدًا.. ما أحلى الندم!

اقترب منّي (عامر) بعد انتهاء سِيدي (خيري) من درسه، فقال لي مبتسمًا:

كلّ شيخ مُربٍّ له طريقته في التربية، هناك من يُربّي بالذكر، وهناك من يُربّي بالأوراد، أو بالخلوة، أو المكابدة، هناك حتّى من يُربّي بالنظرة.

سألتُه بدهشة:

بالنظرة؟ ماذا تقصد، سِيدي (عامر)؟

- الروح تُربّي الروح.. الشيخ يرمق تلميذه فينتهر التلميذ.. الأرواح تتفاعل مع بعضها في مستوى آخر لا ندركه.. ألم ترَ من قبل طفلاً يأخذ طبع أبيه حتى لو لم يُهذّبه الأب ويُعلّمه؟ الأرواح تُربّي بعضها.. أما نحن في طريقتنا فنُربّي بالتجربة.

أنتَ الآن، سِيدي (نادر)، مقبل على مقام الانكسار.. مقام التوبة كان مقام ذكر، أما مقام الانكسار فهو أوّل مقامات التجربة.

صمت قليلاً ثمّ سألني مبتسمًا:

هل فكّرتَ يومًا أن تعمل في محل عصير قصب؟

استيقظتُ يومًا فوجدتُ في صندوق رسائلي رسالة من (رِهام)، فنسيتُ كلّ شيء عن وِرد استغفاري الصباحي، وبصعوبة استطعتُ توجيه "الماوس" لفتح الرسالة مع ارتعاش يدي.

"لا أدري كيف أبدأ يا (نادر)، فمازلتُ مرتبكة حتّى الآن من ذلك اليوم.

معذرة على اختفائي، كنتُ بحاجة لفترة من الراحة من كلّ شيء، سافرتُ وتعمّدتُ عدم الدخول على الإنترنت أو الردّ على هاتفي.. كنتُ بحاجة لشيء من الصفاء الذي لم أستطع إيجاده.

ماذا أقول لكَ؟

نعم (كريم) هو ذلك الشخص الذي حكيتُ لكَ قصّتي معه، ولو سألتني بشكل مباشر لأخبرتُكَ بذلك، وأنتَ لم تسأل.. لكنّ ذلك لا يعني شيئًا، نحن أصدقاء فقط كما أخبرتُكَ من قبل.. وظهورنا سويًّا في المعرض لا يعني أكثر من أنّ صديقين التقيا في مناسبة ثقافيّة كهذه وجاءا معًا، تمامًا كما جئتُ معه في أوّل مرّة التقينا فيها في مكتبة خيال.

أنتَ أنقذتني للمرّة الثانية ولا توجد عبارة شكر تكفي للتعبير لكَ عن امتناني، لكنّ ما حدث بعد ذلك جعلني مبلبلة.. أنتَ هاجمتَ (كريم)، وأنا أُصدّقكَ حين تقول إنكَ فقدتَ إدراككَ لما حولكَ لوهلة وهاجمتَه وكأنّه أحد من ضايقوني.. لكنّني رأيتُ في عينيكَ يا (نادر) أنّكَ تعرف كلّ شيء،

أنّ (كريم) هو ذلك الشخص، لا أدري كيف وصل إدراكَكَ لذلك.. في اللحظة التي هاجمتَه فيها شعرتُ أنّكَ تُحاول معاقبة كلّ من آذوني، ضربتَ أولئك الفتية ثمّ هاجمتَ الشخص الذي كسر قلبي، ولو كان زوجي أو (ماهر) هناك لما تردّدتَ في الهجوم عليهما، لوهلة ظننتُ أنّكَ هبطتَ من السماء بمهمّة واحدة: حمايتي! هذا الشعور جعلني أشعر بالذنب.. هل أقول لكَ شيئًا؟ أنا مازلتُ أحمل بقيّة من مشاعر لـ(كريم).. المشاعر –للأسف- لا تعمل بالأزرار، زر يوقفها وزر يجعلها تبدأ من جديد.. أحببتُه وكان من الصعب عليّ نسيانه، وحتّى حينما أقنعتُ نفسي بأنّه لم يعد سوى صديق، كنتُ أُدرك أنّ هناك جزءًا بداخلي لن يستطيع رؤيته هكذا.. لكنّني طمأنتُ نفسي بأنّ الوقت كفيل بحلّ كلّ شيء.. وفي ذلك اليوم لم أشعر بنفسي إلا وأنا أُهاجمكَ لأوقف اعتداءكَ عليه، لم أستطع أن أراكَ وأنتَ تضربه، أنا آسفة، أنتَ دافعتَ عنّي كما لم يفعل أحد في حياتي، منحتني ما لم يستطع أحد آخر منحه لي: الأمان والحماية، ومع ذلك تنكّرتُ لكَ دون أن أشعر حينما وجدتُه ملقى على الأرض يرمقني بفزعٍ، نسيتُ كلّ شيء يا (نادر) ولم أتذكّر سوى شيء واحد: أنّني أُحبّه!

أكتب لكَ هذه الكلمات الآن وأنا أبكي وأشعر بمدى مهانتي! لقد رفضني وتخلّى عنّي، ومع ذلك بنظرة واحدة من عينيه جعلني أنسى الدنيا وأُحيطه بذراعيّ وأُهاجم الشخص الوحيد الذي دافع عنّي في هذا العالم الوغد!

أنا آسفة يا (نادر)، كلّ كلمات الأسف لن تكفي.. أرجوكَ سامحني!"

أُسامحها؟!

كتبتُ لها بسرعة وأنا أُقاوم دموعي بصعوبة:

"سنتحدّث لاحقًا في كلّ ما قلتِه، المهمّ الآن أن ترسلي لي رقمكِ، لأنّني أخشى أن تختفي مرّة أخرى ولا أعرف كيف أصل إليكِ!"

أرسلتُ الرسالة، وظللتُ ساكنًا في مكاني لوهلة.. ثمّ هتفتُ بلوعة:

ماهذا الذلّ!

قمتُ ودفعتُ "اللاب توب" بغيظ فسقط على الأرض، ثمّ تناولتُ مسبحتي فقذفتُ بها بكلّ قوتي نحو الحائط.

obeikan.com

كان وجهه غارقًا في الظلام وهو يشير بيده نحوي:

أحضروه إليّ!

سقطت عشرات الأيدي على كتفيّ، فصرختُ ولم يخرج صوتي، وجرّوني نحوه وأنا أرفس بقدميّ، وقد أدركتُ الهول الذي سيحيق بي.

انتفضتُ في فراشي وأنا ألهث، فنهضت (إيناس) فزعة وسألتني:

ماذا هناك؟!

هززتُ رأسي لها دون أن أقوى على النطق، ثمّ غادرتُ فراشي لأبدأ يومًا طويلاً.

أخذتُ أسبوعًا أجازة من الدار، في الأيام الأخيرة لم يعد (كمال الألفي) يُطيقني، وأرسل لي مع (إبراهيم) يُخبرني أنّه يريد أحدًا من طاقمي لينيب عنّي هذه المرّة في اجتماعنا الدوري. رمقتُ عينيّ (إبراهيم) الجذلتين ولم أُعلّق.

- لو تراجعتَ عمّا في رأسكَ وجئتَ معي للأستاذ (فهمي) فاعتذرتَ وجدّدتَ العهود فستفتح لكَ أفاتار أحضانها من جديد.

obeikan.com

قالها وفي عينيه يلتمع بريق الصداقة القديم. أعلم أنّه صادق، لكنّني بدأتُ طريقًا ولن أتراجع الآن، لو فعلتُ لأصبحتُ عبدًا لهم ما بقي من حياتي.

لم أردّ عليه، فهزّ رأسه بأسف:

- تذكّر أنّكَ من بدأتَ بالعداوة!

طلبتُ من (مها) أن تُعدّ لي طلب أجازة لمدّة أسبوع وتُرسله لـ(كمال)، وغادرتُ المكتب دون أن أنتظر الموافقة.. سأُريح (كمال) من وجهي حتّى تهدأ أعصابه وينسى ما حدث.

لكنّني كنتُ أودّ استغلال الأسبوع فيما طلبه منّي (عامر).

- النفس الأمّارة بالسوء لا يمكن مهادنتها، ليس أمامكَ سوى أن تكسرها، تذبحها إن استطعتَ الوصول بسكّينكَ إلى رقبتها.. فلترَ ماذا تريد منكَ ثمّ افعل عكسه.. وأوّل ما تشتهيه هو الوجاهة والتبجيل، نظرة الإكبار في عيون الناس.. أنتَ أمام نفسكَ الأمّارة بالسوء مدير عظيم في دار نشر كبيرة، الكتّاب والناشرون يرمقونكَ باحترام، فلو أجبرتها على العمل في مهنة يدويّة لا تحتاج مهارة خاصة فأنتَ تخنقها، تضعها على الأرض وتدوس خدّها بقدم انكساركَ.

سألتُه:

ولهذا عليّ أن أعمل صبيًّا في محل العصير؟

- سِيدي (رضا) صاحب المحل من إخواننا، ويُرحّب بعمل إخوانه في الطريق معه، ويجزل لهم العطاء.. سيمنحكَ شهريًا ثلاثمائة جنيه.

شعرتُ بالدماء تغلي في عروقي، فلاحظ تغيّر نظرتي وأسرع يقول:

تلك نفسكَ الأمّارة بالسوء تهمس لكَ أنّكَ تعرّضتَ للإهانة وعليكَ القصاص لنفسكَ.. إذا كنتَ تُفكّر، سِيدي (نادر)، في أن تُغلظ لي القول فنفسكَ الأمّارة بالسوء من تُفكّر الآن ولستَ أنتَ.

وهكذا وجدتُ نفسي يا (عزيز) في غفلة من الزمان أحمل حزمًا من أعواد القصب مع (حمادة) الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وتحت إشراف الحاج (رضا)، لندخلها إلى المخزن الصغير خلف المحل.. نجلس هناك وكلّ منّا يُمسك سكّينه، وبين يديه عود قصب كبير قد يزيد طوله عن المترين، فنأخذ في تشذيبه وإزالة القشر عنه ثمّ نقطع أعلاه وأسفله ونقسمه من المنتصف ليسهل حمله وعصره.. كانت الإضاءة في المكان خافتة، ومخلّفات القصب الذي تمّ عصره مكوّمة خلفنا في ركنٍ قصيّ في انتظار عربة القمامة لنحملها إليها، الرائحة خانقة وهناك ذباب لحوح تجمّع حول المخلّفات وأحاط بنا.. لم أكن ماهرًا ولا متحمّسًا فكنتُ أتباطأ حينما يضيق صدري، وأُفكّر جدّيًا أن أُلقي بما بين يديّ وأغادر المكان وأعود إلى عالمي الذي أعرفه ويعرفني.. فيأتيني صوت (حمادة) المرح:

الهمّة يا أستاذ (نادر)، لم يبقَ أمامنا الكثير.

فتزيد رغبتي في لطمه بما بين يديّ والرحيل بلا كلمة.

لكن لا يمكنني إنكار أنّ (حمادة) كان يتحمّل عنّي العبء الأكبر، فكان يذهب لإحضار كمّيات القصب المعصور على أكثر من مرّة ويلقيها خلفنا، وحينما تأتي عربة القمامة كان يجمعها في أكياس كبيرة ويحملها بمساعدة جامع القمامة ليضعها فوق العربة.

كان أصعب شيء عليّ هو اضطراري للاستغناء عن بذلتي.. أحضرتُ معي من البيت جلبابًا أبيض وقمتُ باستبداله ببذلتي في غرفة عمّ (حسنين)، ثم عدتُ إلى محل العصير أرفل في الجلباب ولا أكاد أعرف نفسي.

في الخارج كان الحاج (رضا) يجلس خلف الكاونتر صامتًا، لم يكن يتحدّث كثيرًا ولا يبدو على وجهه أيّ تعبير.. ولولا أنّني رأيتُه في مجلس الذكر وهو يتمايل وِجدًا مع صوت المنشد لما عرفتُه في مجلسه الآن.. أحيانًا يصيح فجأة بلا مقدّمات "يا الله"، ثمّ يعود لصمته.

توقّعتُ أن يسألني حينما أخذني (عامر) إليه عن أصلي وفصلي ومن أيّ البلاد أنا، وانتويتُ ألّا أُخبره أنّني صعيدي مثله كي لا يرفع الكلفة بيننا، لكنّه هزّ رأسه لـ(عامر) في صمت، وكأنّه اعتاد الأمر، وأشار لـ(حمادة) ليأتي ويأخذني إلى المخزن.. لكنّه قال لي قبل أن أمضي:

بعد فترة، يا ولدي، سأجعلكَ تصبّ العصير للشاربين.

هل يعتقد أنّه هكذا سيُرقّيني ويُرضي طموحي؟

وأشار للفتى (عبد الرحيم) الذي يصبّ العصير للزبائن، مكملاً:

فسيّد القوم ساقيهم، كما قال سيّدنا وحبيبنا النّبي عليه أفضل صلاة وأفضل سلام.

فصحّح له (عامر):

سيّدنا النّبي لم يقل هذا يا سِيدي، هذا حديث ضعيف.. ولم يقل ساقيهم، قال خادمهم.

فأشاح بيده أنّه لا يهمّ، وعاد لصمته.

Obeikan.com

هل انكسرت نفسي من العمل في محل العصير يا (عزيز)؟

بالطبع لا، ما حدث أنّها هاجت وفاضت بالغضب.. لا أدري هل انكسرت نفوس آخرين من إخواني في الطريق بهذه الكيفيّة، لكن إن كان قد حدث فهذا لا يعني سوى أنّ نفسي بلغت من الطغيان حدّ أنّها تحتاج لنيزك من السماء يسقط فوقها ليسحقها.

لكنّني تمسّكتُ بالصبر، حاولتُ أثناء تقطيعي وتشذيبي لأعواد القصب أن أنسى من أنا، تقمّصتُ دور صبي محل العصير وتظاهرتُ بالتوحّد معه ونسيتُ ماعدا ذلك.. حينما أشعر بالملل ولا جدوى كلّ هذا كنتُ أُمارس الاستغفار علّ نفسي تهدأ وتتجاوز، فكان (حمادة) يلحظ تمتمتي ويسمع طرفًا منها فيُضيء وجهه ويقول لي:

ما شاء الله عليكَ يا أستاذ (نادر).

كثيرًا ما كنتُ أضع غضبي في عود القصب بين يديّ، أتخيّله نفسي التي أخوض هذه التجربة لهزيمتها، فأزيد من ضرباتي له بالسكّين، ثمّ أرفع عينيّ إلى (حمادة) فأجده يرمقني بقلق، فأبتسم له مطمئنًا.

حاول (حمادة) أن يفتح أبواب الحديث معي مرارًا وتكرارًا، لكنّني لم أكن مستعدًّا لمصادقته، أنا هنا بشكل مؤقّت.. أيام وأعود لعالمي، لستُ عاملاً

بسيطًا في محل العصير يا بني، فلا تفتح معي حديثًا، عقلي يختلف عن عقلكَ، عالمي ليس عالمكَ.

وحينما حكيتُ كلّ هذا لـ(عامر) في جلستنا الأسبوعيّة، قال لي متّسع العينين:

لكنّكَ يا سِيدي لن تستفيد هكذا من تجربتكَ وستُضيّع وقتكَ.. أنتَ كالسكّير الذي دخل مسجدًا ليجرعِ الخمر في صحنه!

سألتُه بضيق:

ما الذي أخطأتُ فيه الآن؟ عملتُ في وظيفة بسيطة لأكسر نفسي، ومازلتُ مستمرًا في العمل رغم إحساسي بعدم جدوى ما أفعله! أتدرك حجم التضحيّة التي أبذلها؟!

- هذا ما أقصده يا سِيدي (نادر)، وجودكَ في هذا العمل ليس هدفًا في حدّ ذاته، الهدف أن تُخضع نفسكَ وتُجبرها على قبول ما أنتَ فيه.. أن تقبل صداقة (حمادة) وتتواضع له، أن تُصدّق أنّ لا فرق بينكَ وبينه، وأنّه قد يكون أعلى منكَ درجة عند صاحب الدرجات.

فكّرتُ في كلامه ثمّ قلتُ له:

كلامكَ جميل ولا اعتراض لديّ عليه، لكنّني لا أستطيع! (حمادة) على عيني ورأسي، لكن لا توجد روابط مشتركة بيننا، هل سيفهمني لو حدّثتُه عن أدب أمريكا اللاتينيّة ومشروع نجيب محفوظ الروائي ومشاكل سوق

النشر؟ فلنكن واقعيين، حتّى لو كان شخصًا غنيًّا وذا نفوذ، وليس مجرّد صبي في محل عصير، لم أكن سأنسجم معه وأسعى لصداقته.

- هذا صحيح، لكنّكَ تنفر من صداقته الآن لأنّكَ في قرارتكَ تعتقد أنّكَ أفضل منه.. لماذا لا تُحاول تغيير نظرتكَ له؟ تخيّل أنّكَ اطّلعتَ على كتاب الغيب وعرفتَ أنّ (حمادة) شخص أفضل منكَ، أنّه مكتوبٌ في هذه الدنيا من الصدّيقين، وأنّه سيُصبح في مستقبل الأيام ذا شأن خطير.. ألن تُحاول كسب ودّه والتقرّب إليه والتعلّم منه؟

قلتُ له إنّني سأُحاول، فقال لي قبل أن ينصرف:

حاول يا سِيدي أن تتعامل مع كلّ شخص باعتبار ه أفضل منكَ مائة مرّة.. لهذا ننادي بعضنا بـ"سِيدي".

ولهذا حينما رأيتُ (حمادة) في اليوم التالي تمثّلتُ أنّه يعلوني مقامًا، وأنّه تواضع وقبل أن يشاركني جلستنا في المخزن الصغير خلف محل العصير، فشعرتُ أنّ بإمكاني مبادرته بالحديث:

أتعلم يا (حمادة) أنّني أُجيد فنون القتال؟

تأمّلني بدهشة، فأكملتُ:

يمكنني أن أضرب خمسة أشخاص دفعة واحدة.. تمامًا مثل أدهم صبري!

سألني من هو أدهم صبري فأخبرتُه أنّه بطل سلسلة روايات جيب شهيرة، تحمّستُ وحكيتُ له أفكار بعض أعداد السلسلة.. لم تكن لديه فكرة عن المافيا ولا أجهزة المخابرات المختلفة التي واجهها أدهم، فاستفضتُ في

الكلام عن "السي آي أيه" و"الكي جي بي" و"الإم آي 6" و"الموساد".. حكيتُ له بينما نعمل على أعواد القصب كيف هزم أدهم المافيا زعيمًا تلو آخر، إلى أن وقعت دونا كارولينا الحسناء في حبّه وحدثت هدنة بينه وبين المافيا.

وأصبحتُ أتطوّع لأساعده في حمل القصب المعصور من خلف العصّارة إلى المخزن ووضعه في أكياس كبيرة، وحينما تأتي عربة القمامة كنتُ أحمل الأكياس معه لنلقي بها فوق العربة.

- هل يمكنكَ يا أستاذ (نادر) أن تُعلّمني بعض الحركات؟

رحّبتُ بحماس، ووقفتُ وأنا أُشير له حولي:

فلنفترض أنّ هناك ثلاثة رجال يحيطون بي، من أمامي وخلفي وعن يميني.. سأرفع قبضتي مباشرة على امتداد ذراعي في وجه من أمامي ثمّ أعود بها إلى الخلف وأنا أهبط لأسفل فأغوص بكوعي في معدة من خلفي، ثمّ أرتفع بقبضتي لتضرب أسفل ذقن الرجل الذي على يميني.

ثمّ قمتُ أمامه بالحركة الثلاثيّة في ثانية واحدة وبسرعة خاطفة، ففغر فاه دهشة، وحاول تقليدي.

- لا يا (حمادة)، تحتاج أن تكون أسرع من هذا.. أنتَ أفضل منّي، أقصد بإمكانكَ أن تكون أفضل منّي لو ركّزتَ قليلاً.

obeikan.com

بعد انتهاء أسبوع الأجازة الذي أخذتُه أصبحتُ أذهب للدار صباحًا ثمّ أُغادرها عصرًا إلى محل العصير، وأظلّ أعمل مع (حمادة) حتّى يحين موعد صلاة العشاء، فأغادر المحل مع الحاج (رضا) ونصلّي في المسجد القريب، ثمّ نصعد إلى الزاوية لنحضر مجلس الذكر، قبل أن أعود إلى البيت، فتستقبلني (إيناس) غاضبة لأنّني أصبحتُ أعود يوميًا إلى البيت متأخّرًا.

هكذا أصبح روتين يومي.

اقتربتُ من (رِهام) أكثر بعد أن سقط سرّها الأخير، فأصبحتُ مستشارها الذي تعود إليه في علاقتها ب(كريم).. تُرسل لي تُخبرني أنّه قال لها كذا أو هي قالت له كذا.. تشتكيه لي وتطلب رأيي في بعض تصرّفاته ومعانيها.. كنتُ أتألّم يا (عزيز) وأنا أتظاهر بالاهتمام وهي تسألني إن كان تصرّفه الفلاني يعني أنّه مازال يحبّها أم إنّها تتوهّم، فأُحاول أن أخبرها بما يرضيها وفي نفس الوقت لا يجعلها تميل نحوه أكثر.. وحينما أُحاول بحذر أن أنصحها أن تُحجّم علاقتها به أو تقطعها، كانت تُخبرني بثقة أنّها تُسيطر على الأمر ووجوده من عدمه لا يفرق معها، الأمر الذي كنتُ أعرف وتعرف أنّه محض هراء.

نحن الرجال نحبّ لعب دور الرجل الحكيم، أن يلجأ إلينا الآخرون طلبًا للنصيحة والمشورة، أن يلقوا بمشاكلهم على عتباتنا ويعلنوا استسلامهم

وحاجتهم لحكمتنا وخبراتنا.. طالما أحببتُ هذا الدور، لكن هل أحببتُه مع (رِهام)؟

لا أدري، على كلّ حال هو أفضل من لا شيء.. فإن لم تكن تُحبّني كما ظننتُ فلا أقلّ من أن تحترمني وتضعني في مكانة لا يضاهيها أحد.

أمّا (كريم) فقد عاد للظهور، لكنّه ظلّ يتجاهل رسائلي واتّصالاتي.. كتبت لي (رِهام):

"أنتَ أخطأتَ يا (نادر) حينما أرسلتَ تُخبره أنّني حكيتُ لكَ عن علاقتنا.. اعتبر أنّني أفشيتُ سرًّا كان بيني وبينه فقط، فهو لا يحبّ أن يعرف الآخرون عن علاقاته.. قد يُسعدني كذلك أن أقول إنّه ربما غار لأنّكَ وصلتَ عندي لمكانة تُتيح لكَ معرفة هذه الأمور الخاصة.. سيظلّ متحفّظًا معكَ لفترة ثمّ تعود المياه لمجاريها.. أنتما أخوان في النهاية"

فليذهب إلى الجحيم بكبريائه اللعين!

أما (إيناس) فقد كانت هذه الأيام –رغم غضبها بسبب غيابي خارج البيت- أسعد أيامها.. أصبحتُ أتعامل معها بشكل أقلّ حدّة وأتحمّل إلحاحها وأمتصّ غضبها، خصوصًا حينما أعود من مجلس الذكر وقلبي مازال نشوانًا بخمر العشق الإلهي الذي ارتشفتُه هناك.

وفي تلك الفترة أيضًا عاود (إسلام) ابن عمّي الاتّصال الملحّ بي، فتجاهلتُه مرّات ثمّ رددتُ عليه.

- قد لا ترى عمّكَ مرّة أخرى يا (نادر) إن لم تأتِه الآن.. المرض بلغ به مبلغه، ويريد أن يتحدّث معكَ.

لم يكن لديّ وقت للسفر، يومي مزدحم، لكنّني قلتُ له صادقًا:

سأحضر يا (إسلام).. أنا تغيّرت، أصبحتُ مؤخرًا أحضر مجالس ذكر غيّرت قلبي ورقّقته.. لكن لن أستطيع السفر الآن، ربما بعد أسبوع أو أسبوعين.

كان كلّ شيء في طريقه إلى النهاية يا (عزيز)، لكنّني لم أكن أعرف وقتها، وبدأت السطور الأخيرة في قصّتي حينما أخبرني الحاج (رضا) أنّه راضٍ عن عملي وسينقلني لأساعد (عبد الرحيم) الفتى الذي يصبّ العصير للزبائن.. ورغم أنّني كنتُ أنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي عملي في المخزن الكئيب إلا أنّني فوجئتُ بالحزن يتسرب لنفسي على فراق (حمادة)، كنتُ قد اعتدتُه وطابت لي عشرته.. أصبحنا أصدقاء حقًّا لا مجرّد زملاء عمل، وصرتُ أعامله بندّية.. تعلّمتُ منه أنّ الحكم على الأشخاص لا يكون بمكانتهم الاجتماعيّة ولا مستواهم الثقافي، بل بصفاء قلوبهم؛ فكيف أتركه وحده في المخزن بعد كلّ هذا؟!

- سأنتهز أيّ فرصة يا صديقي لآتي وأطمئن عليكَ، انتبه لنفسكَ يا (حمادة)!

فضرب الحاج (رضا)، الذي كان يرمقنا، كفًّا بكفّ وهو يهتف:

يا ولدي أنتَ ستعمل على بعد ثلاثة أمتار منه وفي نفس المحل!

عرفتُ أنّ أجري سيزيد ليصبح خمسمائة جنيه، لكنّ (عبد الرحيم) لم يكن ودودًا مثل (حمادة)، كان قبل أن آتيه يقوم بكلّ شيء وحده؛ يحشر أعواد القصب، عودًا تلو عود، في العصّارة الضخمة، وينتظر حتّى يمتلئ دورق الألمونيوم الموضوع أسفل فتحة نزول العصير، ويهزّ المصفاة الموضوعة فوقه ليتأكّد من نزول كلّ العصير خالٍ من الشوائب، ثمّ يحمل الدورق ويصبّه في دورق آخر قبل أن يُعيد الأوّل إلى مكانه أسفل العصّارة.. ويعود ويمسك بالدورق الجديد بعد أن يرصّ أكواب العصير أمامه في مقابل كلّ زبون ينتظر، فيميل عليها بالدورق واحدًا واحدًا بسرعة ومهارة فيملأها حتّى حوافها، وتمتدّ أيدي الزبائن إليها.. وحينما ينتهون يعيدونها إلى أماكنها، فيأخذها (عبد الرحيم) ويشطفها سريعًا تحت صنبور الماء الذي يجاوره، ثمّ يرصّها من جديد، ويُعيد العمليّة من أوّلها.

حملتُ أنا عنه عبء التعامل مع العصّارة، فكنتُ أُسلّمه الدورق ممتلئًا بالعصير، فيفرغه في دورقه، ثمّ يعيده إليّ لأُعيد ملأه من العصّارة.

كنّا مازلنا شتاءً، و لم يكن الزبائن كثيرين مثلما هو الحال في الصيف، والدورق الواحد يأخذ وقتًا حتّى يفرغ لأملأه من جديد.. لذلك أصبحتُ أُحضر معي كتابًا لأقرأ فيه كي لا أملّ، لأنّني حينما استغللتُ وقت فراغي في الذهاب إلى (حمادة) في المخزن كان بعض الزبائن يأتون، فيضطر الحاج (رضا) أن يهتف مناديًا إيّاي، فأعود مسرعًا شاعرًا بالحرج.

وفي اليوم الموعود كانت دقائق قليلة تفصلنا عن أذان العشاء؛ الوقت الذي أغادر فيه المحل لأحضر مجلس الذكر قبل أن أعود إلى بيتي، ولم

يكن هناك زبائن تقريبًا، فجلستُ على كرسي صغير بجوار العصّارة أقرأ مجموعة قصص قصيرة مترجمة لماركيز، حينما سمعتُ صوت خطواتٍ تدخل المحل وهتف بي (عبد الرحيم):

العصير!

فوضعتُ الكتاب جانبًا وأسرعتُ دون كلمة أو نظرة أحمل عودي قصب، شغّلتُ العصّارة ووضعتُ العود الأوّل في الفتحة الصغيرة أعلاها، ودفعتُه بقوّة ليدخل أسفل الأسطوانة الضخمة العاصرة، وانتظرتُ حتّى التهمته لآخره ثمّ أتبعتُه بالعود الآخر، وظللتُ منتظرًا أن ينتهي خيط العصير المنساب من أسفل العصّارة، ثمّ حملتُ الدورق والتفتُّ لأُناوله لـ(عبد الرحيم)، حينما فاجأني الصوت:

أستاذ (نادر)؟!

كانت (ولاء) الفتاة التي حطّمتُ حلمها الأدبي تقف هناك أمام (عبد الرحيم) وأمامها كوب عصير فارغ بانتظار دورقي ليمتلئ، وهي ترمقني بذهول غير مصدّقة.

- ماذا تفعل هنا؟!

شعرتُ بالدنيا تدور بي وانخرس لساني وسقط الدورق من بين يديّ، فانساب السائل الأخضر فاتح اللون على الأرضيّة، وأصاب جلبابي الأبيض بعضًا من رذاذه المتطاير.. تمنّيتُ في تلك اللحظة أن تنشقّ الأرض وتبتلعني، أن يعود الزمن فلا أقف أبدًا في هذا المحل ولا أحضر مجالس الذكر ولا ألتقي (خيري) ولا (عامر) ولا (رضا)، يعود بي الزمن فأركب

ميكروباص المقطّم لا القطّاميّة ولا ألتقيكَ يا (عزيز).. بدا لي كلّ شيء أقلّ وأهون من لحظة الذلّ التي شعرتُ بها أمام عينيّ (ولاء) المذهولتين اللتين تنتظران تفسيرًا.

صرخ (عبد الرحيم) بي كي أنتبه وهو يرمق العصير المراق بغضب، وفكّرتُ أنا أن أركض هاربًا ثمّ أُنكر لاحقًا أمام (ولاء) أنّني من رأته يُجهّز العصير.

فتحتُ فمي لأقول مرتبكًا:

أنا.. أنا.. أكتب رواية جديدة و.. أُحاول أن.. كي لا.. أُحاول أن أعيش.. أتقمّص الشخصيّة.. البطل يعمل في محل عصير.. و...

انتبهتْ لما أنا عليه فانتقل إليها ارتباكي، وقالت بوجه محمرّ:

لابدّ أنّها ستكون رواية رائعة!

واستأذنتْ وأسرعتْ منصرفة دون أن تنتظر العصير.

صرخ بي (عبد الرحيم) موبّخًا فلم أنتبه له.. وناداني الحاج (رضا) فذهبتُ إليه، ورأيتُ (حمادة) وقد خرج من المخزن ليرى ماذا هناك.

- يا ولدي.. إن كنتَ ترى أنّ هذه مهنة وضيعة تخجل منها، فلا مقام لكَ بيننا.. فلتأخذ حسابكَ ولا تأتِ إلينا مرّة أخرى.

عدتُ إلى البيت وقد نويتُ أن أنقطع عن الذهاب للزاوية وألّا أُقابل (عامر) مرّة أخرى.. لقد فشلتُ وانتهى الأمر.

فتحتُ "اللاب توب" مستعجلاً وبحثتُ وسط رسائلي حتّى وجدتُ رسالة (ولاء) القديمة لي، دخلتُ منها إلى صفحتها الشخصيّة لأرى إن كانت كتبت شيئًا عن موقف اليوم أم لا، فوجدتُ أنّ آخر تحديث في الصفحة كان بالأمس.. كانت قد وضعت وصلة لأغنيّة "يا من هواكَ".. فتحتُ الأغنيّة وجلستُ أستمع إلى كلماتها شاعرًا بالعجز..

يا من هواه أعزّه وأذلني

كيف السبيل إلى وصالكَ، دلّني!

أنتَ الذي حلّفتني وحلفتَ لي

وحلفتَ أنكَ لا تخون، فخنتَني

وحلفتَ أنّكَ لا تميل مع الهوى

أين اليمين وأين ما عاهدتَني؟!

تركتَني حيران صبًّا هائمًا

أرعى النجوم وأنتَ في عيشٍ هني

لأقعدنّ على الطريق وأشتكي

وأقول مظلومٌ وأنتَ ظلمتني

ولأدعونّ عليكَ في غسق الدجى

يبليكَ ربي مثلما أبليتني

وبدون تفكير فتحتُ رسالة جديدة مع (رِهام)، وكتبتُ لها:

"أعرف يا (رِهام) ألّا فرصة لي معكِ، أنتِ مشاعركِ مع شخص آخر، هو لسوء حظّي واحد من أعزّ أصدقائي، لكنّني أخشى أن أموت فلا تعرفين حجم ما حملتُه لكِ في قلبي يومًا.. حتّى (سلمى) ابنة عمّي لم أشعر تجاهها بمثل تلك المشاعر الفيّاضة.. مجرّد كتابتي لاسمكِ الآن يجعل أنفاسي تتسارع.. لم يكن الأمر هكذا في البداية، كان كلّ هدفي أن أُخضعكِ، أن أنتصر عليكِ وأُريكِ أنّني لستُ الشخص الذي يتمّ تجاهله، لكنّني كنتُ كلّما اقتربتُ أكثر أنجذب لفلككِ أكثر، وأظلّ أدور حولكِ بلا حول ولا قوّة.. صدّقيني حاولتُ أن أنتزعكِ من نفسي، لكن كيف أفعل وأنا أرى طيفكِ في كلّ ما حولي، منذ عرفتُكِ وأغلب وقتي أقضيه إمّا في الكتابة إليكِ أو التفكير فيكِ.. لماذا نقع في عشق أشياء لن يمكننا الوصول إليها؟ أنتِ و(سلمى) منذ البداية كانت بذور الفشل بيني وبينكما أكبر من النجاح، في حين أنّ (إيناس) التي حصلتُ عليها دون جهد لم يتحرّك قلبي لها ولو لخفقة.

لا أدري لماذا أكتب لكِ هذا الكلام الآن، أنا لا أُريد منكِ شيئًا، لن أُطالبكِ بأن تبادليني نفس المشاعر أو أن تُعيدي التفكير في علاقتكِ بـ(كريم).. ربما لأنّني أعرف أنّني لو فعلتُ فقد تتعرض علاقتنا للانهيار، وأنا يمكنني

تحمّل أيّ شيء إلا أن تختفي من حياتي كما حدث بعد واقعة المعرض.. قد أُجنّ هذه المرّة.

ربما أكتب لكِ لأتجاوز شيئًا من ألمي.. ذلك الألم الذي أشعر به كلّما فكّرتُ في أنكِ لا تشعرين بي.. لفترة طويلة هيّأ لي غروري أنكِ تبادلينني الإعجاب، ثمّ عرفتُ منذ معرض الكتاب أنّني لستُ سوى صديق مقرّب.. نحن الرجال دائمًا ما نخطئ فهم إشارات الصداقة المرسلة من النساء، ونخلط بينها وبين الإعجاب والحبّ.. لكنّني الآن أُدرك حجمي الحقيقي لديكِ، وأقصى ما أطمح إليه أن تعرفي فقط، تعرفي أنّني حملتُ لكِ مشاعر لم يحملها لكِ بشر.. لا أُريد منكِ سوى أن تعرفي، لا أريدكِ حتّى أن تردّي على هذه الرسالة، لستُ بحاجة سوى لرؤية إشارة "الفيس بوك" إلى أنكِ قرأتِها.. وأعرف أنكِ من الكرم بحيث لن تتغيّري تجاهي بعد أن تعرفي، ستظلّين تعاملينني كصديق مقرّب موثوق تأتمنينه على أسراركِ ودواخل نفسكِ.. هذا ظنّي فيكِ، وأعرف أنّني على صواب"

ووقفتُ بمؤشّر "الماوس" متردّدًا أمام زرّ الإرسال.. سيتغيّر كلّ شيء بضغطة الزر تلك.. قالت لي نفسي: وماذا ستخسر أكثر؟!

ضغطتُ الزرّ شاعرًا بنار تتّقد في صدري، أنفاسي ساخنة تحرق فتحتيّ أنفي وأعلى شفتي.. أغلقتُ "اللاب توب" ونهضتُ إلى الحمّام، أبعدتُ (أدهم) الذي وقف في طريقي يقول متوسّلاً:

نلعب استغمّاية؟

- فيما بعد يا حبيبي.

أخذتُ دُشًّا باردًا لعلّ ناري تخمد ولو قليلاً.. وحينما خرجتُ أسرعتُ إلى "اللاب توب" لأرى إن كانت (رِهام) قد رأت رسالتي أم لا.. فتحتُه فإذا برسالة تُخبرني أنّ نظام التشغيل يقوم بتحميل تحديثات جديدة وعليّ الانتظار قليلاً.. ظللتُ منتظرًا لدقيقة دون أن يتجاوز مؤشّر التحميل نسبة 3%.. شعرتُ بالحنق، مازال أمامي الكثير حتّى ينفتح الجهاز اللعين!

تنفّستُ بغيظ، لا أستطيع الانتظار.. لمحتُ "اللاب توب" الخاص بـ(إيناس) مفتوحًا وموضوعًا فوق الأريكة على بعد خطوات منّي.. أسرعتُ إليه وفتحتُ صفحتي على "الفيس بوك" ودخلتُ إلى رسالة (رِهام)، فوجدتُها لم ترها بعد.. لا يمكنني الانتظار أكثر، فكّرتُ في الاتّصال بها لأطلب منها أن تدخل "الفيس بوك" وترى رسالتي الهامّة.. منذ أعطتني رقمها وأنا لا أستخدمه.. أخشى أن أسمع صوتها فأفقد السيطرة على نفسي وأتّصل بها كلّ يوم بسبب أو بدون، فتملّ منّي أو تتضايق.

فجأة سمعتُ صراخ (أدهم) فانتطرتُ وأسرعتُ إليه فالتقيتُ بـ(إيناس) وهي تخرج من المطبخ مسرعة لترى ماذا هناك.

كان صغيري قد سقط وهو يقفز فوق سريره، فحملتُه بين يديّ وهمستُ له:

ألم نتّفق ألّا تتشاقى؟

قال لاويًا شفتيه:

أنتَ لا تريد اللعب معي!

قلتُ له بحنان:

ما رأيكَ أن أحكي لكَ قصّة وتنام؟

رحّب كثيرًا بالقصّة شرط أن يكون هو بطلها.. رمقتنا (إيناس) بحبّ وقالت:

أنتما نور حياتي.. فليحفظكما الله لي.

طيّبة هي (إيناس)، طيبتها وصفاء نفسها يأسراني.. لا أدري لماذا كنتُ أُعاملها بغلظة فيما سبق.. هي لا تستحقّ سوى كلّ خير.. لسوء حظّها كانت هناك (سلمى) والآن (رِهام)، لولا ذلك لكانت مَلَكَتْ قلبي.

استلقيتُ مع (أدهم) فوق سريره وأخذتُ أحكي له قصّة ألّفتها كيفما اتّفق.. (أدهم) الشجاع الذي كان ذاهبًا إلى مدرسته فخرج عليه خمسة لصوص يريدون خطفه، لكنّه ضربهم ولقّنهم درسًا كي لا يضايقوا الأطفال مرّة أخرى.

ظللتُ أحكي له حتّى نام، فتركتُه وتسلّلتُ خارجًا من غرفته إلى الصالة متمنّيًا أن يكون نظام التشغيل قد انتهى من تحديثاته لأرى إن كانت (رِهام) قد رأت رسالتي أم لا.

لكنّني تسمّرتُ في مكاني حينما وجدتُ (إيناس) جالسة أمام جهازها وظهرها لي.. رغم بُعد الشاشة إلا أنّني استطعتُ أن أُميّز عليها صفحة رسالة (رِهام) التي نسيتُ إغلاقها.. وحينما أحسّت بوجودي التفتت إليّ ببطء وواجهتني بعينين حمراوين والدموع تُغرق وجهها، وسألتني وهي تنشج بالبكاء:

من.. من.. من (رِهام) هذه التي.. التي تُحبّها أكثر منّي؟!

حينما تبكي المرأة ينهار كلّ شيء يا (عزيز)، خصوصًا إن كانت دموعها عزيزة.. لطالما ضايقتُ (إيناس) وأغلظتُ لها القول لكنّها لم تبكِ من قبل.. لذلك حينما رأيتُ دموعها في تلك الليلة عرفتُ حجم الجرم الذي ارتكبتُه، وأدرك جزء بداخلي أنّ حياتي قد انهارت.

لكنّ ما أثار خوفي أنّها رغم خطّي الدموع اللذين ينسالان من عينيها؛ كانت ترمقني بثبات.. نظرة الغضب المشتعلة في عينيها اخترقتني.. وظلّت ترمقني وكأنّها تنتظر إجابةً على سؤالها، ثمّ لم تلبث أن سألتني بصوتٍ خرج مرتعشًا رغم علائم الثبات الجامدة على وجهها:

لماذا؟!

ولمّا لم أُجبها تابعت:

أنا لم.. أنا لم...

ثمّ فقدت فجأة التحكّم في نفسها فأجهشت في البكاء وسقطت على ركبتيها دافنة وجهها بين كفّيها وهي تصرخ:

أنا لم أؤذكَ يومًا!

أسرعتُ وجثوتُ على الأرض أمامها وأحطّتُها بذراعيّ وأنا أُغمغم:

Oreilkan.com

أنتِ لا تفهمين.. أنا لم أقصد أن...

ولم أجد ما أُكمل به جملتي، ماذا كان بإمكاني أن أقول يا (عزيز)؟ لم أقصد ماذا؟ لم أقصد أن أعتبرها كائنًا فاقد الأهليّة؟ لم أقصد أن أُعاملها بضيق ونفاد صبر طوال الوقت؟ لم أقصد أن أكتب لـ(رِهام) لأُصارحها أنّ (إيناس) هي المرأة الوحيدة في حياتي التي فُرضت عليّ فرضًا ولم يخفق لها قلبي ولو خفقة؟

كيف أجرؤ على انتقاد زوج (رِهام) وأنا لا أقلّ عنه؟ عذّبتُ هذه المسكينة معي دون أن ترتكب ذنبًا، حاسبتُها على أشياء لا يد لها فيها، أخذتُها بجريرة آخرين لم يشعروا بي ولم أكن يومًا في حسبانهم، بينما هي.. الشخص الوحيد الذي تحمّلني وصبر عليّ وحاول إرضائي بكلّ طريقة ممكنة، المرأة الوحيدة التي أحبّتني بلا مقابل، بلا حدود، وبلا نتيجة؛ ينتهي بها الأمر لتكتشف أمام شاشة "اللاب توب" كم كنتُ دنيئًا معها!

أخيرًا استجمعتُ صوتي لأقول لها:

أنا لم أقصد جرحكِ يا (إيناس)، لم أكن أعلم أنكِ سترين ذلك الـ...

رفعت إليّ عينين حمراوين مبللتين وقالت بصوتٍ مبحوح:

كنتُ أُصدّق دومًا أنّني حبيبتكَ الأولى والأخيرة، حلم حياتكَ وفتاة أحلامكَ، لكنّكَ لم...

قاطعتُها برجاء:

فلنعطِ أنفسنا فرصة جديدة! صدّقيني أنا بدأتُ أتغيّر!

- ... لم تكن الحلم الذي صدّقتُه.. كنتُ طوال الوقت أظنّ أنّ ضغط العمل والكتابة يجعلكَ حادًّا غاضبًا، وأنّكَ يومًا ما ستُعاملني كما حلمتُ دومًا، بحنان ورقّة.. لكنّكَ لم تُحبّني يومًا.. أنا لا شيء في حياتكَ!

لم أدر ماذا أقول، وكانت ترمقني منتظرة أن أنطق بأيّ شيء، فعدتُ أُغمغم بإحباط:

أنا تغيّرتُ!

رمقتني بغضب ثمّ نهضت وأسرعت إلى غرفتنا، تبعتُها فوجدتُها بدأت تُخرج ثيابها من خزانة الملابس وتُلقيها فوق السرير، فحاولتُ إيقافها وأنا أهتف بها:

انتظري يا (إيناس).. الأمر ليس كما تظنّين.. هذه الفتاة لا يوجد بيني وبينها أيّ شيء، أُقسم لكِ إنّنا مجرّد أصدقاء فقط!

رمقتني بغيظ وقالت بقسوة:

أنتَ تُحبّها، الخيانة ليست دائمًا بالأفعال.. خيانة القلب أقسى من خيانة الجسد!

وأخرجت حقيبة أخذت تضع فيها ملابسها وملابس (أدهم)، فأمسكتُ بيدها وأنا أقول راجيًا:

اسمعيني فقط.. أعلم أنّي أخطأتُ لكنّه خطأ يُمكن إصلاحه.. امنحيني فرصة أولى وأخيرة، سامحيني وسأُقدّر لكِ ذلك ما بقي لي من عمر!

فدفعتني بعيدًا عنها بغضب.. شعرتُ بالعجز، أهذه (إيناس) التي كانت تتبعني في كلّ مكان كالكلب الوفي؟ اجتاحني الغضب فهتفتُ بها:

لو غادرتِ البيت لن أسمح لكِ بالعودة إليه!

لكنّها لم تردّ عليّ واستمرّت في ترتيب الثياب في حقيبة الملابس، وعندما انتهت أسرعت إلى سرير (أدهم) فأيقظته وساعدته على ارتداء ملابسه.

- سأذهب إلى أمّي.. لا أُطيق البقاء في البيت معكَ!

قلتُ لها بعصبيّة:

طيب ما رأيكِ أن أغادر أنا البيت وأذهب للمبيت عند أحد أصدقائي؟ لا تُغادري البيت من فضلكِ!

لم تردّ عليّ واتّجهت لباب الشقّة في حزم، وهي تُمسك (أدهم) بيد والحقيبة الكبيرة في اليد الأخرى.

حاولتُ أن أحمل الحقيبة عنها لكنّها ظنّتني أُحاول منعها من الرحيل، فدفعتني بها لأبتعد عن طريقها.

- سأوصلكما بالسيّارة، لن أترككما ترحلان في هذا الوقت المتأخّر وحدكما.

أصرّ (أدهم) أن يجلس في المقعد المجاور لي، كعادته مؤخّرًا، بينما جلست (إيناس) صامتة في المقعد الخلفي بعد أن جفّت دموعها وإن لم يزل الاحمرار في عينيها.. قلتُ مخاطبًا (أدهم) لأكسر الصمت:

اربط حزام الأمان يا حبيبي كما يفعل بابا.

لكنّه أبى أن يحيط نفسه بأيّ قيد، فقلتُ لأُغريه:

هكذا يفعل روّاد الفضاء.. أنتَ الآن في سفينة فضاء وسنحيطكَ بحزام الأمان كي لا تسقط في الهواء!

تحمّس للأمر ورحّب بأن أُساعده في إحاطته بحزام الأمان، بينما أتاني صوت (إيناس) الساخر من الخلف:

لا تُجيد شيئًا مثل الخداع!

obeikan.com

لم تُخبر (إيناس) والديها بأيّ شيء عن المشكلة التي بيننا، فقط أخبرتهما أنّها لم تعد تُطيق الحياة معي، واتّصل بي والدها وعنّفني على إغضابي لها.

فوجئتُ بنفسي أشعر بالبيت موحشًا و(إيناس) و(أدهم) ليسا فيه، لم ألمس بداخلي هذا الشعور من قبل، بالعكس، حينما كانا يغيبان عند خالتي أو في المصيف كنتُ أنسى وجودهما، ربما أتذكّر (أدهم) وأفتقده، لكنّ (إيناس) كانت تختفي من حياتي حينما لا تكون أمامي، أنسى أنّني متزوج.. لطالما اعتبرتُ نفسي مجرّد شخص مكتوب في بطاقته أنّه متزوج، بينما على أرض الواقع لم أكن أشعر بـ(إيناس) سوى كرفيقة سكن أو مدبّرة منزل ليس أكثر.. لكن الآن هناك أسى في صدري لأنّني جرحتُها، تغيّرها بعد أن قرأت رسالة (رِهام) أفزعني، شعرتُ أنّني فقدتُ شيئًا عزيزًا لا يمكنني الاستغناء عنه..

قلتُ لزوج خالتي إنّني مستعدّ لفعل أيّ شيء لترضية (إيناس)، وظللنا ثلاثتنا، والداها وأنا، نأمل أن تهدأ بعد فترة وتنصلح الأحوال، لكنّها ظلّت مصرّة على الانفصال.. حاولتُ محادثتها لكنّها كانت ترفض وتطلب من والدتها إخباري بأنّها نائمة أو غير موجودة، وفي مرّة أمسكت بسمّاعة الهاتف وقالت لي بشكل مباشر إنّها لا ترغب في سماع صوتي.

- لو سمعتُ صوتكَ سأبكي، وأنا أقسمتُ ألّا أبكي بسببكَ ثانية!

فلم أجد أمامي سوى أن أُطالب برؤية (أدهم) على الأقل، فوافق زوج خالتي، وأصبح بإمكاني زيارتهم مرّة أو مرّتين كلّ أسبوع لآخذ (أدهم) معي ونقضي اليوم سويًّا.

أما (رِهام) فلم ترَ رسالتي سوى بعد بضعة أيام، ولم تردّ عليها.. كنتُ أنتظر أيّ ردّ فعل منها، رغم طلبي منها ألّا تفعل، لكنّها استجابت لرغبتي ولم تردّ.

سألني (أدهم) ونحن سويًّا في السيّارة:

متى سنعود إلى البيت يا بابا؟ أريد اللعب بألعابي!

رمقتُه بتأثّر وطلبتُ منه راجيًا:

قل ذلك لماما يا حبيبي، أخبرها أنّكَ اشتقتَ إليّ وإلى البيت!

- أخبرتُها فقالت إنّها ستُحضر لي ألعابًا جديدة.

في تلك الفترة يا (عزيز)، وسط كلّ هذا الحطام الذي أصبحت عليه حياتي؛ بدأت أفاتار تنفيذ عملية (ميّ شاكر)!

كنتُ في طريقي ذات صباح إلى الدار، حينما اتّصلت بي (مها) وأنا في السيّارة وأتاني صوتها المتوتّر يتوسّلني:

أسرع يا أستاذ (نادر).. الأستاذ (كمال) يكاد يُجنّ في انتظاركَ!

- لكنّ الساعة لم تصل إلى العاشرة بعد! أنا لم أتأخّر!

openkan.com

- الأستاذ (كمال) والأستاذ (إبراهيم) ومعهما الأستاذ (سمير) مدير الشؤون القانونيّة في اجتماع مغلق مع الأستاذة (ميّ شاكر)، وهناك أوامر مشدّدة بأن تدخل إليهم ما إن تصل!

سألتُها:

(ميّ شاكر) من؟

- صاحبة رواية "الشوق للبهجة".. وافقنا على نشرها أيام المعرض وصدرت منذ عدّة أيام.

كانت (مها) مذعورة، وهي لا تُصاب بالذعر إلا حينما تكون هناك مصيبة في الأفق.. خمّنتُ أنّ لأفاتار علاقة بالأمر وتوقّعتُ مصيبة.

كان (كمال) يجلس خلف مكتبه محمرّ الوجه، وأمامه ثلاثة مقاعد جلس عليها (إبراهيم) و(سمير) و(ميّ).. بدت (ميّ) وكأنّها كانت تبكي، فعيناها الحمراوان لفتت انتباهي ما إن دخلتُ.. تذكّرتُها على الفور من ملامحها الأوروبيّة والجيبة التي انحسرت عن فخذيها.

كنتُ أعرف أنّ هناك اتّهامًا قادمًا في الطريق، وأنّني سأرى الشماتة في عينيّ (إبراهيم)، لكنّني أخذتُ قرارًا يا (عزيز) أن أقلب المائدة فوق رأس أفاتار وكلّ أعضائها.

بادرني (كمال) محاولاً السيطرة على اضطرابه الظاهر:

أستاذ (نادر)، كيف ولماذا وافقت على نشر هذه الرواية؟

ورفع أمام عينيّ كتابًا يحمل عنوان "الشوق للبهجة" واسم (ميّ شاكر) أسفله.. أجبتُه بثبات:

فريقي قدّم لي تقريرًا جيّدًا بخصوص الرواية ووجدنا أنّها تصلح للنشر معنا؛ فوافقتُ عليها.ذ

ناولني جريدة مفتوحة على صفحة وهناك جزء منها عليه دائرة كبيرة بالقلم الأحمر:

هذا مقال للدكتور رضوان المُنجي الناقد المعروف، يتساءل فيه عن كيف تنشر دار في حجم أماندا رواية رديئة وركيكة مثل رواية "الشوق للهبجة"!

تناولتُ الجريدة منه وقد بدأت الدنيا تدور بي، حاولتُ التّظاهر بقراءة المقال، لكنّني كنتُ أُحاول في عقلي البحث عن أيّ شيء أقوله.

- ربما كنتُ منشغلاً في شيء ما وقتها فلم أقرأ العمل بنفسي، لكنّ الشباب معي قرأوه كما علّمتُهم وقدّموا تقريرًا جيّدًا عنه.

رفع (كمال) عدّة صفحات من على مكتبه وهو يقول لي ببرود:

هذا هو التقرير الذي أرسلوه لكَ، ويقول بوضوح إنّ الرواية لا تصلح للنشر، وهو يختلف عن التقرير الذي رفعتَه لي وتقول فيه إنّ الرواية ممتازة ويجب أن ننشرها!

تأمّلتُ الأوراق بعدم تصديق، وهتفتُ:

obeikan.com

كذب! هذا ليس بالتأكيد التقرير الذي رُفع إليّ! أين (مها)؟!

وهممتُ أن أغادر الغرفة لأُحضرها، لكنّ (كمال) هتف بي بصرامة:

انتظر لتسمع ما لدى الآنسة (ميّ) أوّلاً!

والتفتَ إليها وسألها بضيق:

هلّا أخبرتنا عمّا طلبه منكِ الأستاذ (نادر)؟

بدأت دموعها تنسال من عينيها، وأخرجتْ منديلاً من حقيبتها لتمسح به أنفها وهي تقول:

استدعاني ليُناقشني في الرواية، وأخبرني أنّها رديئة ولا تصلح للنشر، لكنّه مستعد أن ينشرها لو أنّني.. لو أنّني...

وأجهشت في البكاء وهي تُكمل:

لو أنّني نمتُ معه!

صرختُ غير مصدّق:

ماذا تقولين أيّتها الحقيرة؟!

تجاهلتني تمامًا وقالت لـ(كمال):

أنتم دار كبيرة والنشر معكم فرصة لا تُعوّض، وأنا كنتُ أودّ تحقيق حلمي بالنشر معكم.. لذلك ضعفتُ ووافقتُ!

وأخذتْ تُنهنه بالبكاء، بينما صرختُ أنا وقد فقدتُ أعصابي:

obeikan.com

أنتِ كاذبة! أنا لم أركِ سوى مرّة واحدة حينما أتيتِ لتوقيع العقد.. أنا مهمل ولم أقرأ روايتكِ، حاسبوني على هذا، لكنّني لم أُقِم معكِ علاقة لأنشر لكِ، أين (مها)، هي التي تعرف كلّ شيء!

تكلّم الأستاذ (سمير) لأوّل مرّة فقال:

ما حدث فضيحة كبيرة قد تضرّ بسمعة الدار إن عرف أحد.. لذلك سنقوم بحلّ الأمر وديًا.. الآنسة (ميّ) قبلت بأن نسحب نسخ روايتها من السوق، وستُعيد كتابتها بمساعدتنا لتخرج بصورة أفضل، ثمّ نُعيد نشرها مقابل أن تنسى ما حدث ولا تُخبر به أحدًا.. أما أنتَ يا أستاذ (نادر)...

قاطعه (كمال) موجّهًا حديثه لي:

بماذا أخبرتُكَ من قبل عن سمعة الدار وعدم رغبتي في الدخول في أيّ مشاكل؟!

أخذتُ أهتف بعصبيّة:

كلّ هذه مؤامرة يا أستاذ (كمال)!

وأشرتُ لـ(إبراهيم) وأنا أُكمل:

جماعة أفاتار هي المسؤولة عن كلّ هذا.. (ميّ) هذه عضوة في الجماعة أوكلوا لها مهمّة الإيقاع بي بمساعدة (إبراهيم).. (إبراهيم) عضو في الجماعة، وأنا كنتُ كذلك حتّى فترة قريبة.. إنّهم يريدون أن...

ضرب سطح مكتبه بيده وهو يهتف:

كفاكَ هراءً يا (نادر)! إلى متى سأتحمّلكَ أنتَ وسخافاتكَ؟ كنتُ أظنّكَ شابًا موهوبًا متحمّسًا تقع من آن لآخر في بعض الأخطاء التي يمكن تنبيهكَ إليها كي لا تُكرّرها.. لكن أن تُراود إحدى الكاتبات عن نفسها لتنشر لها كتابًا دون المستوى الذي تقبل به الدار، فهذه درجة من الانحطاط لن أقبل بها أبدًا! أنتَ موقوف عن العمل ومُحوّل للتحقيق!

شعرتُ بالدماء تغلي في رأسي، فمددتُ يدًا مرتعشة وانتزعتُ ورقة من على مكتب (كمال) وتناولتُ قلمًا وجدتُه في طريقي، أخذتُ أكتب بيدٍ مرتعشة مستندًا على المكتب أمام نظراتهم المتسائلة، ثم دفعتُ بالورقة أمام (كمال) وأنا أهتف بعصبيّة:

تفضّل، تُريد أن تُصدّقهم وتُكذّبني؟ إذن إليكَ استقالتي! لن أعمل معكم بعد اليوم!

صرخ بي بنفس العصبيّة:

تظنّ أنّكَ تحرمنا من بركة وجودكَ معنا؟ أنتَ يا أستاذ لم يعد لكَ مكان بيننا، لا أُريد أن أراكَ أو أسمع عنكَ بعد اليوم.. حتّى رواياتكَ اللتان لدينا، ما إن تنتهي الطبعة الحالية منهما سنفسخ تعاقدهما، فلتذهب بهما لأيّ دار نشر أخرى، لا نريد أيّ شيء له صلة بكَ حتّى لو كنّا سنكسب من ورائه الملايين!

أسرعتُ مغادرًا الدار، ووقفتُ وهلة أمام المصعد ألتقط أنفاسي.. عبثْتُ في "موبايلي" باحثًا عن رقم (إيناس)، ستعود اليوم إلى البيت أو فلتذهب

إلى الجحيم هي الأخرى.. فوجئتُ بـ(إبراهيم) يُسرع خلفي، فتمالكتُ نفسي وأنا أضغط بضعة أزرار في "الموبايل" قبل أن أضعه في جيبي.

- أنتَ من فعلتَ بنفسكَ كلّ هذا يا (نادر)، لا تقل إنّني لم أُحذّركَ.. ألم أُخبركَ أنّ أفاتار قادرة على قلب الأمور على رأسكَ إن أرادت؟ كانت خطّتنا أن تُحاول (ميّ) إغواءكَ لتنشر روايتها رغم ركاكتها، لكنّنا فوجئنا بأنكَ لم تعُد تقرأ ما يُقدّم لكَ مثل السابق، وصار كلّ ما علينا فعله أن نستميل (عاطف) مساعدكَ ليكتب تقريرًا يمدح في الرواية، فإذا بكِ تعتمد نشرها!

قلتُ له دون أن أنظر إليه وأنا أضغط زرّ المصعد بعصبيّة:

ماذا تريد الآن يا (إبراهيم)؟!

- أُريد أن أُخبركَ أنّ بإمكاننا إعادة كلّ شيء كما كان، فقط لو عدتَ إلينا!

التفتُّ إليه وأنا أقول جاذًّا على أسناني:

خذها منّي كلمة يا (إبراهيم).. سأدمّركم ذات يوم.. أفاتار ستنتهي على يديّ!

ثم أسرعتُ أهبط السلالم متجاهلاً المصعد وأنا أتحسّس "الموبايل" في جيبي.

Obeikan.com

حينما ترتفع في الهواء يا (عزيز) تتغيّر أبعاد المرئيات أمام عينيكَ، ترى الأرض وكأنّها تميل وتشعر أنّ العالم تغيّر لوهلة، بينما قلبكَ ينسحب لأسفل بفعل القصور الذاتي، لأن أحدًا لم يخبره أنّكَ تجاوزتَ الخط المستقيم الذي كنتَ تسير فيه بسرعة 80 كيلومترًا في الساعة لترتفع لأعلى.

هل هذا ما شعر به (أدهم) وهو يركب معي العجلة الدوّارة الضخمة في ملاهي "دريم بارك"؟ أو حينما ركبنا سويًّا قطار الموت الذي أخذ ينحرف بنا انحرافات حادّة تُشعركَ أنّكَ ستصطدم بشيء ما في أيّ لحظة؟

كان سعيدًا يا (عزيز)، مازالت ضحكاته الرنّانة ترنّ في أذني، ابتسامته المبتهجة، ونظرته القلقة حينما يتذكّر أنّ أمّه ليست معنا، فيجذبني من بنطلوني ويسألني:

ماما ستأتي معنا المرّة القادمة؟

فأُجيبه بابتسامة باهتة:

بالتأكيد، احكِ لها كيف استمتعنا سويًّا اليوم، واطلب منها أن تعود للبيت لنأتي معًا المرّة القادمة، ثلاثتنا.

كان الوقت قرب المغرب حينما بدأنا العودة عبر الطريق الدائري، ضوء الشمس أصبح باهتًا وفقد حدّته وقوّته التي كان يتفاخر بها طوال النهار.. هتفتُ بـ(أدهم) أن يربط حزام الأمان كالعادة، لكنّه أجابني بضيق:

لا أريد!

هتفتُ بغضب:

لو توقّفتُ فجأة سيصطدم رأسكَ بالزجاج، هل تُريد أن يصطدم رأسكَ بالزجاج؟!

أجابني ضاحكًا:

الزجاج جميل ولن يؤذيني!

وقبل أن أردّ عليه رنّ "موبايلي" بنغمة قصيرة تدلّ على تلقي رسالة جديدة، رمقتُ شاشته فوجدتُ إشارة إلى وجود رسالة جديدة في "الفيس بوك" مع صورة "أكاونت" (رِهام)! رسالة من (رِهام) أخيرًا يا (عزيز)!

فتحتُ الرسالة بلهفة وأخذتُ أقرأها بعين وعيني الأخرى على الطريق أمامي.

"رسالتكَ الأخيرة صدمتني يا (نادر)، أخذتُ عدّة أيام كي أستطيع الردّ عليها..

لا يمكنني ألّا أردّ على كلامكَ.. هل تتوقّع أن يُرسل لي أعزّ أصدقائي يُخبرني أنّه يُحبّني ولا أردّ؟

obeikan.com

لا أدري بماذا أُجيبكَ، أنتَ كسرتَ إطار العلاقة الجميلة التي كانت تجمع بيننا.. ليتكَ استمعتَ لأغنيّة "كن صديقي" لماجدة الرومي قبل أن تُرسل لي برسالتكَ تلك.. مبدئيًا أنا أُقدّر مشاعركَ، لكن ضع نفسكَ مكاني.. هل ستشعر بالراحة في التعامل مع صديق اتّضح أنّه يراكَ بشكل مختلف عن صورة الصديق التي ترسمها له في ذهنكَ؟ الأمور لن تعود بيننا أبدًا كما كانت يا (نادر)، حتّى ما مرّ بنا، دفاعكَ الدائم عنّي واهتمامكَ بي وتعاطفكَ معي، كلّ هذه أشياء أصبحتُ أراها الآن بصورة مختلفة.. كنتُ قبل رسالتكَ أراكَ صديقًا استثنائيًا في تفهّمه وتعاطفه، أمّا الآن فكلّ شيء يبدو مفهومًا لي إن كان صادرًا عن قلب مُحبّ.. أنا لستُ بحاجة لقلب مُحبّ يا (نادر)، بل لقلب صديق.. ويكفيني التعقيد الذي أصبحت عليه علاقتي بـ(كريم)، لستُ مستعدّة لفتح مزيد من الجبهات، خصوصًا معكَ..

فكّرتُ طويلاً قبل أن أقول لكَ هذه الكلمات.. لا يُمكنني أن أُصدّق أنّكَ ستكتفي بإرسال رسالتكَ تلك وينتهي الأمر، ربما تعتقد هذا الآن.. لكنّكَ بعد قليل ستطمح في المزيد، سترغب في أن أعترف لكَ بالمثل إن كنتُ أحمل لكَ أيّ قدرٍ من المشاعر، لن ترضى بلعب دور الصديق، مع الوقت سترغب أن أُعاملكَ كحبيب، وسيأتي يوم تُخيّرني فيه بينكَ وبين (كريم)، فتزيد همومي.

أنا أعرفكَ جيّدًا يا (نادر)، وأعرف أن كلّ هذا قادم.. أنتَ شخص متزوّج ولن أكون أنا من تُغيّر زوجًا تجاه زوجته، لذلك لن يمكنني الاستمرار أكثر في هذه الصداقة.. أرجوكَ سامحني، سأرحل ولن تجدني مرّة أخرى"

غادرت الدماء جسدي وشعرتُ أنّ أحدًا قام باعتصار روحي.. حاولتُ أن أردّ على رسالتها لكنّني اكتشفتُ أنّها قد وضعتني "بلوك".

أصابني الجنون، حاولتُ الاتّصال بها فوجدتُ "موبايلها" مغلقًا.

- بابا، ماذا حدث؟!

وبينما أضع "الموبايل" على أذني وأضغط زرّ إعادة الاتّصال، انتبهتُ إلى أنّ السيّارة مالت بشكل حاد وكادت تصطدم بإحدى السيّارات، فحوّلتُ عجلة القيادة بسرعة إلى الجهة الأخرى فكادت تصطدم بسيّارة ثانية، وسط أبواق التنبيه التي انهالت عليّ من كلّ السيّارات حولي، تشتت انتباهي أكثر وفي ثانية واحدة فقدتُ التحكّم في السيّارة فاصطدمت في طريقها بسيّارة أخرى وقفزت في الهواء قبل أن تسقط على جنبها وهي مازالت تندفع إلى الأمام.

المصائب لا تأتي فُرادى أبدًا يا (عزيز)، أو يمكنكَ القول إنّ كلّ مصيبة تجعلكَ أرضًا خصبة لاستقبال المصيبة التي تليها. وأكبر مصيبة أن تعيش حين ينبغي عليكَ أن تموت.

لم أُصب سوى ببعض الكدمات، نفعني حزام الأمان الذي لم يضعه (أدهم).. (أدهم) الذي لم ينفعه أنّني حاولتُ احتضانه لأحميه، ولا نفعه كيس الهواء الذي اندفع في وجهه.. اصطدمت رأسه بالباب بقوة حين حطّت السيّارة على الأرض، ومن هنا جاء نزيف المخ الذي أصابه.

لا أذكر كثيرًا ممّا حدث يا (عزيز).. السيّارة تحطّمت وما عادت تصلح للاستخدام.. "اللاب توب" تهشّم، كلّ ما كان في حقيبتي أصبح أثرًا بعد عين.. ولم أخرج من السيّارة سوى "بالموبايل" الذي تشنّجت يدي عليه أثناء الارتطام.. أخرجنا الأهالي وجاءوا لنا بالإسعاف، لم أكن أستطيع النطق، كنتُ أرمق (أدهم) فاقد الوعي والدماء النازفة من رأسه وأنا أُردّد بلا انقطاع "لا، لا، لا، لا، لا"، وأُحاول أن آخذه من بين يديّ الشاب الذي حمله وحاول إسعافه.

في المستشفى وقفتُ أمام زجاج غرفة العناية المركّزة أُراقب صغيري الراقد بلا حول ولا قوة والأنابيب والخراطيم تُحيط به، بينما رأسه محاطة بالضمّادات.. أنا السبب يا ولدي، أنا السبب.. ألف لعنة على (رِهام)، ألف لعنة على كلّ شيء.. بل ألف ألف لعنة عليّ أنا!

جاءت (إيناس) راكضة من أقصى الطرقة وهي تبكي، هجمتْ على زجاج الغرفة وأخذت ترمق (أدهم) بجزع وكأنّها ستُحطّم الزجاج لتدخل إليه.. حاولتُ أن أمدّ يدي إلى كتفها لأُهدّئها، فالتفتت إليّ فجأة ثمّ انقضّت عليّ وأخذت تضرب كلّ ما تطاله قبضتها من جسدي وهي تصرخ:

أنتَ السبب يا ابن الكلاب! أنتَ السبب!

استسلمتُ تمامًا لقبضتها وأنا أبكي بصمت، ثمّ جذبتُها إليّ واحتضنتُها وبكيتُ على كتفها، لكنّها أزاحتني بعنف وأسرعتْ مبتعدة وهي تهتف بهستيريّة:

أين الدكتور؟ هاتوا لي الدكتور!

في تلك اللحظة يا (عزيز) وقع ما شاهدتُه طويلاً في كوابيسي حينما كنتُ أُشاهد أبي وهو يحتضر.. أخبرتُكَ قبلاً أنّني لم أعد أُشاهد هالات النّاس إلا لو أمعنتُ النظر، لكنّني في تلك اللحظة بينما أرمق (إيناس) كالتائه وأنقل نظري إلى جسد (أدهم) المسجى وسط آلات غرفة العناية المركّزة: فوجئتُ بهالته واضحة أمامي، كانت بنّية اللون مجعّدة: ثمّ بدأت أمام عينيّ المذعورتين في الخفوت.. كانت تزول بشكل تدريجي، تنطفئ، هالة ابني كانت تنطفئ يا (عزيز)!

صرختُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة، خررتُ على ركبتيّ، أجهشتُ في البكاء وأخذتُ أنشج، مرّ بخاطري أنّ أحدًا قد يراني لكنّني لم أبالِ، فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. أغرقت الدموع وجهي، لم أبكِ هكذا منذ كنتُ

صغيرًا، منذ مات أبي.. حاولتُ أن أغمغم بأيّ شيء لكنّني لم أجد ما أقوله، فأخذتُ أُتمتم بشكلٍ محموم:

أنتَ تعرف ما أريد، أنتَ تعرف ما أريد.. سامحني، أرجوكَ سامحني.. أنا.. أنتَ تعرف ما أريد.. أرجوكَ سامحني، أنا مسكين وأنتَ تعرف ذلك، سامحني لأنّني ظننتُ نفسي إلهًا.. أنا لا أستطيع شيئًا لابني، صدّقني هو لا يستحقّ ذلك.. خذني أنا مكانه، هو لا يستحقّ، لا تعاقبه بذنبي.. خذني أنا واتركه، هو يستحقّ الحياة وأنا لا أستحقّ.. أرجوكَ سامحني..

أجهشتُ أكثر في البكاء ولم أعد أستطيع السيطرة على نفسي.. أخذ جسدي يهتزّ بعنف وأنا أصرخ:

ما الذي فعلتُه بنفسي؟! ما الذي فعلتُه بنفسي؟! ما الذي فعلتُه بصغيري المسكين؟ أنا أستحقّ الموت.. لكن.. لكن هو لا يستحقّ.. لا يستحقّ.. لا يستحقّ أن يحدث له.. لا يستحقّ أن يحدث له.. بسببي أنا.. أنا.. أنا...

فقدتُ السيطرة على لساني وسط نشيجي، وسمعتُ أصواتًا تُهرول نحوي، وصوت إحدى الممرضات يسألني:

ماذا هناك؟ لماذا تصرخ يا أستاذ؟!

رفعتُ إليها وجهي المبلل بالدموع:

ابني.. ابني يموت!

رمقتْ الغرفة وغمغمتْ بحيرة:

مؤشّراته الحيويّة على ما يرام!

فجأة بدأ أزيز جهاز نبضات القلب، فهتفت الممرضة:

قلبه يتوقّف.. سأستدعي الدكتور!

وأسرعت مبتعدة.. سمعتُ الكثير من الأصوات حولي، أشخاص يُهرولون و(إيناس) تصرخ وصوت جهاز الصدمات الكهربائيّة، فلم أبالِ بكلّ هذا.. أسندتُ ظهري إلى الجدار وظللتُ جالسًا على الأرض شاعرًا بالعجز، وأخذتُ أُتمتم بلا كلل:

ساعدني يا رب، ساعدني يا رب، ساعدني يا رب..

انتفضتُ حينما وجدتُ يدًا توضع على كتفي.. انتطرتُ واقفًا بفزع، كان ذلك أنتَ يا (عزيز)!

رمقتُكَ غير مصدّق، لم أكن قد رأيتُكَ منذ المرّة الأولى التي التقيتُكَ فيها، فسألتُكَ بدهشة:

ما الذي جاء بكَ؟ كيف عرفتَ أنّني هنا؟!

أجبتني حينها بابتسامة مشفقة وأنتَ تهرش في صلعتك:

كيف تكون في هذا الموقف ولا آتيكَ؟

كانت عيناكَ الواسعتان كالبحر أمامي، فيهما شيء مريح حين أنظر إليهما.. ألقيتُ بنفسي في حضنكَ وأجهشتُ في البكاء وأنا أُردّد:

هل رأيتَ ما حدث لـ(أدهم)؟ أنا قتلتُه يا (عزيز)، أنا المسؤول، كان يجب أن أموت ويبقى هو!

كنتُ بحاجة للربتة التي ربّتتها على ظهري وأنتَ تقول لي مطمئنًا:

سيكون بخير، لا تقلق.

في تلك اللحظة سمعتُ جهاز نبضات القلب وهو يعود لإطلاق أزيزه الطبيعي، وصوت الطبيب يقول:

الحمدلله، نجحنا في استعادته.. أعدّوا غرفة العمليات بسرعة!

ضحكتُ وهتفتُ وسط دموعي:

الحمد لله، (أدهم) مازال حيًّا يا (عزيز)، (أدهم) مازال معنا!

ابتسمتَ لي:

(أدهم) في أيدٍ أمينة، سأعتني به حتّى تعود.

سألتُكَ بحيرة:

أعود من أين؟

رمقتني بضيق:

الأبواب فُتحت لكَ أكثر من مرّة يا (نادر) لكنّكَ تردّدتَ في الدخول!

هتفتُ بلوعة:

لكنّني حاولتُ يا (عزيز)، أُقسم لكَ إنّني حاولتُ بكلّ جهدي.. فعلتُ كلّ ما طُلب منّي، تطهّرتُ بالندم وحاولتُ كسر كِبري بصدق، لكن بلا فائدة!

- لأنّكَ لم تُرد الدخول فعلاً! كنتَ تنكص على عقبيكَ في كلّ مرّة، كلّما أشارت لكَ الدنيا بإصبعها كنتَ تترك كلّ شيء وتُسرع إليها.. وها هي النتيجة، ابنكَ الآن بين الحياة والموت!

هتفتُ دامع العينين:

أنا من قتلتُه!

- كِبركَ من حاول!

رمقتُ الأرض وأنا أسألك:

وماذا أفعل الآن؟

- الأبواب تُفتح كلّما طرقتَها.. اطرقها بصدق واعبر عتبتها، ولا تتراجع هذه المرّة.

- أُريد الدخول الآن، أُريده بكلّ كياني.. هل أعود للزاوية؟ لم أصل بعدُ لمقام الانكسار.

هززتَ رأسكَ نافيًا وأنتَ تقول لي:

اكسر نفسكَ بنفسكَ، أنتَ روحكَ طيّبة لكنّكَ أحطتها بالكثير من الغلالات السوداء بفعل الخوف.. لكن ممّ تخاف الآن؟ زوجتكَ تركتكَ وفقدتَ وظيفتكَ وسيّارتكَ تحطمت وأجهزتكَ الهامة تهشّمت والفتاة التي

obeikan.com

تعلّقتَ بها لفظتكَ وابنكَ بين الحياة والموت؛ فما الذي بقي لكَ من روابط الدنيا لتتعلّق بها نفسكَ؟! ضع عنكَ أحمالكَ واتبعني!

سألتُكَ بدهشة:

كيف عرفتَ كلّ هذا؟ لم أقابلكَ منذ...

- أنتَ تعرف ما عليكَ فعله يا (نادر).. اكسر نفسكَ بنفسكَ.

وأشرتَ لي بعيدًا:

هيّا، اذهب واتبعني.. سأظلّ هنا بجوار ابنكَ حتّى تعود.

رمقتُ الاتجاه الذي أشرتَ إليه، ومضيتُ مبتعدًا دون كلمة.

obeikan.com

وقفتُ أمام المستشفى لا أدري ماذا أفعل.. رنّ "موبايلي" في جيبي فانتفضتُ، ثم تجاهلتُه وتركتُه يرنّ.. لم أكن في حالٍ تسمح بالحديث مع أحد.. رنّ بإلحاح مرّة أخرى فخشيتُ أن يكونوا يتّصلون بي من داخل المستشفى من أجل (أدهم)، أخرجتُه من جيبي بأصابع مرتعشة ورفعتُه أمام عينيّ فإذا به رقم (كريم).

- (كريم).. كيف حال...

قاطعني بلهجة حازمة:

أُريد أن أراكَ في مكتبة خيال بعد ساعة من الآن.

وأغلق الخط.. رمقتُ الهاتف مندهشًا.. فكّرتُ أن أُعيد الاتّصال به وأُخبره بالظروف التي أمرّ بها وأنّني لن أستطيع لقاءه، لكنّني بدلاً من ذلك وجدتُ نفسي أسير في الشارع.. مكتبة خيال ليست بعيدة عن هنا، ربما على مسافة نصف ساعة من المشي.

لم يكن الصيف قد دخل بعد بكلّ عنفوانه، لكنّني شعرتُ بالاختناق فنزعتُ "الكرافتة" وألقيتُ بها بعيدًا، فانتبهت قطّة قريبة واقتربت بحذر، تشمّمتها ثمّ أخذت تخمشها وتلعب معها. هذه القطة خيرٌ منّي.

Obeikan.com

رمقتُ زرقة السماء واتّساعها، تخيّلتُني جزءًا منها، أنا امتدادها، فتسلّلت بعض الراحة إلى نفسي المرهقة.

حينما اقتربتُ من مكتبة خيال استوقفتني فتاة صغيرة تحمل بين يديها أكياس مناديل:

أريد جنيهًا يا عمّو.

نظرتُ لها بدهشة وسألتُها:

ألستِ أنتِ الفتاة التي اشتريتُ لها كتب الأطفال؟

رمقتني بسعادة وهتفت:

أوحشتَني يا عمّو!

وفوجئتُ بها تُحيط ساقيّ بذراعيها وتحتضنني بحبّ.

- آتي هنا كلّ يوم وأبحث عنكَ لأنّكَ أوحشتَني.

رمقتُ عينيها الدامعتين بتأثّر ومددتُ يدًا متردّدة فربّتُ على ظهرها.

- أنتِ أيضًا أوحشتِني يا حبيبتي.. كيف حالكِ؟ خذي هذه.

وبحثتُ في جيبي وأخرجتُ عدّة ورقات نقديّة. تناولتُ إحداها وناولتُها لها:

اشتري لنفسكِ حلوى.. أو أيًّا ما تشاءين.

أمسكت الورقة بسعادة وهي تهتف:

عشرة جنيهات؟

وهمّت بأن تقول لي شيئًا، لكنّني قاطعتُها بسرعة:

معذرة، لديّ موعد يجب أن ألحق به.. أراكِ لاحقًا.

ودخلتُ المكتبة وأنا أُلوِّح لها.

لم يكن (كريم) قد حضر بعد، فأخذتُ أتمشّى بين رفوف الكتب.. هنا عرفتُ (رِهام) لأوّل مرّة، هذا المكان شهد الفصول الأولى للنهاية التي صرتُ إليها.. تأمّلتُ عناوين الكتب شاردًا أفكّر فيما كنتَ تعنيه يا (عزيز) حين طلبتَ منّي أن أتبعكَ.

مررتُ بعينيّ فوق الكتب التراثيّة، وقع بصري على كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بأجزائه الأربعة.. تناولتُ الجزء الأخير وهممتُ بفتحه لكنّني انتبهتُ إلى كتيب صغير مختبئ خلفه، يتناقض حجمه مع حجم المجلد الذي يجاوره.. مددتُ يدي إليه كالمسحور.. "المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال للإمام أبي حامد الغزالي قدّس الله سرّه".. تذكّرتُ حينها أنّه الكتاب الذي حدّثتني عنه يا (عزيز) في لقائنا الأوّل..

فتحتُه كيفما اتّفق وقرأتُ بعض سطوره:

"ثم إنّني لما فرغتُ من هذه العلوم أقبلتُ بهمّتي على طريق الصوفيّة، وعلمتُ أنّ طريقتهم إنّما تتمّ بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس والتنزّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتّى يُتوصّل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله".

قلبتُ صفحتين ثم قرأتُ:

"وكان قد ظهر عندي أنّه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكفّ النفس عن الهوى، وأنّ رأس ذلك كلّه قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى. وأنّ ذلك لا يتمّ إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق. ثم لاحظتُ أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظتُ أعمالي -وأحسنها التدريس والتعليم- فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمّة، ولا نافعة في طريق الآخرة".

قلبتُ صفحة وقرأتُ:

"فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل! فلم يبقَ من العمر إلا قليل، وبين يديكَ السفر الطويل، وجميع ما أنتَ فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعدّ الآن للآخرة فمتى تستعدّ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار! ثمّ يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إيّاكَ أن تُطاوعها، فإنّها سريعة الزوال، فإن أذعنتَ لها وتركتَ هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلّم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسكَ، ولا يتيسّر لكَ المعاودة".

أخذتُ الكتاب إلى الكاشير ونقدتُه ثمنه، ثم ذهبتُ إلى الجزء الخلفي لأجلس منتظرًا (كريم).

لم تمضِ دقائق قليلة حتى وجدتُه مقبلاً نحوي، فأغلقتُ الكتاب ووقفتُ أستقبله بابتسامة لابدّ أنّها كانت باهتة، وهممتُ أن أمدّ يدي لأُصافحه لكنّني فوجئتُ به يُعاجلني بلكمة في وجهي ألقت بي إلى الوراء.

رمقتُه بدهشة، فصرخ في وجهي منفعلاً وصدره يعلو ويهبط:

أنتَ شخصيّة حقيرة! تعلّم أنّها تُحبّني وأنا أُحبّها وتُرسل لها تُصارحها بحبّكَ؟

كانت عيناه محمرّتان، رأيتُ الغضب فيهما ممزوجًا بالخوف والترقّب.. ربما توقّع أن أردّ له اللكمة أضعافًا مضاعفة.. وحينما اقترب منّي وهو يرفع قبضته من جديد لمحتُ في عينيه أنّه ليس واثقًا من أنّها ستصل إليّ، وأنّني سأُرديه، لكنّه مع ذلك كان يتحرّك نحوي وكأنّ كلّ ما يبغيه أن يحاول ضربي ليشفي غليله.. لذلك فوجئ حينما وجدني واقفًا في مكاني مبتسمًا أنتظره، رفع قبضته بتردّد ولكمني في وجهي من جديد، فسقطتُ على الأرض.. كان بإمكاني أن أتفادى ضربته أو على الأقل أُوازن نفسي كي لا أسقط، لكنّني أردتُ السقوط.

وقف فوقي محتارًا لا يدري ماذا يفعل، فنهضتُ وقلتُ وأنا أتحسّس أثر قبضته على فكّي:

لماذا لا تتزوّجها يا (كريم)؟

رمقني بدهشة فاستطردتُ:

أنتَ تُحبّها كما هو واضح.. وهي كما أعلم تذوب فيكَ عشقًا، ويبدو أنّها أرتكَ الرسالة الأخيرة التي أرسلتُها لها منذ ساعات قليلة.. فلماذا لا تتزوّجها وتُنهي معاناتها؟

ردّ عليّ جاذًّا على أسنانه:

هل ستلعب دور المضحّي النبيل الآن؟ تُحبّها لكنّكَ ستتنازل عنها لمن اختاره قلبها؟

هززتُ رأسي نافيًا:

لا بالعكس، أنا لا أُحبّها.. كنتُ أعتقد ذلك حتى عدّة ساعات مضت، ثم أدركتُ أنّني لم أكن أُحبّ سوى نفسي، وظننتُها هي أحد تجليّاتي.

ردّ عليّ ساخرًا:

وما الذي غيّركَ وأنار بصيرتكَ؟

رمقتُه بنظرة خاوية وغمغمتُ:

الوهم الذي ملأتُ به قلبي تسبّب في أنّني آذيتُ أقرب النّاس إليّ.. (أدهم) ابني في المستشفى الآن بين الحياة والموت.

رمقني بفزع محاولاً التأكّد من صدق كلامي، ولما وجد نظرتي جامدة ثابتة هتف بذهول:

لم أكن أعرف يا (نادر)، صدّقني لم أكن أعرف.. أنا آسف.. هل.. هل هو بخير؟

عرض أن يوصلني إلى البيت أو يذهب معي إلى المستشفى ليطمئنّ على (أدهم)، لكنّني طأمنتُه وأخبرتُه أنّ أكبر خدمة سيقدّمها لي الآن أن يتركني وحدي.

وقبل أن أغادر المكتبة التفتُّ وقلتُ له:

لا تخشَ شيئًا، لن أتواجد في حياة (رِهام) بعد الآن.. وأنتَ فكّر فيما قلتُه لكَ.. آن لهذه الفتاة الباسلة أن تجد حضنها.. فلتكن أنتَ هذا الحضن.

وحينما هممتُ بعبور الطريق لمحتُ في الجهة الأخرى الفتاة الصغيرة وهي تُحاول استيقاف فتاة لتعرض عليها أكياس مناديلها.

obeikan.com

جلستُ طوال الليل أقرأ في الكتاب، قرأتُه أربع مرّات.. لم يكن كبيرًا، حوالي ستّون صفحة تجاوزتُ أغلبها لأنّه يتكلّم فيها عن تجربته في الشكّ والقراءة في كتب الفلاسفة.. ركّزتُ على قراءة تجربته في ترك كلّ شيء والسياحة في الأرض.. (عزيز) يُطالبني بأن أتبعه وأكسر نفسي بنفسي، فهل بإمكاني ذلك؟

كنتُ قد مررتُ بالمستشفى واطمأننتُ على تحسّن حالة (أدهم) فارتاحت نفسي، لكنّ (إيناس) قابلتني بوجه متجّهم وصارحتني بكراهية:

كان يجب أن تكون أنتَ مكانه!

نظراتها كانت تصهرني، كيف تحوّل كلّ حبّها لي إلى ما أراه أمامي الآن؟

بحثتُ عنكَ يا (عزيز) في أروقة المستشفى فلم أجدكَ، واكتشفتُ حينها أنّني في المرتين اللتين قابلتُكَ فيهما لم أحصل على رقمكَ.

اتّصلتُ بـ(عامر) وبادرتُه قبل أن يسألني عن غيابي:

لن أعمل ثانية في محل العصير.. لكنّني سأكسر نفسي بشكل أكثر قسوة!

وأخبرتُه بما أنوي فعله، فهتف بي:

لكن يا سِيدي (نادر).. أنتَ غير مؤهّل لذلك، قد تنتكس ويحدث ما لا يُحمد عقباه!

قلتُ له بلهجة حاسمة:

أودّ المخاطرة، لقد وصلتُ مع نفسي إلى مفترق طرق.. لن يمكنني الاستمرار وأنا على ما أنا عليه، فإمّا أن أعود وقد وُلدتُ من جديد أو أظلّ هناك إلى الأبد!

- تُعجبني روحكَ المتوثّبة، لكن أتمنّى أن تُلاحظ أنّ نفسكَ الأمّارة بالسوء هي من تتحدّث الآن أيضًا، تجعلكَ تأخذ الأمر كتحدٍّ جديد، وهذا شيء يُرضيها ويُشبعها حتّى لو كنتَ تنوي قهرها.. أنتَ لن تستطيع القضاء عليها لأنّها ستتنكّر في شكل جديد!

فكّرتُ قليلاً ثم قلتُ له:

سأُجرّب حظي.. سأُعطي لنفسي مهلة ثلاثة أشهر مع هؤلاء القوم ثم أعود لنرى إن كان قلبي قد تغيّر أم لا.

- أخلص النيّة سِيدي (نادر)، وافتح قلبكَ للأنوار يمتلئ بها.

ارتديتُ نفس الجلباب الذي كنتُ أرتديه في محل العصير وغادرتُ الشقّة وأنا أعلم أنّني لن أعود قريبًا، رمقني (مختار) البوّاب بدهشة، فشعرتُ بالحرج لكنّني أكملتُ طريقي ولم أردّ على سؤاله.

Obeikan.com

لم أكن في تلك اللحظات يا (عزيز) واثقًا مما سأفعله، بدا لي كلّ شيء كالحلم، وكان شيء بداخلي يتساءل عن جدوى كلّ هذا، وكنتُ أضع في اعتباري أنّني قد أعود بعد ساعات قليلة إذا اكتشفتُ سخف ما أفعله.

مشيتُ لثلاث ساعات حتّى وصلتُ إلى مكتبة خيال، كان بإمكاني أن آخذ أيّ مواصلة أو أوقف سيّارة أجرة، لكنّني فضّلتُ المشي مهما كان الطريق طويلاً.. كنتُ آمل أن ألتقي تلك الصغيرة هناك، لكنّني لم أجدها.. ظللتُ أتمشّى في المنطقة بحثًا عنها لكن بلا جدوى.. شعرتُ أنّني غبي، لماذا اعتقدتُ أنّني يجب أن أجدها كلّ مرّة في نفس المكان؟

لمحتُ من بعيد "كوبري" فاتجهّتُ إليه وقد عزمتُ أن أقضي ليلتي تحته.

Obeikan.com

أشرتُ للسائق إلى البناية ليقف أمامها، ورمقتُ بقلق رقم 27 المرتسم على عدّاد الأجرة.

- انتظرني لحظة يا أسطى.

أسرعتُ إلى محل العصير، كان الحاج (رضا) جالسًا خلف الكاونتر في مدخل المكان، بينما (عبد الرحيم) مازال في مكانه خلف أكواب العصير، و(حمادة) يقف قرب العصّارة يساعده.

- السلام عليكم، سِيدي (رضا).. أنا (نادر) الذي كان يعمل عندكَ منذ فترة.

نهض الحاج (رضا) من خلف المكتب وأخذ يرمقني بتمعّن وكأنّه يُحاول التحقّق من صدق كلامي، بينما أسرع (حمادة) إليّ واحتضنني:

أستاذ (نادر)، لم أعرفكَ للوهلة الأولى!

لمحتُ شكلي في المرآة التي في مدخل المكان، لحيتي الطويلة وشعري الثائر وجلبابي الأبيض الذي حال لونه إلى رمادي بفعل البقع والتراب الذي ملأه، فأدركتُ سرّ دهشتهم، وقلتُ لهم بخجل:

هل بإمكان أحدكم أن يُحاسب سائق التاكسي لأنّني ليست معي نقود؟ أعطوه ثلاثين جنيهًا.

وعدتُ إلى التاكسي فحملتُ (إسراء) وعدتُ إلى مدخل البناية باحثًا عن سِيدي (حسنين).

- كيف حالكَ يا سِيدي، معي مريضة.. هلّا فتحتَ لنا الزاوية واتّصلتَ بسِيدي (عامر)؟ قل له إن (نادر) عاد ومعه فتاة مريضة تحتاج أن يكشف عليها.

والتفتُّ إلى (عبد الله) الصغير وقلتُ مطمئنًا:

لا تخشَ شيئًا، سيعتنون بـ(إسراء) وستُصبح بخير.

فهزّ رأسه وهو يرمق ما حوله بحذر.

لم تمضِ نصف ساعة حتّى وجدتُ سِيدي (عامر) ومعه سِيدي (خيري) يدلفان إلى الزاوية ويسرعان إليّ فيحتضنانني غير مصدّقين.

- أين ذهبتَ يا سِيدي.. كنّا قلقين عليكَ.

أجبتُه مبتسمًا بحيرة:

لقد أخبرتُ سِيدي (عامر) بما سأفعله كي لا يقلق أحد.

- خشينا أن يصيبكَ مكروه!

- اختلطت عليّ الأيام ولم أعد أحسبها.. كم غبتُ بالضبط؟

أجابني بدهشة:

obeikan.com

حوالي خمسة شهور.. الدنيا مقلوبة بحثًا عنكَ! زوجتكَ نشرت في الجرائد نداء استغاثة ترجو فيه من يعرف أيّ معلومة أن يتّصل بها أو بزوج خالتكَ عميد أمن الدولة.. أخبرني (عامر) بأنّكَ كلّمتَه قبل رحيلكَ، فاتّصلتُ بها لأُطمئنها عليكَ وأخبرتُها بما نويتَ فعله.. جاءتنا هنا مع زوج خالتكَ وسألانا كثيرًا عنكَ، وعرفتُ منهما أنّ الجميع يبحث عنكَ، الشرطة وزملاؤكَ الأدباء وأصدقاؤكَ ومعارفكَ.. هناك جرائد كتبت عن اختفائكَ وبعض البرامج التلفزيونيّة ناقشته، والجميع تقريبًا انتهوا إلى نتيجة أنّكَ غبتَ عن عقلكَ بعد ما حدث لابنكَ فخرجتَ ولم تعد.. كلّهم يأسوا من عودتكَ ماعدا زوجتكَ.. تتّصل بي كلّ عدّة أيام لتسألني عنكَ إن كنتَ ظهرتَ، وأحيانًا تأتي هنا بنفسها.

سألني (عامر) بلوم بينما يفحص (إسراء):

لماذا لم تُطمئنها قبل رحيلكَ كما فعلتَ معي؟ كان عليكَ أن تتحدّث إليها!

فوجئ بي أردّ على سؤاله بسؤال:

كيف حال (أدهم)؟

- بخير.. تعافى تمامًا الآن، وجاء معها هنا ذات مرّة.. طفل لطيف، يُشبهكَ كثيرًا.

انتهى (عامر) من فحص (إسراء)، وأخرج ورقة وقلمًا فكتب أسماء بعض الأدوية ثمّ طلب من سِيدي (حسنين) أن يشتريها وأعطاه نقودًا.

- هذه بعض المضادات الحيويّة حتّى نذهب بها بعد قليل إلى أحد أساتذتي.. لا تقلق، ستكون بخير.

ثمّ قال لي بابتسامة مشرقة:

بعد أن نطمئنّ عليها سنجلس سويًّا، لأنّني أُريد أن أتعلّم منكَ، سِيدي (نادر).

obeikan.com

جلستُ أمام سِيدي (خيري) وسِيدي (عامر) وقلتُ لهما:

في اليوم الذي خرجتُ فيه ولم أعد كانت تملأني عزيمة كي أقضي وقتًا بين أطفال الشوارع أتعلّم منهم كيف أكسر نفسي ولا أؤذي ثانية من أُحبّهم.. كلّ ما كنتُ أفكّر فيه أن ألتقي بالفتاة الصغيرة بائعة المناديل وأعرف منها كيف تعيش وأين تبيت وماذا تأكل، وأُقلّدها في كلّ شيء.

لكنّها لم تكن موجودة، وكنتُ قد تعبتُ من كثرة المشي وهدّني التعب، فجلستُ أسفل "كوبري" وجدتُ بضعة أطفال يجلسون في أركانه وكأنّهم يحتمون به. ظلّوا فترة يرمقونني بريبة، ثمّ تجاسر أحدهم واقترب منّي.

- عمّو، أريد جنيهًا أُحضر به طعامًا.

فتّشتُ في جيبي فوجدتُ ورقة بمائة جنيه، ناولتُها له فرمقني غير مصدّق. أسرع عائدًا إلى أصدقائه يلوّح لهم بالورقة في حماس، فهبّوا وانقضّوا عليّ بلهفة.

أخرجتُ بضع ورقات مختلفة القيمة من جيبي ومنحتُها لهم، تجرّأ أحدهم لمّا وجدني غير مبالٍ ومدّ يده ليفتّش جيوبي بحثًا عن أيّ أوراق أخرى، فلم أُحاول منعه.

obeikan.com

أخذوا كلّ ما معي، ثمّ انطلقوا ليصرفوا غنائمهم، بينما أخذتُ أنا أتأمّل محفظتي، أخرجتُ منها ما بقي فيها.. بطاقتي الشخصيّة وبطاقتنا "كريدت كارد" والكثير من الكروت الشخصيّة لمسؤولين وفنّانين وناشرين.. أعدتُها كلّها إلى المحفظة، ثمّ نهضتُ وبحثتُ حتّى وجدتُ صفيحة قمامة عملاقة فاضت بالمخلّفات والأكياس حولها.. ألقيتُ بالمحفظة وسط الأكياس ثمّ عدتُ لمجلسي المختار أسفل "الكوبري".

كانت هناك رائحة نشادر نفّاذة لكنّني لم أهتمّ.. تمدّدتُ على جنبي ووضعتُ رأسي على يدي وأغلقتُ عينيّ إلا أنّني لم أستطع النوم. فأخذتُ أُردّد الوِرد حتّى لم أعد أشعر بشيء.

لم أحلم بأيّ كوابيس على غير العادة، واستيقظتُ على هزّات خفيفة ففتحتُ عينيّ فزعًا وأنا أرمق ما حولي بذعر قبل أن أتذكّر أين أنا وماذا أفعل هنا.

كان النهار قد طلع، وكانت هذه الفتاة الصغيرة بائعة المناديل جاثية بجواري تُحاول إيقاظي:

ما الذي جاء بكَ هنا يا عمّو؟

كانت ترمقني بدهشة.. مسحتُ وجهي بيديّ محاولاً أن أُركّز وأطرد النوم عنّي، امتلأت أذناي بأصوات محركات السيّارات وأبواقها واهتزاز "الكوبري" أعلى منّي.. أجبتُها مبتسمًا:

هل لديكِ مانع أن أجلس معكم هنا قليلاً؟

سألتني بحيرة:

أنتَ تبع الجمعيّة؟

سألتُها عمّا تعني وفهمتُ منها أنّ هناك بعض الجمعيّات الأهليّة التي تأتي إليهم من آن لآخر لتُساعدهم.. كانت ترمقني بحيرة ولا تدري ماذا أفعل هنا، أنا من كنتُ أُعطيها الكتب والجنيهات فكيف أرتدي ما أرتديه وأنام حيث ينامون وأودّ البقاء معهم؟ يبدو أنّ الأطفال ظلّوا يتحاكون طويلاً عن الشخص الذي منح بعضهم مئات الجنيهات بلا تردّد، فلما جاءت لتراني اكتشفت أنّني نفس الشخص الذي تعرفه.

سألتني بريبة:

أتريد فتيات من بيننا كي...؟

أذهلني أن يخرج السؤال ممّن في مثل سنّها، لكنّني وجدتُه سؤالاً منطقيًّا.. ماذا سأُريد منهم غير ذلك؟

- لا يا حبيبتي.. أقصد لا يا صغيرتي.. أنا فقط كرهتُ الدنيا وتركتُ كلّ شيء وأودّ أن أظلّ معكم لفترة.

رمقتني بنفس الريبة وبدا أنّها غير مقتنعة بكلامي، إلا أنّها قالت لي:

- لا يمكنكَ أن تبيت هنا دون موافقة (سعاد)!

بعد فترة عرفتُ يا سادتي كم هو عجيبٌ عالم أطفال الشوارع هذا، دنيا داخل الدنيا، كأنّه بُعد آخر يشترك معنا في نفس المكان لكنّنا لا نرى

obeikan.com

أفراده ولا نعرف عنهم شيئًا. هناك قوانين وأعراف تحكم هذا العالم، فهم يعيشون في مجموعات، لكلّ مجموعة قائد يأتمر الجميع بأمره، وقائد المجموعة ليس بالضرورة أن يكون أكبرهم سنًّا، بل المهم أن يكون الأكثر قوّة وذكاءً.. لا توجد أعراف أو قوانين أخلاقيّة، رأيتُ بعينيّ خلال الشهور الماضية صبية أقلّ من العاشرة يُدخّنون السجائر و"يشدّون الكلّة"، والفتيات مهما كان سنّهنّ مباحات للجميع. أغلبهم هربوا من بيوتهم إمّا لأنّ أهلهم طردوهم لضيق ذات اليد، أو لأنّهم وجدوا الشارع أرحم من مضايقات ذويهم. يبيتون في الحدائق وفوق الأرصفة وتحت السيّارات والكباري، وكلّ مجموعة لها منطقة تنشط فيها.. والمجموعة التي كنتُ أطلب من تلك الفتاة الصغيرة أن أُقيم معها كانت تأتمر بأمر فتاة في العشرين من عمرها اسمها (سعاد)، لم تكن موجودة في ذلك الوقت.

تمشّيتُ قليلاً حول "الكوبري" ثم عدتُ للجلوس في مكاني تحته، في فترة النهار لا يتواجد الكثير من الأطفال، أغلبهم ينتشرون في الشوارع المحيطة باحثين عن الطعام والنقود.. استلقيتُ في مكاني وأغمضتُ عينيّ، فوجدتُهم يحملونني إليه وأنا أُحاول التملّص من بين أيديهم بلا جدوى، حاولتُ الصراخ فلم يخرج صوتي واكتفيتُ بالبكاء.. وضعوني على الأرض أمامه، فاقترب منّي، وجهه بعيد في الظلام بينما يرتدي ملابس فرسان العصور الوسطى، وسيف ضخم يتدلى من وسطه.. نزع سيفه ورفعه لأعلى فزاد هلعي، وانعكس ضوء قريب على السيف فأضاء وجهه، كان يرتدي قناعًا لا يظهر منه سوى عيناه.

Obeikan.com

استيقظتُ فجأة إثر ضربات في كتفي، فنهضتُ جالسًا في مكاني وأنا أرمق ما حولي فزعًا.. كان الشخص ذو القناع يقف فوق رأسي ويحجب الشمس عن عينيّ.. رمقتُه غير مصدّق، ثمّ لم ألبث أن انتبهتُ إلى أنّه شخص آخر يرتدي بنطلون جينز قديمًا ممزّقًا و"تي شيرت" نصف كمّ لم يعد بالإمكان تمييز لونه، ويضع "كاب" فوق رأسه.

- ماذا بكَ يا نّنوس عين ماما؟!

تأملتُه بدهشة بعد أن ميّزتُ نبرة أُنثويّة لا يمكن إخطاؤها في صوته.

- أنتَ هارب ياض أم ماذا؟

جلستُ في مكاني وأنا مازلتُ أرمقها بدهشة، فمدّت يدها وجذبت يدي وأخذت تتحسّس ساعتي الـ Casio باهتمام:

ساعة فخيمة؟! أأنتَ مزقوق من الحكومة أم ما هي حكايتكَ بالضبط؟!

زكمتْ أنفي رائحتها الكريهة، في الغالب لم يلمس الماء جسدها منذ أسابيع.. لم أردّ عليها، فأخذت تعبث بالساعة حتّى نجحت في فكّها عن يدي وأخذت تتأمّلها بشغف، ثمّ وضعتَها في يدها وأخذت تُقرّبها من أذنها، ثم التفتتْ إليّ حينما وجدتني صامتًا وسألتني ساخرة:

ايه؟ ألن تبكي وتتوسّلني: والنبي يا أبلة (سعاد) اتركي لي ساعتي، إنّها من ريحة المرحوم؟

وأطلقت ضحكة مُجلجلة، ثمّ أخرجت من جيبها شيئًا ما وفي لمح البصر وجدتُها تضع نصلاً باردًا على خدّي وهي تهتف بي:

شوف يا روح أمّك.. لا أحد يجلس هنا سوى بمزاجي، أنا الكبيرة هنا.. لا أدري من أيّ مصيبة جئتَنا، وما الذي جاء بكَ.. أمامكَ دقيقة واحدة لتقوم وتجري، ولو رأيتُكَ هنا مرّة أخرى سأُعلّقكَ فوق "الكوبري". فاهم؟!

قلتُ لها محاولاً ألّا أُظهر أنّني أشعر بالغثيان من رائحتها:

ليس لديّ مكان أذهب إليه.. لو قمتُ من هنا فسأظلّ أدور في الشوارع بلا هدف وسينتهي بي المطاف أسفل "كوبري" آخر. فلِمَ لا أظلّ هنا؟

فوجئتُ بالفتاة بائعة المناديل تتدخّل لتقول لـ(سعاد) برجاء:

والنّبي يا (سعاد) اتركيه. لقد اشترى لي الكثير من الكتب منذ فترة وكلّما رأيتُه كان يعطيني فلوسًا كثيرة. والنّبي والنّبي!

رمقتها (سعاد) بغيظ وهي تقول:

وهل أيّ شخص يأتي إلينا نتركه بيننا يا (صابرة)؟ أنا لا أدري ماذا يريد منّا!

أسرعتُ أقول:

هناك مشاكل في حياتي.. زوجتي تركتني وابني أُصيب في حادث سيّارة وضاقت بي الدنيا. لذلك أودّ أن أعيش بينكم لفترة.

دفعتني فجأة وهي تقول بملامح متقلّصة وكأنّها ستسبّني:

لستُ مرتاحة لكَ!

obeikan.com

كان الأطفال يحيطون بنا متفرّجين على ما يحدث، ووجدتُ أكثر من فتى يهتف بـ(سعاد):

دعيه يا (سعاد) يظلّ معنا – إنّه طيّب.

كانوا الفتية الذين منحتهم نقودي بالأمس.

أخذت تُنقّل بصرها بيني وبينهم، ثم رفعت المطواة عن وجهي وهي تقول جاذّة على أسنانها:

ستدفع لي يوميًا خمسة جنيهات، وإلا لا مقام لكَ بيننا.. واحذر لأنّ عيني لن تغيب عنكَ!

قلتُ معترضًا:

الساعة التي أخذتِها منّي ثمنها يغطّي ستة شهور على الأقل!

فكّرتْ قليلاً وهي ترمقني بحذر، ثم قالت بغلظة:

شهر واحد، بعده ستدفع لي يوميًا خمسة جنيهات!

والتفتت إلى (صابرة) وقالت لها بشراسة:

لو أخطأ فسأحاسبكِ أنتِ!

obeikan.com

قال لي سِيدي (خيري) بقلق، وكأنّ تلك الأحداث تقع أمامه في التوّ واللحظة:

لكنّكَ يا سِيدي خطوتَ بقدميكَ في عالم صعب وخطر.. كان من الممكن أن تُصاب بالأذى!

- كنتُ أعتمد على قدرتي على الدفاع عن نفسي، وكنتُ أُدرك أنّني لو أردتُ سأُصبح قائد تلك المجموعة.. قلتُ لنفسي إنّ بإمكاني هزيمة (سعاد) بسهولة، بل بإمكاني هزيمة أيّ شخص آخر مهما كانت شراسته وقوّته.

سألني (عامر):

وبقيتَ هناك طوال الشهور الماضية؟

أجبتُه مبتسمًا:

وقعت الكثير من الأشياء.. أخذتني (صابرة) إلى فتى صغير يرتدي نظّارة وأخبرتني أنّه أخوها (عبد الله)، ثم أحضرت كيسًا بلاستيكيًا تضع فيه حاجياتها وأخرجتْ منه كتابًا رفعته في وجهي بمرح:

هذا هو الكتاب المتبقّي من الكتب التي أحضرتَها لي!

Obeikan.com

كان "أليس في بلاد العجائب"، سألتُها مبتسمًا:

وأين ذهبت بقيّة الكتب؟

أجابتني متجهّمة:

بعض الأولاد أخذوها منّي بالقوّة وتركوا هذا لأنّني كنتُ أُخبئه!

سألني أخوها بأدب:

حضرتك معكَ كتب أخرى؟

هززتُ رأسي نافيًا، فعاد يسألني:

هل طردك عمّكَ من البيت أنتَ أيضًا؟

رمقتُه بدهشة ولم أُجبه.

- أنا أيضًا طردني عمّي.

كنتُ بينهم النعجة السوداء بين قطيع من النعاج البيضاء، لم يفهم أحدهم لماذا يتواجد وسطهم شخص في مثل سنّي ومكانتي التي تدلّ عليها النقود الكثيرة التي وزّعتُها عليهم في ليلتي الأولى معهم، ظلّوا عدّة أيام يتعاملون معي بحذر، ثمّ بدأ حذرهم يذوب مع الوقت.

بدأ بعض الصبية والفتيات في التقرّب إليّ والجلوس معي للحديث.. اكتشفتُ أنّ هؤلاء القوم يأسرهم الحنان، إذا تعاملتَ معهم بندّية ولم تُقلّل من شأنهم سيمنحونكَ حياتهم إن طلبتَها.

obeikan.com

أصبحت (صابرة) و(عبد الله) هما الأقرب إليّ بين هؤلاء الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة أو أقلّ، وحتّى العشرين أو أكثر.. (صابرة) لا تعرف سنّها تحديدًا لكنّني خمّنتُ أنّها في السابعة أو الثامنة. بينما (عبد الله) يقول بثقة إنّه في الحادية عشرة. في البداية كنتُ أظنّهما أخوين كما أخبراني، لكن اتّضح لي لاحقًا أنّهما يعتبران بعضهما كذلك. (صابرة) أطلقت على نفسها هذا الاسم، بينما اسمها الحقيقي "إسراء". تُوفّيت والدتها وتزوّج أبوها من امرأة كانت الصورة الحيّة لزوجة الأبّ القاسية.. سامت (إسراء) العذاب ألوانًا حتّى هربت من البيت لتعيش في الشوارع على بيع المناديل وصدقات المحسنين.. أمّا (عبد الله) فقصّته عجيبة، كان من أسرة راقية ويدرس في مدرسة لغات، إلى أن لقي والداه مصرعهما في حادث سيّارة، واستولى عمّه على ميراثه وألقاه في الشارع.. أخبرني أنّه لا يعرف حتّى عنوان بيته أو بيت عمّه ليستطيع العودة.. تذكّرتُ عمّي وما فعله معنا، فاحتضنتُ الفتى وربّتُ على ظهره.

في اليوم الأوّل تقاسمتُ مع (إسراء) و(عبد الله) سندوتشي فول جاد بهما شخص ما عليهما، وعشتُ يومين آخرين على هذه اللُقيمات.. (إسراء) تحصل يوميًا على بضعة جنيهات من بيع المناديل والشحاتة، بينما (عبد الله) يمسح زجاج السيّارات في الإشارات ويخرج في نهاية اليوم ببضعة جنيهات أخرى.. يمنح كلٌّ منهما (سعاد) جنيهين فرضتهما عليهما، وما تبقى يشتريان به طعامًا أو يدّخرانه ليستطيعا بعد شهور شراء ملابس رخيصة نظيفة إن لم يجُد أحد المحسنين عليهما ببعضٍ من ملابس أطفاله.

كانت علاقتهما غريبة ونادرة في هذا الوسط، فعادةً من في مثل وضعهما يعبثان بجسديهما إلى أن يصلا السنّ الذي يُتيح لهما إقامة علاقة جنسيّة كاملة.. لكنّهما اختارا أن يكونا عونًا لبعضهما في هذا العالم، ربما ساعد على ذلك أنّ (عبد الله) تلقّى تعليمًا جيّدًا قبل أن ينخرط في حياة الشارع، وأنّ (إسراء) لم تتعرّض لمضايقات جنسيّة في بيتها كما يحدث لكثيرات غيرها.

كان (عبد الله) يحظى بشعبيّة لا بأس بها وسط المجموعة لأنّه يقوم بتعليمهم الإنجليزيّة التي يعرفها، والتي يحرص البقيّة على تعلّم كلمات متفرّقة منها ليستطيعوا مخاطبة الأجانب الذين يظهرون من آن لآخر في الشارع فيستجدونهم طعامًا ونقودًا.. وانتهز (عبد الله) هذه الشعبيّة في بسط حمايته على أخته (إسراء) كي لا يقترب منها أو يضايقها أحد.

اتّفقتُ مع (إسراء) و(عبد الله) أن أحكي لهما يوميًا قبل النوم عدّة حكايات مقابل أن يحضرا لي في اليوم التالي ساندوتشًا أو اثنين أتقوّت بهما.. حكيتُ لهما كلّ القصص التي أعرفها، قصّة الولد الذي فتح صنبور الماء فسقط منه قرد صغير في حجم عقلة الإصبع وأصبحا صديقين، والكلب عنتر الذي صادق طفلاً صغيرًا شقيًّا اسمه (نادر).. أصبحتُ شهرزاد هذين الطفلين، كنتُ أجد لذّتي في الحكي وكانا يجدان متعتهما في الاستماع إليّ.

وكان من الممكن يا سادتي أن تمرّ بي الأيام والشهور وأنا وسطهم ثمّ أعود كما أنا، بنفس القلب القاسي الذي جئتُهم به، لولا واقعة الكتاب.

كنتُ أُحاول إجبار نفسي على الانغماس في حياتهم، أُفكّر أنّني كالزهّاد والنسّاك الذين يتركون الدنيا ويتقشّفون في عيشهم، وكان ذلك يُرضيني.. أعتقد الآن أنّه كان يُغذّي شعوري بتميّزي، فكنتُ أعيش بينهم بهدف أن أكسر نفسي بينما أنا في الحقيقة أُغذّيها من حيث لا أعرف.. كان روتين يومي يشمل الذهاب إلى "كولدير" ماء قريب، أغسل وجهي وأشرب أو أتوضّأ لأُؤدي الفريضة، ثم أعود إلى "الكوبري" لأُصلّي.. كنتُ الوحيد الذي أُصلّي بين هؤلاء القوم، وكانوا يرمقونني بدهشة كلّما وقفتُ في الشارع في منطقة مُشمسة بعيدة عن النّاس وكبّرتُ للصلاة.. أمّا تسليتي فكانت تشمل الذهاب إلى مكتبة خيال لأقف أمام واجهتها أتأمّل الكتب بحنين، أبحث بعينيّ عن رواياتي فلا أجدها في الواجهة كما اعتدتُ دومًا، فيعتريني الحزن، وأتمنّى لو أستطيع الحصول على بعض الكتب لأنّني اشتقتُ للقراءة.

كنتُ أطيل الوقوف هناك، حتّى لمحتني (إسراء) ذات يوم فسألتني:

أتريد كتابًا يا عمّو؟

أجبتُها مبتسمًا:

منذ كنتُ في سنّكَ وأنا أقرأ، هناك رابط ما بيني وبين الكتب.. حتّى لو لم أجد وقتًا للقراءة، مجرّد وجود كتب بالقرب منّي يُشعرني بالأمان.. أُحبّ أن أتحسّس أغلفتها وأُقلّب في صفحاتها وأرمق سطورها وحروفها.

هتفت بحماس:

أحضر كتابًا واقرأه لي أنا و(عبد الله).

ابتسمتُ وأجبتُها بمرارة:

ليس الآن.. لم تعد معي نقود.

كنتُ أُدرك أن لديّ رصيدًا في البنك ويمكنني أن أعود لحياتي الطبيعيّة في أيّ لحظة بسهولة، لكن أعود لماذا ولمن؟ من يحبّونني لفظوني لأنّني آذيتُهم، وهناك ذلك العهد الذي أخذتُه على نفسي بألّا أرجع إلا بعد أن أُصلح من قلبي وأكسر نفسي.. لكنّ الأيام تمرّ ولا أشعر بجديد يطرأ عليّ.

ويبدو أنّ الحزن طفح من عينيّ، إذ إنّني رأيتُ (إسراء) ترمقني والألم على وجهها.. اندهشتُ حينها لاهتمام هذه الصغيرة، لم تكن من أهلي ولستُ لها سوى شخص غريب الأطوار يُقيم بينهم لسبب لا يُدركونه،فلماذا تتعاطف معي؟

في نهاية النهار فوجئتُ بها تقترب منّي وتضع في حجري مجموعة من القطع المعدنيّة وهي تقول لي:

هذه هي الفلوس التي معي.. اشترِ الكتاب الذي تُريده.

رمقتُها بدهشة:

- لكن.. لكن هذه نقود ادّخرتِها وتعبتِ في جمعها، لن يمكنني أخذها!

ضحكت ببراءة وهي تقول:

سأدّخر غيرها.. لا تحمل همًّا.

قلتُ لها مبتسمًا:

Obeikan.com

أُقدّر مشاعركَ، لكن يمكنني الصبر على عدم القراءة، الأمر ليس مُلحًّا لهذه الدرجة.. أيام قليلة وأرحل عن هنا وأعود لبيتي، لديّ هناك مكتبة كبيرة جدًّا.

فوجئتُ بها تحتضنني وهي تهتف بفزع:

لا، لا تتركنا.. ماذا سنفعل أنا و(عبد الله) بعد أن ترحل؟ من سيحكي لنا الحواديت كلّ يوم؟

رمقتُ عينيها المذعورتين اللامعتين بفعل الدموع واهتزّت نفسي وأنا أسألها:

أتحبينني لهذه الدرجة؟ لماذا؟ أنا لم أفعل شيئًا لتتعلّقي بي!

رمقتني بدهشة:

لا أفهم كلامكَ يا عمّو.. هل يجب أن تفعل أشياء لنحبّكَ؟ أنا لم أفعل شيئًا ومع ذلك أنتَ أحببتني واشتريتَ لي الكتب.. وتحكي لي يوميًا حواديت جميلة أنا و(عبد الله) وتتركنا ننام بجواركَ!

لم أدرِ ماذا أقول.. شعرتُ بنفسي أتضاءل أمام مشاعرها.

تشبّثت بي وهي تهتف:

أرجوكَ لا تتركنا!

احتضنتُها وأنا أقول بتأثّر:

لن أترككما أبدًا.. أبدًا!

- خذ الفلوس واشترِ الكتاب.

جمعتُ النقود وأعدتها لها وأنا أقول:

الكتاب ليس مشكلة الآن.. سأظلّ معكما، لكن خذي نقودكِ.. إنّها أحد عشر جنيهًا، ولن تكفي لشراء كتاب على أيّة حال.

تركت يدي الممدودة لها بالنقود وقفزت واقفة وأسرعت مبتعدة وأنا أُتابعها بدهشة، ثم عادت وهي تجذب (عبد الله) من ذراعه.

- قل له يا (عبد الله) كم معكَ!

أخرج (عبد الله) من جيبه بضعة جنيهات معدنيّة وقال وهو يعدّها:

هذه عشرة جنيهات، ها هي.

وضعت (إسراء) نقود (عبد الله) فوق النقود التي في حجري وهتفت بسعادة:

هيّا اشترِ الكتاب!

وقال (عبد الله):

هذه النقود ندّخرها للزمن ولا نحتاجها الآن.. مادمنا نجد لقمتنا كلّ يوم فلا توجد مشكلة، خذ النقود يا عمّو.

ompelkan.com

لم أدرِ ماذا أقول لهما.. وجدتُ نفسي أبكي فجأة، بكيتُ لأنّ نفسي صعبت عليّ، ولأن كرمهما فاق قدرتي على الاستيعاب.. مشاعرهما كفتني وأشبعتني عن أيّ كتب.. لم يكن الموضوع موضوع نقود الآن، بل فرحتهما بأنّهما فعلا شيئًا من أجلي، ولم يكن بإمكاني أن أكسر فرحتهما.

ذهبتُ إلى المكتبة وأنا أحمل النقود بين يديّ، ودفعتُ بابها متهيّبًا.. خطوتُ بضع خطوات داخلها، فأسرع أحد العاملين يعترض طريقي مستنكّرًا:

ماذا تريد؟!

أجبتُه بدهشة:

أريد أن أشتري كتابًا عن...

قاطعني بغلظة وهو يدفعني إلى الخارج:

لا توجد لدينا كتب.. اذهب من هنا!

وقفتُ أمام باب المكتبة لا أدري ماذا أفعل.. رمقتُ ملابسي المغبرّة وهمستُ بصوتٍ لم يصل بالتأكيد للرجل:

لكن.. معي النقود!

ظللتُ واقفًا أمام باب المكتبة حتّى وجدتُ شابًا يوشك على الدخول فأسرعتُ أستوقفه بلهفة:

لو سمحتَ.. معذرة.. أريد شراء أيّ قصّة أطفال، فلنقل سندريلا، أيّ قصّة، لا يهمّ.. فهلّا أحضرتَها لي من الداخل؟ هذه هي النقود!

ووضعتُ الجنيهات المعدنيّة بين يديه مرتبكًا، فسقط بعضها على الأرض. جثوتُ على ركبتيّ أجمع ما سقط وسط نظرات الشاب المندهشة.

- لماذا لا تدخل وتشتري بنفسكَ؟!

مددتُ يدي إليه بالجنيهات الساقطة وأنا أُغمغم برجاء:

أرجوكَ.. لا أستطيع أن...

ويبدو أنّه أراد أن يتخلّص منّي، فلم يجادلني أكثر.. دخل المكتبة وهو يحمل النقود، ولم تمضِ دقائق حتّى كان يخرج وهو يحمل بين يديه كُتيّبًا صغيرًا بغلاف لامع يحمل عنوان "سندريلا"، وأعاد لي جنيهًا وهو يقول:

هذا الجنيه زائد.

شكرتُه بحرارة، فرمقني مستغربًا الموقف ومنظري، وهزّ رأسه ثم ابتعد.

رمقتُ الكتاب بحبور، وعدتُ إلى الطفلين وأنا أُمسكه بكلتا يديّ وكأنّني أخشى أن يُغافلني فيطير مبتعدًا.

- أنتما طيّبان للغاية يا صغيريّ.. لن أنسى لكما أبدًا تضحيتكما من أجلي!

ردّ عليّ (عبد الله):

obeikan.com

كلّ الناس طيّبون يا عمّو.. الظروف فقط هي ما تُفسد كلّ شيء.

استغربتُ حكمته، وسألتُه بتردّد:

حتّى عمّكَ؟

صمتَ قليلاً ثم قال بحزن:

ربنا يسامحه.

ندمتُ على السؤال ولم أدرِ ما أقول، وأنقذتني (سعاد) حينما مرّت بنا فقالت لهما بشراسة:

لم تُحضرا الجنيهين اللذين عليكما اليوم! لن أصبر عليكما طويلاً!

وأشارت لي:

وأنتَ لم يتبقَّ لكَ سوى أسبوع واحد ثم تدفع بدوركَ!

قلتُ لهما مبتسمًا بعد أن تجاوزتنا:

قد يكون أناس كثيرون طيّبين، لكن لا تقولا لي إن (سعاد) طيّبة!

رمقا بعضهما ثم قال (عبد الله):

لو سمعتَ حكايتها ستصعب عليكَ.

عرفتُ منهما أنّ (سعاد) هذه هربت من بيتها في صغرها بسبب مضايقات زوج أمّها، أكثر من مرّة حاول التحرّش بها، وكلّما شكت لأمّها كانت تقف في صفّه هو، فاضطرّت في النهاية لمغادرة البيت ولم تعد أبدًا.. عاشت في

الشوارع التي لم تكن أرحم بها من البيت، تعرّضت للاغتصاب أكثر من مرّة، أحيانًا كان يأتي مجموعة شباب فيأخذونها بالقوة ويتناوبون الاعتداء عليها ثمّ يُلقونها في الشارع بعد أن يفرغوا منها.. ومع الوقت أصبحت تذهب معهم برضاها لتوفّر على نفسها الوقت والإهانة، وكما هو متوقّع وجدت نفسها حاملاً في ابن لا تدري من أبوه. لكنّ أكثر ما آلمها أنّها لم تستطع أن تستخرج له شهادة ميلاد، في كلّ مرّة كانوا يُطالبونها باسم الأبّ وبطاقته، فتخبرهم أنّها لا تعرف من هو، تبكي وتقول لهم إنّها ضحيّة اغتصاب، فلا يهتمّون.. وظلّ ابنها بلا هويّة تُثبت وجوده.

كانت كأيّ فتاة تعيش في الشوارع تزداد شراسة يومًا بعد الآخر، تخوض معاركها وتنتصر فيها أو تنهزم، إلى أن أصبحت قائدة لمجموعة ممّن لا مأوى لهم.

شعرتُ بالشفقة نحوها وندمتُ على حكمي السابق عليها، تذكّرتُ تعاطفي مع (رِهام) حينما عرفتُ قصّتها.. أليس من الممكن أنّ كلّ شخص في هذا العالم، مهما بدا شريرًا ظالمًا، لديه حكاية لو عرفناها لأشفقنا عليه وسامحناه وربما أحببناه؟ أليست الرحمة مزيجًا عبقريًّا من الشفقة والتسامح اللذين هما أصل كلّ العواطف؟ وما الرحمة إلا صورة راقية من صور الحبّ.

Obeikan.com

رأيتُ يا سادتي (عزيز) وهو يقول لي: دعوتكَ يا (نادر) أكثر من مرّة، لكنّكَ في كلّ مرّة تُحجم.

قلتُ له بانفعال: كيف آتيكَ وأنا من أنا.. آذيتُ كلّ من حولي ولم أتطهّر سوى بدماء ابني.. ابني الذي لم يُذنب ذنبًا ولم يُفسد العالم كما فعلتُ!

- تعالَ يا (نادر)، مهما فعلتَ، فقط تعالَ واطرق الباب يُفتح لكَ.. مهما أخطأتَ وأفسدتَ، فقط اطرق الباب يُفتح لكَ.

استيقظتُ بعدها وبحثتُ في جيبي بقلق وارتاحت نفسي حينما وجدتُ مسبحتي.. أخرجتُها وأخذتُ أستغفر بقلبي حتّى شعرتُ أنّ روحي اغتسلت.

لم أعد أعدّ الأيام، أغلب وقتي صرتُ أقضيه جالسًا في ركني المختار أسفل "الكوبري" أرقب الناس وأنا أعبث بحبّات مسبحتي وأتفكّر في بعض ما سمعته منكم يا سادتي، أتساءل عن سبب وجودي هنا، لماذا لا رغبة لديّ في المغادرة والعودة إلى حياتي، الاطمئنان على ابني، محاولة تطييب جرح (إيناس)، مقارعة أفاتار وإثبات براءتي أمام (كمال).. لماذا صارت كلّ تلك الأمور تبدو لي بعيدة وليست ذات بال؟!

كنتُ أعرف السبب حينما أرمق (إسراء) و(عبد الله)، أعرف أنّني هنا من أجلهما، لم يكن بمقدوري أن أغادر وأتركهما خلفي.

obeikan.com

انتبه بعض الأطفال إلى ما أقصّه على الأخوين من حكايات، فكانوا يقتربون منّا ليستمعوا على استحياء، فكنتُ أدعوهم بحماس ليُشاركونا.. وليلة بعد أخرى أصبحت الحلقة المحيطة بي تزيد.. حتّى (سعاد) نفسها كانت تتظاهر بأنّها تُحاول النوم بقربنا لتستمع إلى حكاياتي، ولم تعد تتعامل معي بنفس الشراسة السابقة، وحينما انتهى شهري الأوّل بينهم لم تسألني عن الجنيهات الخمسة المطلوبة منّي يوميًا.

ولما قاربت حكاياتي على النفاد قلتُ لهم ذات ليلة:

أتدرون ممّ صُنع العالم؟

أجابتني (إسراء) متّسعة العينين:

من اللحم والعظم؟

هززتُ رأسي نافيًا:

العالم مصنوع من أشياء صغيرة جدًّا جدًّا اسمها الذّرات.

انفجروا ضاحكين فضحكتُ معهم وأكملتُ:

كلّ ذرّة يوجد بداخلها عالم كبير كعالمنا، هناك شيء صغير في وسطها اسمه النواة، هي ابنة الذرّة المدلّلة، وحول النواة هناك إلكترونات تدور حولها ولا تبتعد عنها.

سألني ولد سمين يملأ العماص عينيه:

ولو بعدت يا عمّو ماذا يحصل؟

- لو خرجت الإلكترونات عن مسارها ينهار العالم، نختفي من الوجود.

سألتني (إسراء):

طيب لماذا لا تبتعد؟

- لأنّها تُحبّ النواة ولا تستطيع تركها، وكلّ ذرّة تُحبّ أختها فتنجذب إليها ولا تتركها، العالم كلّه مخلوق من الحبّ.

ولم أدارِ ترقرق الدموع في عينيّ، فرمقوني جميعًا بدهشة.

- حينما أقول الحبّ يا سادتي لا أقصد ما قد يتبادر لأذهانكم، حبّ الرجل للمرأة، هذا فقط نوع من أنواع الحبّ، الحبّ هو كلّ شيء حولنا، الهواء الذي نتنفّسه ولولاه ما حيينا، ألا يحبّنا ويمنحنا نفسه بلا مقابل؟ الحبّ هو زرقة السماء التي تُظلّلنا وأديم الأرض الذي يحملنا، بطون أمّهاتنا التي احتوتنا، الحبّ هو الشمس التي تُنير أيّامنا، مطر السماء الذي يُطهّرنا، كلّ شيء في العالم يحبّنا ونحبّه، لكنّنا لا ندرك ذلك. الحبّ هو أن تعرفه وتدرك أنّ كلّ شيء في العالم، كلّ عاطفة أو شعور جميل يقود في النهاية إليه.

قلتُ كلماتي الأخيرة وأنا أرفع إصبعي لأعلى، فرمقوا اتجاه إصبعي ولم يبدُ عليهم أنّهم فطنوا إلى من أقصده، لكن ارتسمت على وجوههم ملامح الانبهار والتبجيل.

- حينما نحبّ أبناءنا فنحن في الحقيقة نحبّه من خلالهم، لكنّنا لا ندرك ذلك.. حينما نحبّ آباءنا، حينما نحبّ بعضنا، حينما نعشق حبيبنا،

فإنّما نعشقه هو لا هم، نعشقه من خلالهم، نعشق جمال صنعته، ويملأ الضباب عيوننا فيُهيّأ إلينا أنّنا نعشقهم هم لذاتهم، لكنّنا في الحقيقة نعشقه هو.. الخلق ما هم إلا صور تتحرّك به وله، تعشقه وتظنّ أنّها تعشق غيره.

لذلك يا سادتي احذروا مشاعر الكِبر التي تتلبّس في صورة الحبّ، فهذا ليس حبًّا، هذه نفوسكم تُحاول خداعكم لتُرضي حاجتها للشعور بالكمال.

ارتسمت البلاهة على ملامحهم، وانشغل بعضهم عن كلامي ونهض آخرون، ففكّرتُ أنّ كلّ هؤلاء على ما هم فيه خيرٌ منّي، وقلتُ لهم مبتسمًا:

ستفهمون يومًا.. كما فهمتُ.

obeikan.com

سألني سِيدي (خيري) مبتسمًا:

هل تظنّهم فهموا ما قلتَه لهم عن الحبّ؟

- ليس مهمًّا أن يفهموا يا سِيدي.. المهمّ أن تُدرك قلوبهم مشاعري حتّى لو لم تستوعب عقولهم الآن معانيها.

- صرتَ تتحدّث عن الحبّ حديث العارفين.

رددتُ عليه ضاحكًا:

أنا عبدكم، بل عبد عبدٍ لعبدكم.. ومملوككم من بيعكم وشراكُمُ.

ثم قلتُ لهما:

تعلّمتُ من هذين الصغيرين معنى أن تُحبّ بلا هدف ولا مقابل، حتّى كان صباح اليوم.. أيقظتني هزّات عصبيّة من يد (عبد الله)، فسألتُه وأنا مازلتُ أُجاهد لفتح عينيّ:

ماذا هناك؟

وصلني صوته متوتّرًا:

(إسراء) محمومة!

obeikan.com

نهضتُ فزعًا وأسرعتُ إلى الفتاة.. كانت راقدة على ظهرها مسبلة العينين وهي تتأوّه بضعف.. تحسّستُ جبينها فوجدتُه ملتهبًا.

- يجب أن نأخذها إلى طبيب.. فورًا!

فهمتُ نظرة العجز في عينيّ (عبد الله).. أنىّ لنا بنقود كشف الطبيب؟

تركتُه وأسرعتُ أركض في الشارع وأنا أرمق لافتات البنايات بحثًا بلهفة عن طبيب أطفال.. دخلتُ إحدى البنايات مسرعًا، فهرول البوّاب ورائي:

انتظر يا هذا.. ماذا تريد؟!

لم أتوقّف وأشرتُ له لأعلى وأنا أقفز فوق السلالم:

دكتور منتصر طبيب الأطفال في الدور الثاني.

اقتحمتُ العيادة وأسرعتُ إلى الفتاة الجالسة فوق مكتب متهالك وسألتُها:

هل الدكتور موجود؟

أجابتني دون أن ترفع رأسها عمّا تُدوّنه:

الدكتور يأتي من السابعة مساءً حتّى الحادية عشرة.

ثمّ رفعت عينيها إليّ وتغيّرت نظرتها حينما وقع نظرها على ملابسي الرثّة وشعري المنكوش ولحيتي غير المشذّبة، وقالت بصرامة:

الكشف خمسون جنيهًا.

قلتُ لها برجاء:

ابنتي مريضة للغاية ولن تستطيع الانتظار حتّى الليل.. وليس معنا خمسون جنيهًا، هل يمكن أن يتنازل الدكتور عن كشفه لوجه الله؟!

رمقتني بصرامة وهي تقول:

خمسون جنيهًا يا أستاذ لا تنقص قرشًا!

وصل البوّاب في تلك اللحظة، فجذبني من كتفي ودفعني أمامه خارج العيادة وهو يعتذر للفتاة:

معذرة يا أبلة، دخل البناية دون إذني!

جذبتُ كتفي من بين قبضته بغضب وغادرتُ البناية وأنا لا أدري ماذا أفعل.

عدتُ إلى "الكوبري" فبادرني (عبد الله):

جمعنا كلّ الفلوس التي معنا فلم تُكمل عشرين جنيهًا.. ننتظر حتّى يرجع بقيّة الرفاق فربما معهم فلوس أكثر؟

كان الأطفال الستة المتواجدين أسفل "الكوبري" في تلك اللحظة يرمقونني منتظرين قراري.. يجب أن نبحث عن طبيب آخر يتواجد نهارًا، لكن لو وجدناه هل سيقبل أن يكشف على (إسراء) مجانًا؟ ولو قبل فهل سيرضى الصيدلي بصرف الدواء لنا بلا نقود؟ شعرتُ بالعجز والألم،

فكّرتُ أن أذهب إلى البنك وأسحب نقودًا من حسابي.. لكن كيف بمظهري هذا وبعد أن تخلّصتُ من بطاقتي الشخصيّة!

أسرعتُ إلى صفيحة القمامة واعتليتُ الأكياس المتناثرة حولها وأخذتُ أبحث كالمجنون عن محفظتي، لكنّني كنتُ كمن يبحث عن إبرة في كومة قش.. لم أجد شيئًا بالطبع، فجلستُ على الأرض ألهث.. فكّرت أن نأخذها إلى مستشفى حكوميّة، لكنّني لم ألبث أن تراجعتُ عن الفكرة.. الرعاية هناك سيّئة ولن يهتمّوا بها، ناهيك عن أنّ أقرب مستشفى حكوميّة تحتاج إلى أخذ سيّارة أجرة لا نملك أجرها.

سألني (عبد الله) بإحباط:

ماذا سنفعل الآن؟

- سأتصرّف.. (إسراء) سيراها طبيب فورًا!

لم أكن واثقًا من قدرتي على فعل ما سأفعله.. بحثتُ بعينيّ حتّى وجدتُ شخصًا سائرًا اطمأنّت نفسي إلى بشاشة ملامحه.. اقتربتُ منه وقلتُ له بتردّد:

لو سمحتَ يا أستاذ..

رمق ملابسي بدهشة ثمّ أسرع في خطوه حتّى ابتعد.

تلفّتُ حولي شاعرًا بالعجز.. مرّ بي آخر، فقلتُ له برجاء:

لو سمحتَ..

توقّف ورمقني متسائلاً.

- كنتُ أريد أن.. أن...

ثمّ قلتُ له بحزن:

معذرة، شكرًا.. لا شيء هناك.

فتركني ومضى، بينما سألني (عبد الله) بدهشة:

لماذا لم تطلب منه فلوس كشف (إسراء)؟!

أجبتُه وأنا أرمق الأرض:

لم أستطع!

قال بعزيمة:

أنا سأفعل!

أمسكتُ بيده:

لا، ليس أنتَ، لو سيمدّ أحدنا يده فسيكون أنا.. أنتَ مازلتَ صغيرًا.

واندفعتُ تجاه أوّل عابر للطريق وأنا أقول بخجل:

لو سمحتَ يا أستاذ.. لدينا طفلة صغيرة بحاجة لكشف وعلاج، هل يمكنكَ أن تُساهم في ذلك؟

obeikan.com

لكنّه تركني ولم يردّ عليّ.. فأخذتُ ألهث وكأنّني بذلتُ مجهودًا كبيرًا، استجمعتُ إرادتي لأحبس دموعي، يجب أن أظلّ متماسكًا أمام (عبد الله).

وعلى مدار الساعتين التاليتين اعترضتُ طريق كثيرين، رجال ونساء وعجائز، أقسمتُ لهم إنّنا بحاجة للنقود لإنقاذ صغيرتنا، لم يصدّقني أغلبهم، وتركني كثيرون ولم يلتفتوا إليّ، وقلّة قليلة اهتمّوا ومنحوني ما جادت به نفوسهم.. تجمّع بين يديّ أربعة عشر جنيهًا ونصف.. مازال أمامنا كثير حتّى نصل إلى الخمسين جنيهًا.

- معلش يا عمّو، ننتظر حتّى يعود رفاقنا، فربما معهم فلـ...

قاطعتُه بعزم:

لن ننتظر أكثر.. تعالَ معي.

أسرعتُ إلى (إسراء) فحملتُها، ووقفتُ مع (عبد الله) نحاول إيقاف سيّارة أجرة.. رفض كثيرون الوقوف لنا، فاضطررتُ في النهاية أن أقف في طريق سائق عجوز يبدو طيّب الوجه، وهتفتُ به:

سأدفع لكَ ما تريد، أرجوكَ.. معنا فتاة صغيرة بحاجة للذهاب إلى طبيب!

وهكذا يا سادتي جئتُكم.

سألتُ سِيدي (خيري) ما إن انتهيتُ:

أتراني يا سِيدي قد وصلتُ لمقام العشق متجاوزًا كلّ المقامات الأخرى؟

افترّ ثغره عن ابتسامة واسعة وهو يُجيبني:

مازال بينكَ وبين مقام العشق أشواط وأشواط، أنتَ فقط ذقتَ قطرة فارتجف قلبكَ وظننتَ أنّكَ وصلتَ، لكنّكَ لم تثمل بعد.. حينما تصل لمقام العشق ستفنى عن كلّ شيء سواه، وستفنى حتّى عن فنائكَ!

أخذ سِيدي (عامر) خيط الحديث فأكمل:

أنتَ تجاوزتَ مقام الانكسار، سِيدي (نادر)، ومازال الطريق أمامكَ طويلاً.

قلتُ لهما بحماس:

وأنا متشوّق لإكماله.

تنحنح سِيدي (خيري) وقال لي:

اتّصلتُ بالسيّدة زوجتكَ وأخبرتُها أنّكَ عدتَ.. هذه السيّدة تُحبّكَ فعلاً وتستحقّ أن تطمئنّ عليكَ.. خذ بنصيحتي يا سِيدي وحاول أن تتعلّم منها!

كنتُ أتخيّل هذا اللقاء منذ فترة طويلة، أنتظره وأخشاه.. في آخر مرّة رأيتُ فيها (إيناس) كانت تتّهمني بأنّني المسؤول عمّا أصاب (أدهم)، وكانت على حق.. سأستحقّ سُبابها ولعناتها.

أحضر لي سِيدي (عامر) مقصًّا وشفرة حلاقة لأحلق ذقني، وأعطاني جلبابًا جديدًا من جلابيب سِيدي (حسنين)، وتركني هو وسِيدي (عامر) كي أستحمّ في الحمّام الملحق بالزاوية وأُحاول استعادة شيء من مظهري السابق كي لا تفزع (إيناس) حين تراني.

جلستُ بجوار (عبد الله) وقلتُ له مطمئنًا:

لا تخشَ على (إسراء)، ستعود لنا في أحسن حال.. أنا أثق في سِيدي (عامر).

كنتُ أُحدّثه وعيني على باب الزاوية الذي تركه سِيدي (حسنين) مفتوحًا، في أيّ لحظة ستعبره (إيناس)، ولا أدري بأيّ وجه ستأتيني؛ وجه المُحِبّة القديمة أم وجه المرأة المجروحة.

كان (عبد الله) قلقًا من كلّ ما يحدث حوله، التصق بي حيث جلسنا وسألني راجيًا:

احكِ لي حدّوتة!

قصصتُ عليه قصّة الرجل الذي طال عمره فظنّ نفسه إلهًا وقرّر أن يُحرّك الجبال عن مواضعها، ظلّ يدفع الجبل الأوّل دون أن يُزحزحه إلى

أن خارت قواه.. وبينما أحكي شعرتُ أنّ عليّ أن أرمق الآن باب الزاوية، فرفعتُ عينيّ ورأيتُها تعبره.

كان هناك شيء ما مختلفًا فيها، بدت لي قد ازدادت جمالاً وإشراقًا، عيناها لامعتان وبشرتها ناعمة نضرة يودّ المرء معها لو يتحسّس خدّها ويُربّتُ عليه.. ربما كانت كذلك طوال الوقت لكنّني لم أكن أُلاحظ.

ركّزتُ نظري لأرمق هالتها، تخيّل يا (عزيز) أنّني طوال تلك السنوات التي قضيتُها معها لم يخطر على بالي أن أُلقي نظرة على هالتها.. تشكّلت أمامي فإذا هي لبنيّة ناصعة مصطبغة باللون الوردي.

قطعتُ كلامي مع (عبد الله) ونهضتُ بانفعال لأستقبلها.. كانت ترمقني بنظرة ثابتة جامدة بها شيء من الدهشة وهي تقترب منّي.. بالتأكيد مظهري مازال غريبًا عن المعتاد، فقدتُ وزنًا ومازال شعري طويلاً ثائرًا.. مددتُ لها يدي لأُصافحها بتردّد، لكنّها بدلاً من أن تتلقّاها رفعت ذراعها ثمّ هوت بها على خدّي لتصفعني بكلّ قوّتها صفعة دفعتني إلى الوراء، وبالكاد استطعتُ أن أمنع نفسي من السقوط، وامتلأت أذني بالطنين، بينما أخذت هي تصرخ في وجهي بانفعال:

- أنتَ.. أنتَ.. كيف تفعل بي هذا؟! كيف تُقلقني عليكَ بهذا الشكل؟! ألن تكفّ عن أنانيتكَ تلك؟!

تحسّستُ خدّي ثم اقتربتُ منها.. فوجئتْ بي أجثو على ركبتيّ أمامها وأتناول يدها فأُقبّلها بخشوع وأنا أقول:

أتعلمين يا حبيبتي؟ كان أبو الحسن الشاذُلي يبحث عن شيخ قطب يتعلّم على يديه، فارتحل من بلده في المغرب إلى تونس فمصر والعراق.. وفي العراق التقى بالشيخ أبي الفتح الواسطي خليفة الإمام أحمد الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعيّة، فقال له الشيخ مستنكرًا: أتبحث عن القطب في العراق وهو في بلادكَ في المغرب؟

فعاد الشاذلي إلى المغرب وهناك التقى بشيخه عبد السلام بن مشيش، وجده في مغارة فوق جبل.. صحبه فترة قبل أن يرتحل إلى تونس فمصر ليُقيم في الإسكندريّة ويؤسّس الطريقة الشاذُليّة.

رمقتني غير فاهمة.. بالتأكيد لم تتوقّع أن ألتقيها بعد كلّ هذه الغيبة فأحكي لها قصّة أبي الحسن الشاذُلي.

- ما الذي تقوله؟! ماذا تقصد؟!

أمسكتُ كفّها فقبّلتُه من جديد وأنا أستطرد:

بحثتُ عن قلبي بعيدًا لأنّني كنتُ غبيًّا فلم أُدرك أنّه كان هنا طوال الوقت بقربي.. أرجوكِ سامحيني!

أجهشتْ فجأة في البكاء وهي تُحيط رأسي بيديها وتُغمغم:

إيّاكَ إيّاكَ إيّاكَ أن تفعل ذلك مرّة أخرى!

رفعتُ إليها عينين مبللتين وأنا أقول ضاحكًا:

أنا عبدكم، بل عبد عبدٍ لعبدكم.. ومملوككم من بيعكم وشراكُم.

تورّد خدّها وغمغمت:

(أدهم) ينتظركَ في البيت مع أمّي.

رمقتُها بحزن وأنا أقول:

لن يمكنني ترك (عبد الله) و(إسراء) وحدهما في الشارع.

اقترب (عبد الله) منّا حين سمعني أذكر اسمه هو و(إسراء)، فتأمّلته (إيناس) بدهشة وتردّد قبل أن تُغمغم:

يمكنهما أن يأتيا معكَ.. لو كان هذا سيُريحكَ.

obeikan.com

كتبتُ على "الفيس بوك" من خلال "لاب توب" (إيناس)، ما إن استقرّت أموري:

"عجيبٌ هو قلب الأنثى، ورائعة هي مشاعرها حين تعشق..

حين تكون أمًّا أو حبيبة.. تُشعركَ أنّها المصدر الذي تُخلق من خلاله المشاعر ثمّ تُوزّع على أهل الأرض.. تُذكّركَ مشاعرها بالطبيعة الأمّ في قوّتها وعنفوانها وإخلاصها.. مشاعر ربّانيّة قادمة من عالم ليس كعالمنا، مشاعر صافية ليست فيها حسابات أو اختيارات.. مشاعر ساذجة بريئة لا نقدّرها نحن الرجال كما يجب، ربما لأنّنا أرضيّون أكثر من اللازم فلا نستطيع استيعابها، تُشعرنا بالخوف فنسخر منها..

مشاعر الأنثى يجب أن تُدرّس في المدارس والجامعات، لنتعلّم جميعًا كيف نُحبّ"

حصد "البوست" ما يزيد عن ألفي "لايك" في الدقائق الأولى، وانهالت رسائل الاطمئنان على صندوق رسائلي، فنهضتُ وتركتُ "اللاب توب" لـ(إيناس) ضاحكًا:

أنتِ منذ الآن "الأدمن" الذي يُدير صفحتي.. رُدّي على كلّ الرسائل.

سألتني بدهشة:

ماذا أقول لهم؟

- اشكريهم وأخبريهم أنّني أُحبّهم.

هتفت مستنكرة:

تُحبّهم؟!

أسرعتُ أُقول مصحّحًا:

الأولاد أخبريهم أنّني أُحبّهم، والفتيات أخبريهنّ أنّني أُعزّهنّ.. امممم.. لا تقولي لهنّ شيئًا، فقط اشكريهنّ.

فهزّت رأسها راضية.

كان السؤال الذي أراه وأسمعه دومًا: أين غبتَ كلّ هذه الشهور؟ سألنيه زوج خالتي و(صلاح) و(مصطفى) و(إسلام) ابن عمّي والصحفيّون الذين أرسلوا لي يطلبون تصريحًا وجميع أصدقائي وزملائي ومعارفي وكلّ من راسلني من القراء؛ فكنتُ أبتسم وأُجيب صادقًا: لا أذكر.. كنتُ مجنونًا ذهب عنّي عقلي، لكنّني الآن (نادر) جديد غير القديم الذي كان معكم واختفى.. لم أخبر أحدًا بتفاصيل تجربتي سوى سِيدي (خيري) وسِيدي (عامر) و(إيناس).

بعد يوم من عودتي اتّصل بي (إبراهيم) يهنّئني بسلامتي.

- قلقنا عليكَ كثيرًا، الأستاذ (فهمي) وأنا، خشينا أن يكون أحد أعضاء أفاتار قد تصرّف معكَ دون العودة إلينا، كانت هذه ستكون سابقة مخيفة في الجماعة!

شكرتُه وطلبتُ منه أن يُوصل سلامي للأستاذ (فهمي).

- نحن مازلنا ننتظر عودتكَ يا (نادر)، ما حدث في أماندا يمكن إصلاحه.

قلتُ له بلهجة قاطعة:

طرقنا لم تعد متقاطعة يا (إبراهيم)، أنتم تعتمدون على العمل السرّي وترون أنّكم الأفضل، بينما أنا أصبحتُ أقول لنفسي إن كلّ الناس خيرٌ منّي.

لم أُحاول العودة إلى أماندا ولم أردّ على اتّصالات (كمال الألفي)، هذه مرحلة انتهت من حياتي.. قدّمتُ أوراقي من جديد إلى المدرسة التي كنتُ أعمل فيها معلّمًا للغة العربيّة، رحّبوا بي معهم وأخذتُ جدول الحصص من المدير.. تعلّمتُ مؤخّرًا أنّ الأطفال فيهم قبسٌ من النور العلوي، لا يوجد أجمل من أن يتعامل المرء معهم وينقل إليهم خبراته.

استعنتُ بنفوذ زوج خالتي ضابط أمن الدولة كي يتمّ تسجيل ابن (سعاد) ومنحه شهادة ميلاد.. قلتُ لها وهي تجلس بجواري في سيّارتي التي تمّ إصلاحها، وبين يديها ابنها ذو السنوات الأربعة، بعد أن خرجنا من مكتب الصحّة:

نسبوه إلى والدكِ، هذا أفضل حلّ مادمنا لا نعرف والده.

شهقتْ فجأة بالبكاء وهي تحتضنه بيد وبالأخرى تعتصر شهادة ميلاده:

لكنّه.. لكنّه لم يتلقَ تطعيماته في أوقاتها!

أما (إسراء) و(عبد الله) فقد قدّمتُ لهما في نفس المدرسة التي يذهب إليها (أدهم)، وأصبحا يبيتان مع هذا الأخير في غرفته.. كانت (إيناس) تتعامل معهما في البداية بتردّد، لكنّها لم تلبث أن رقّت لهما بعدما أخبرتُها بقصّتهما وبعد أن تعاملتْ معهما بنفسها.

ولم يهدأ لي بال حتّى اهتديتُ إلى عمّ (عبد الله)، وأوكلتُ لمحامٍ صديق أن يرفع ضدّه قضيّة لأُعيد لـ(عبد الله) ميراثه مثلما أعاد جدّي ميراثي أنا وأمي.

عرفتُ من (صلاح) و(مصطفى) أنّ (كريم) سافر منذ فترة للعمل في تركيا وانقطعت أخباره عنهما.. أمّا (رِهام) فقد اختفت تمامًا، قامت بعمل deactivation لحسابها على "الفيس بوك" منذ ثلاثة أشهر ولم تعد من وقتها.

لم أستغرب أنّ الكابوس لم يعد يزورني، لكنّي تعجبتُ كثيرًا من اكتشافي أنّني لم يعد بمقدوري رؤية الهالات.. هكذا فجأة وبدون مقدّمات، مهما ركّزتُ نظري لا ينكشف أمامي شيء.. ربما لم أعد بحاجة لهذه القدرة فزالت من داخلي.

اختفائي الغامض زاد من شهرتي، فعرضت عليّ أكثر من دار نشر أن تنشر لي روايتي الجديدة ورواياتي القديمة التي تخلّت عنها أماندا، لكنّني أخبرتهم جميعًا بحكمة جميلة من حِكم مولانا ابن عطاء الله السكندّري

قدّس الله سرّه "ادفن وجودكَ في أرض الخمول، فما نَبَتَ ممّا لم يُدفن لا يتمّ نتاجه".. ولمّا سألني مدير دار جولدن بن عمّا أقصده بالحكمة، أجبتُه باقتضاب:

أي إنّني سأختفي قليلاً عن الأنظار لأُربّي نفسي وأُعوّدها الابتعاد عن الأضواء.. لن تكون هناك روايات قديمة أو جديدة تحمل اسمي في السوق لفترة الله أعلم بها.

- لكن.. لكنّكَ هكذا ستفقد جمهوركَ ومتابعينكَ.. سينساكَ النّاس!

- المهم ألا أنسى نفسي!

ثمّ فوجئ الجميع بي أُغلق "أكاونتي" على "الفيس بوك" وكذلك صفحة "الفان بيج" الخاصة بي، وغيّرتُ رقمي إلى رقم جديد لم أُعطه سوى للأصدقاء المقرّبين.

لكنّني لم أكن صادقًا تمامًا يا (عزيز) في عزلتي الاختياريّة، كنتُ يوميًا قبل النوم أقضي ساعة أو اثنتين في العمل على مخطوط روايتي الجديدة "تحت الكوبري".. الرواية التي ضمّنتُها تجربتي في العيش مع أطفال الشوارع، و أنوي نشرها ما إن أفرغ منها، ستكون هي روايتي الأولى، لأنّني لن أُعيد نشر أيٍ من أعمالي السابقة.

بعد انتهاء المدرسة كنتُ أمرّ في بعض الأيام على الجمعيّات الأهليّة المتخصّصة في رعاية أطفال الشوارع.. لم تكن المهمة صعبة، فعدد هذه الجمعيات لم يكن يزيد عن 20 جمعيّة، من مجموع 32 ألف جمعيّة أهليّة في مصر!

كنتُ أُحاول إقناع القائمين على تلك الجمعيات برؤيتي لحلّ مشكلة أطفال الشوارع خلال السنوات العشر القادمة.. فلو استطعنا التواصل مع المؤسّسات والشركات والأحزاب ورجال الأعمال وأقنعناهم بوضع أطفال الشوارع على جدول أعمالهم.. لو كلّ غني أو رجل أعمال تكفّل برعاية ثلاثة أو أربعة أطفال وأصبح مسؤولاً عنهم وعن مصاريفهم، بدءًا من إعادة تأهيلهم نفسيًّا وإعادتهم إلى المدارس ليُكملوا تعليمهم وانتهاءً بمساعدتهم في الحصول على مهنة أو وظيفة بعد تخرّجهم، لو أصبح كلّ قادر في المجتمع يضطلع بمسؤوليّة كهذه، فستنتهي المشكلة مع الوقت.

لكنّهم كانوا يُخبرونني أنّ علينا علاج المشكلة من المنبع، من الأسرة التي يفرّ منها أغلب هؤلاء، وهذا يحتاج إلى إصلاحات اقتصاديّة واسعة ليست بيدنا بل بيد الدولة. فأعود وأُخبرهم: إذن فلنقم نحن بما في مقدورنا!

لكنّ أروع أوقات اليوم كانت حين أذهب إلى الزاوية لأحضر مجلس الذكر مع سادتي، ثمّ نُنشد سويًّا بأعذب الأصوات:

أنتم فُروضِي ونَفْلي.. أنتم حديثي وشغلي

يا قِبْلَتي في صلاتي.. إذا وقفتُ أُصلّي

جمالُكُم نَصْبُ عيني .. إليه وجَّهتُ كلِّي

وسِرّكُم في ضميري .. والقلب طُورُ التّجَلّي

آنستُ في الحيّ نارًا.. ليلاً فبشَّرتُ أهلي

قلتُ امكثوا فلعلِّي.. أَجِد هُدايَ لَعَلّي

Obeikan.com

دنوتُ مِنْها فكانَت.. نار المُكَلَّمِ قبلي

نُودِيتُ مِنها جِهارًا.. رَدّوا لَيالِيَ وَصلي

حتّى إذا ما تَدانَى.. الميقات في جمعِ شملي

صارت جبالي دكًّا.. من هيبة المُتجلِّي

obeikan.com

نزلتُ من القطار فوجدتُ (إسلام) في انتظاري على الرصيف.. تبادلنا العناق والأحضان، لشدّ ما تغيّر.. آخر مرّة رأيتُه كانت منذ ما يزيد عن خمسة عشر عامًا، وكان أنحف من هذا وفي عينيه بريق أكثر مرحًا.

- تفضّل يا ابن عمّي.. زوجة عمّكَ و(سلمى) وزوجها وأبناؤها في انتظاركَ.

جذبتُه من كمّ جلبابه ورجوتُه:

خذني إليه أوّلاً.

هزّ رأسه متفهّمًا، ثمّ ركبنا التوك التوك الذي كان في انتظاره.

- خذنا إلى الجبابين.

وقفتُ أمام قبر عمّي دامع العينين وقلتُ لـ(إسلام):

لم أكن أعرف.. لم أكن موجودًا.. ليتني جئتُه قبل أن يرحل.

قال لي بحزن:

كان يريد أن يلتقيكَ ليخبركَ أنّه لم يكن ينوي أكل مالكَ.. كلّ ما هنالك أنّه خشي أن تُبدّده والدتكَ فأراد أن يحفظه لكَ ويسلّمكَ إياه حينما تبلغ سنّ الرشد.. ربما راوده الطمع في بعض الأحيان، لكنّه أراد أن يعتذر لكَ عن كلّ هذا، ويسمعكَ وأنتَ تُسامحه.

Opeikan.com

- سامحتُه، سامحتُه دون أن يقول شيئًا.. لا يوجد ما يستحقّ يا ابن عمّي.. الخوف يعمي أبصارنا ويطمس بصيرة الحبّ في قلوبنا.

والتفتُّ إلى قبر عمّي الذي يجاور قبر أبي:

سامحني يا عمّي، كان يجب أن أكون معكَ في لحظاتكَ الأخيرة.

- سأنتظركَ في الخارج حتّى تدعو لهما وتقرأ الفاتحة على روحيهما.

وتركني وغادر.

قرأتُ لهما الفاتحة ووقفتُ قليلاً أمامهما صامتًا.

تذكّرتُ اللحظات الجميلة في الإسكندريّة حين كانت النفوس صافية والقلوب مُحبّة.. مرت بي نسمة من الهواء حرّكت بعض تراب الأرض، فغمغمتُ لنفسي:

أنا لا شيء اللا شيء، كلّنا لا شيء اللا شيء.

obeikan.com

حينما كلّمني (إبراهيم) لم أُخبره بأنّني سجّلتُ له على "موبايلي" عندما صارحني أمام المصعد بخطّة أفاتار لطردي من أماندا، بإمكاني أن أفضحهم بهذا التسجيل وأستعيد مكاني في أماندا وسمعتي، لكنّني تغيّرتُ يا (عزيز) ولم أعد مهتمًّا بتنفيذ وعدي بتدمير أفاتار، فوجودهم في الحياة مهم، تمامًا كوجود الشرّ.. وبدلاً من ذلك قرّرتُ تفعيل الكيان الذي أنشأتُه مع أصدقائي.. لم يبقَ سوى (صلاح) و(مصطفى)، فأخبرتُهما أنّ علينا نقل عملنا إلى العلن وتجميع أكبر قدر ممكن من الكتّاب الذين يؤمنون بأهدافنا، سنوعّي الكتّاب وننصحهم ونوجّههم ونطلب منهم أن يساعدونا في تأدية رسالتنا، وستظهر كيانات أخرى شبيهة تحمل نفس الأهداف، ومع الوقت سيتغيّر سوق النشر من نفسه إلى الأحسن، دون الحاجة إلى السيطرة أو التحكّم في أيّ شيء.

وهكذا يا (عزيز) أجلس معكَ هنا في محل الكشري من جديد، أقصّ عليكَ ما انتهى إليه أمري، مرتديًا قميصًا نصف كمّ وبنطلون جينز.. أراكَ وأنتَ تهتف بصبي المحل في غضب أن يأتينا بالمزيد من المياه الباردة، فأبتسم مدركًا أنّكَ لستَ غليظ القلب كما قد يعتقد ذلك الصبي، لا أحد يفهمكَ مثلي يا (عزيز).

مازال الطريق أمامي طويلاً، كما أخبرني سِيدي (خيري)، لكنّني أنوي قطعه.. وأعرف أنّني قد أسقط كثيرًا لكنّني مطمئن لوجودكَ بجواري،

ستظهر في الوقت المناسب لتُساعدني حينما أطلب المساعدة، تعلّمتُ الدرس منكَ وسأقبل بالمساعدة حين تأتيني.

هكذا أصبحتُ يا (عزيز)، أكره نفسي لكنّني أُحبّني أنا، وأكره كلّ من يسقي بذور الكِبر بداخلي أو يوقظ مكامن الشرّ الخاملة، وأُحبّ من يرعى أشجاري الموجودة سلفًا ولا يغطّيها بالظلّ..

Obeikan.com

حبّي لكم طَبعًا بغير تكلّفٍ.. والطبعُ في الإنسان لا يتغيّرُ

فإذا نطقتُ ففي حديثي جمالكم.. وإذا سكتتُ ففيكم أتفكّرُ

حاموا على جبر القلوب فإنّها.. مثل الزجاجة كسرها لا يُجبرُ

عبد الغني النابلسي (1050 هـ – 1143 هـ)

obeikan.com

obeikan.com

هذا العمل ما كان ليخرج في شكله الحالي لولا دعم ومساندة مجموعة من أروع الأصدقاء الذين خرجتُ بهم من الدنيا، قرأوه معي أوّلاً بأوّل في كلّ مراحله ومنحوني ملاحظاتهم وتشجيعهم بلا حدود، وكلمات الشكر والامتنان لا تكفي لأوفيهم حقّهم:

أحمد القرملاوي – محمد الصفتي – حسن الجندي – محمد صادق – شيرين سامي – رِهام راضي؛ شكرًا جزيلاً على تشجيعكم ودعمكم في لحظات عدم اليقين.

مصطفى سيف – محمد فاروق – ميسرة الدندراوي – إيمان عبد المجيد ؛ شكرًا جزيلاً على الاهتمام والملاحظات والآراء القيّمة.

أما علاء ربيع فكانت ملاحظاته وتوجيهاته مُلهمة ولا غنى عنها في إحكام الكثير من أجزاء النّص، فله امتنانٌ في القلب إلى آخر العمر.

وكالعادة قبل الجميع وبعدهم؛ زوجتي العزيزة مروة سمير.

Obeikan.com

obeikan.com

للتواصل

البريد الإلكتروني للكاتب:

ahmadxmajeed@live.com

صفحة الكاتب على موقع facebook:

https://www.facebook.com/Majeed2014

صفحة الرواية على موقع facebook:

https://www.facebook.com/eshq.novel

صفحة الرواية على موقع goodreads:

https://www.goodreads.com/book/show/23521419

لإبداء الآراء:

#رواية_عشق

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372   011-27772007

obeikan.com